

سعيد أيوب

ابتلاءات الأمم

تأملات في الطريق الى المسيح الدجال

والمدي المنتظر

في اليهودية والمسيحية والاسلام



ابتلاءات الامم



سعيد أيوب

ابتلاءات الامم

تأملات في الطريق الى المسيح الدّجال
والمهدي المنتظر
في اليهودية والمسيحية والاسلام

دار الفکر
بيروت - لبنان

مَحَبَّةُ الْحَقِّ وَالْحَقُّونَ مَحْفُوظَةٌ
الطبعة الثالثة
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دارالهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧ / ٠١ - ٨٩٦٣٢٩ / ٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦ / ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: <http://www.daralhadi.com>



دعاء

اللهم لا تعذب عيناً تنظر إلى علوم تدل عليك
ولا يدا تكتب في سبيلك
ولا لساناً يخبر عنك
ولا قدماً تمشي في خدمتك
سيدي . بعزتك وجلالك لا تدخلني النار
سيدي . لا تدخلني النار . وجميع من قال آمين

المدخل

● المقدمات والنتائج الحقيقية:

إن للتاريخ حركة. ولمعرفة الحاضر معرفة حقيقية يجب التقيب في أوراق الماضي. ثم ترتب المعلومات على إمتداد الرحلة لإستنتاج المجهولات، والذي فطرت العقول عليه هو أن تستعمل مقدمات حقيقية يقينية لإستنتاج المعلومات التصديقية الواقعية، فالحاضر لا يمكنه الوقوف على حقيقة إلا بالرجوع القهقري. وتحليل الحوادث التاريخية للحصول على أصول القضايا وأعراقها. فعند الأصول تُرى النتيجة على مرآة المقدمة، ولأن حركة التاريخ على صفحتها الصالح والطالح ويصنع أحداثها المحسن والمسيء. فلا بد من تحديد الدوائر والخطوط بدقة ليظهر أصحاب كل طريق، وظهور هؤلاء على صفحة الحاضر لا يتحقق إلا بعرض حركتهم في أحداث الماضي على قاعدة العلم، ولأن التشريع الديني والتقنين الإلهي هو الذي بنى على علم فقط دون غيره، فلا بد من عرض الحركة البشرية على هذا التشريع والتقنين، فعلى قاعدة العلم تظهر حقيقة العمل، والقرآن الكريم قارن العلم بالعمل لتظهر الحقيقة عند المقدمة. ولا يحدث الإلتباس أمام الباحث عند النتيجة.

● ولكي تحصل على الحقيقة فلا بد من النظر في المقدمة الأزلية

التي عندها بدأ الخلق، فعند هذه المقدمة نرى العلم الذي عليه حددت الحركة، وبعد النظر في المقدمة الأزلية نتدفق على المسيرة البشرية، لنبحث عن إستقامة الفكر والحركة. وخلصهما من شوائب الأوهام الحيوانية والإلقاءات الشيطانية.

١ - [حجة الفطرة]

للإنسان مهمة. ومهمته عبادة الله تعالى. قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾^(١) والمعنى: أي إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي لا لإحتياجي إليهم^(٢). وحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلة والعبودية وتوجيه وجهه إلى مقام ربه^(٣). ولأن العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة. جهز الله تعالى الإنسان بالفطرة وجعل ينبوع دينه سبحانه فطرة الإنسان نفسه، وقضى تعالى بأن تكون الفطرة ضمن النسيج الإنساني لا تتبدل ولا تتغير أبداً، لتكون حجة بذاتها على الإنسان يوم القيامة، وينبوع الدين في الفطرة يشهد به قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا. أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾^(٤). قال المفسرون: إجتمعوا هناك جميعاً وهم فرادى، فأراهم الله ذواتهم المتعلقة بربهم، وأشهدهم على أنفسهم ﴿ألست بربكم﴾. وهو خطاب حقيقي لهم وتكليم إلهي لهم. وهم يفهمون مما يشاهدون أن الله سبحانه يريد منهم الإعتراف وإعطاء الموثق ﴿قالوا بلى شهدنا﴾. وأعطوه الإقرار بالربوبية. فتمت له سبحانه الحجة عليهم يوم القيامة.

(١) سورة الذاريات آية ٥٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٣٨ / ٤.

(٣) تفسير الميزان ٣٨٨ / ١٨.

(٤) سورة الأعراف آية ١٧٢.

وإن كانوا في نشأة الدنيا على غفلة إلا أنهم إذا كان يوم البعث عادوا إلى مشاهدتهم ومعايشتهم وذكروا ما جرى بينهم وبين ربهم، ولو لم يفعل الله تعالى هذا ولم يشهد كل فرد على نفسه. لأقاموا جميعاً الحجة عليه يوم القيامة. بأنهم كانوا غافلين في الدنيا عن ربوبيته. ولا تكليف على غافل ولا مؤاخذه^(١).

● فعلى هذه الفطرة يولد الإنسان. قال رسول الله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة» يعني على المعرفة بأن الله عز وجل خالقه^(٢) ولما كانت المعرفة قد ثبتت عند المقدمة ونسى الإنسان الموقف في الدنيا وسيذكره في الآخرة، فإن الله سبحانه قد أقام على الإنسان الحجج في الدنيا لقوله على ما ثبت عند المقدمة. وتكون زاداً له في سلوكه نحو الآخرة. ومن هذه الحجج ما هو ضمن النسيج الإنساني. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٣) قال في الميزان: أي جهزنا الإنسان في بدنه بما يبصر به فيحصل له العلم بالمرئيات على سعة نطاقها، وجعلنا له لساناً وشفتين يستعين بهما على التكلم والدلالة على ما في ضميره من العلم، وعلمناه طريق الخير وطريق الشر بإلهام منا فهو يعرف الخير ويميزه من الشر. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٤). قال في الميزان: أي إنه تعالى عرف الإنسان صفة فعله من تقوى أو فجور، وميز له ما هو تقوى مما هو فجور^(٥).

ومن هذه الحجج أيضاً ما هو تحت سقف الكون الواسع.

(١) الميزان ٨/٣٢٥.

(٢) المصدر السابق ٨/٣٣٠.

(٣) سورة البلد آية ٧ - ١٠.

(٤) سورة الشمس آية ٦.

(٥) الميزان ٢٠/٢٩٦.

وجميعها تدعو الإنسان للتقوى في التفكير والتذكر والتعقل للحصول على إستقامة الفكر وإصابة العلم. قال تعالى: ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾^(١).

● إن للإنسان هدف وغاية. وكليات دين الله موجودة في فطرة الإنسان. ولا تبدل الفطرة أبداً لأنها حجة بذاتها وإنما يخطيء الإنسان في إستعمالها، وعدم الإنتباه الى نداءات الفطرة يؤدي الى فساد دين الإنسان الفطري. وعندما يفسد الدين لا تتعادل القوى الحسية الداخلية للإنسان. وينتج عن هذا أنه يتبع في عقيدته ما يزينه له الشيطان في الخارج.

٢ - [الهداية وأصول الاختلاف]

ركب الله تعالى في الإنسان السمع والبصر والفؤاد، ومن هذا التركيب نشأ فيه قوة الإدراك والفكر وبهما يستحضر الإنسان ما هو ظاهر عنده من الحوادث. ويستقرىء ما كان لينطلق إلى ما سيكون. ولأن الإنسان ذو شعور وإرادة. فإن الله تعالى هياً له وجود يقبل الارتباط معه ويستطيع الإنتفاع به، قال تعالى: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾^(٢). وقال: ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض﴾^(٣). إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بكون الأشياء مسخرة للإنسان.

وبعد قيام الإنسان بواجب الخلافة عند الله في الأرض. واجهت الفطرة أول اختلاف لها على الأرض. ومنشأ هذا الخلاف أن الإنسان موجود إجتماعي. وجد ليساير الأفراد من نوعه يريدون منه ما يريده

(١) سورة لقمان آية ١١.

(٢) سورة البقرة آية ٢٩.

(٣) سورة الجاثية آية ١٣.

منهم . ولما كان في الإنسان القوي والضعيف والمريض الى غير ذلك . ونظراً لتعارض المصالح بين هذا وذاك . ظهر الاختلاف في الأغراض والمقاصد والآمال . وجاء الاختلاف في المعاش وهو الذي يرجع الى الدعاوى وينقسم به الناس إلى مدع ومدعى عليه . وظالم ومظلوم ومتعد ومتعدى عليه وآخذ بحقه وضائع حقه .

ولأن الإنسان بحسب طبعه وفطرته سائر نحو الاختلاف في المعاش على أرضية الإجتماع المدني . ولأن الفطرة هي الهادية إلى الاختلاف نظراً لتعدد الأغراض وتعدد الأشياء التي سخرها الله للإنسان . فإنها لم تتمكن من رفع الاختلاف . وكيف تدفع شيء ما تجذبه اليه نفسها . ولأن الفطرة لا تستطيع ان تقدم تشريع يكون على عاتق الناس . وتأمريهم بإتيان أمور هي الواجبات وما في حكمها وتنهاهم عن أمور هي المحرمات وما في حكمها . إستدعى ذلك وضع قوانين إلهية ترفع الاختلافات والمشاجرات في لوازم الحياة . فرفع الله سبحانه هذا الاختلاف بالنبوة والتشريع .

فالاختلاف الأول في أمر الدنيا فطري . وكان سبباً لتشريع الدين . ليكون الدين الإلهي هو السبب الوحيد لسعادة هذا النوع الإنساني والمصلح لأمر حياته . يصلح الفطرة بالفطرة ويعدل قواها المختلفة عند طغيانها . وينظم للإنسان مسلك حياته ، ووضع الله سبحانه ما شرع من الشرائع والقوانين على أساس التوحيد . لأن التوحيد هو الحصن الحصين الذي يحفظ الإنسان من الخطأ والزلة ، ومن أساس التوحيد بنى الدين أسلوبه الإجتماعي وقوانينه الجارية على أعمدة الأخلاق . ومن هذا الحصن يعرف الناس ما هو حقيقة أمرهم من مبدئهم الى معادهم ليسلكوا في هذه الدنيا حياة تنفعهم في غد ، ويعملون في العاجل ما يعيشون به في الآجل ، وليعلموا أن التشريع الديني والتقنين الإلهي هو

الذي بنى على علم فقط دون غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

● إصلاح الفطرة بالفطرة وتعديل قواها المختلفة عند طغيانها، إصلاح وتعديل داخل في الصنع والإيجاد. قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(٢) قال في الميزان: بين أن من شأنه وأمره تعالى أن يهدي كل شيء إلى ما يتم به خلقه، ومن تمام خلقه الإنسان أن يهتدي إلى كمال وجوده في الدنيا والآخرة. وقال تعالى: ﴿كَلَّا نَمْدُ هُوَ أَوْلَىٰ وَهُؤُلَاءِ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا﴾^(٣) وهذه الآية تفيد أن شأنه تعالى هو الإمداد بالعطاء يمد كل من يحتاج إلى إمداده في طريق حياته ووجوده ويعطيه ما يستحقه. وإن عطائه غير محذور ولا ممنوع من قبله تعالى. ومن المعلوم أن الإنسان غير متمكن من تكميم هذه النقيصة من قبل نفسه. فإن فطرته هي المؤدية إلى هذه النقيصة. فكيف يقدر على تكميمها وتسوية طريق السعادة والكمال في حياته الاجتماعية. وإذا كانت الطبيعة الإنسانية هي المؤدية إلى هذا الاختلاف العائق للإنسان عن الوصول إلى كماله. وهي قاصرة عن تدارك ما أدت إليه وإصلاح ما أفسدته فالإصلاح - لو كان - يجب أن يكون من جهة غير جهة الطبيعة. وهي الجهة الإلهية التي تأتي عن طريق النبوة بالوحي. والخلاصة: إن نوع الإنسان مستخدم بالطبع. وهذا الاستخدام الفطري يؤديه إلى الاجتماع المدني وإلى الاختلاف في جميع شؤون حياته. ويقضي التكوين والإيجاد رفع هذا الاختلاف وما يترتب عليه. ولا يرتفع إلا بقوانين تصلح الحياة الاجتماعية برفع الاختلاف عنها، وهداية الإنسان إلى كماله وسعادته يتحقق بأحد أمرين: إما

(١) سورة يوسف آية ٤٠.

(٢) سورة طه آية ٥٠.

(٣) سورة الإسراء آية ٢٠.

بفطرته وإما بأمر ورائه، لكن الفطرة غير كافية فإنها هي المؤدية إلى الاختلاف في المعاش، فوجب أن تكون الهداية من غير طريق الفطرة والطبيعة. وهو التفهيم الإلهي المسمى بالنبوة والوحي^(١).

● وبعد نزول التشريع الإلهي. جاء الاختلاف الثاني. وهو الاختلاف في الدين. فعندما أصلحت الأمور ببعث النبيين وإرسال المرسلين. وظهر الإنذار والتبشير والثواب والعقاب، جاء الاختلاف في معارف الدين أو أمور يوم القيامة، وترتب على هذا الاختلاف إختلال أمر الوحدة الدينية. وظهرت الفرق والأحزاب وتبع ذلك الاختلاف غيره، ولم يكن هذا الاختلاف الثاني إلا بغياً من الذين جاءهم النبيين بالكتاب ظلماً وعتوا منهم. بعد ما تبين لهم أصول الدين ومعارفه وتمت عليهم الحجة.

وعلى هذا فإن المسيرة البشرية عصف بها إختلافان: إختلاف فطري في المعاش وأمور الحياة. ورفع هذا الإختلاف بالدين. ثم إختلاف في نفس الدين. وهذا الإختلاف أوجده العلماء ويستند إلى البغي. وفي هذين الإختلافين يقول تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً. فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ. وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾^(٢) قال في الميزان: ذكر البعض أن المراد بالآية أن الناس كانوا أمة واحدة على الهداية. لأن الإختلاف إنما ظهر بعد نزول الكتاب بغياً بينهم، وقد غفل هذا القائل عن أن الآية تثبت إختلافين إثنين لا إختلافاً واحداً. وعن أن الناس لو كانوا على الهداية فإنها واحدة من غير إختلاف. فما هو الموجب بل ما

(١) تفسير الميزان ٢/١٣١.

(٢) سورة البقرة آية ٢١٣.

هو المعجوز لبعث الأنبياء وإنزال الكتاب. وحملهم على البغي بالاختلاف وإشاعة الفساد؟ وذكر آخرون: أن المراد بالآية: أن الناس كانوا أمة واحدة على الضلالة. إذ لولاها لم يكن وجه لترتيب قوله تعالى: ﴿فبعث الله النبيين... الآية﴾. وقد غفل هذا القائل عن أن الله سبحانه يذكر أن هذا الضلال الذي ذكره. وهو الذي أشار إليه بقوله سبحانه: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه... الآية﴾. إنما نشأ عن سوء سريرة علماء الدين بعد نزول الكتاب وبيان آياته للناس، فلو كانوا على الضلالة قبل البعث والإنزال وهي ضلالة الكفر والنفاق والفجور والمعاصي، فما المصحح لنسبة ذلك إلى علماء الدين؟^(١).

ويقول صاحب الميزان: قوله تعالى: ﴿وأنزل معهم الكتاب ليمحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ هو اختلاف سابق على الكتاب والمختلفون بهذا الاختلاف هم الناس، وقوله تعالى ﴿وما اختلف فيه﴾ أي في الكتاب ﴿إلا الذين أوتوه﴾ أي الذين حملوه، وهذا الاختلاف لاحق بالكتاب متأخر عن نزوله. والمختلفون بهذا الاختلاف حملته دون جميع الناس، فأحد الاختلافيين غير الآخر أحدهما إختلاف عن بغي وعلم والآخر بخلافه^(٢).

● فالأنبياء والرسل عليهم السلام بعد نزول الكتاب. أقاموا الحجة وشيدوا بناء الوحدة الدينية. ولأن دين الله واحد لا غير ولا تدعو النبوة إلا إليه. فإن الناس إذا كذبوا أحد الأنبياء فقد كذبوا كل الأنبياء في الحقيقة، ولما كان التشريع الديني والتقنين الإلهي يحتاج إلى بيان من الأنبياء والرسل عليهم السلام. فإن الله أيدهم بالعصمة وصانهم من الخطأ والغفلة في تلقي الوحي من الله وحفظه وتبليغه، وقد دل القرآن

(١) الميزان ٢/١٢٥.

(٢) المصدر السابق ٢/١٢٧.

الكريم على عصمتهم عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾^(١) وكما قطع الله تعالى عذر الناس بميثاق الفطرة قطعه أيضاً بإرسال الرسل. فقال تعالى: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾^(٢) وفي الآية إشارة إلى عصمتهم عليهم السلام. لأن من المعلوم أن قطع الرسل عذر الناس ورفعهم لحاجتهم. إنما يصح إذا لم يتحقق في ناحيتهم ما لا يوافق إرادة الله ورضاه. من قول أو فعل وخطأ أو معصية. وإلا كان للناس أن يتمسكوا به. ويحتجوا على ربهم سبحانه.

● وبعد إقامة الحجة بواسطة الأنبياء والرسل. جاء الاختلاف في الدين من الذين أوتوه بغياً بينهم. والاختلاف في الدين يخالف الفطرة الإنسانية. ولقد أمر الله تعالى العلماء أن يبينوا الحق وينشروا علمهم بين الناس. وتوعد سبحانه الذين يكتُمون ما أنزل الله. قال تعالى: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا﴾^(٣).

قال في الميزان: أفاد أن كتمانهم إنما هو بعد البيان والتبيين للناس لا لهم فقط. وذلك أن التبيين لكل شخص. إنما يكون بإتصال الخبر إلى بعض الناس من غير واسطة وإلى بعض آخرين بواسطة بتبليغ الحاضر الغائب والعالم الجاهل، فالعالم يعد من وسائط البلاغ وأدواته كاللسان والكلام، وكتمان العالم علمه هو كتمان للعلم عن الناس بعد أن بينه الله لهم، ولقد عد الله تعالى هذا سبباً لاختلاف الناس

(١) سورة النساء آية ٦٤.

(٢) سورة النساء آية ١٦٥.

(٣) سورة البقرة آية ١٥٩.

في الدين وتفرقهم.. وأفاد القرآن أن الاختلاف فيما يشتمل عليه الكتاب، إنما هو ناشئ عن بغي العلماء الحاملين له. فالإختلافات الدينية والانحراف عن جادة الصواب. معلول ببغي العلماء بالإخفاء والتأويل والتحريف وظلمهم. حتى أن الله عرف الظلم بذلك يوم القيامة. فقال: ﴿وَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾^(١) وقد تبين أن الآية التي يقول فيها تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾^(٢) مبتنية على قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾^(٣) وجزاء هذا البغي بذيل الآية السابقة وهو قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾^(٤).

وبالجملة: إن اختلاف الناس في الدين الذي يكون سبباً للطغيان والعناد، يختلف عن إختلافهم في أمور الدنيا الذي هو فطري. وجميع الإختلافات والتفرعات التي ظهرت في الأديان. كلها صنعة الهوى والنفس البشرية. وتعلق بها شوائب الأوهام الحيوانية والإلقاءات الشيطانية.

٣ - [أضواء على الإلقاءات الشيطانية]

كان الإختلاف في الدين مقدمة لظهور الأحزاب والفرق التي أخلت بأمر الوحدة الدينية، والإختلاف في الدين سعى إليه الشيطان منذ

(١) سورة الأعراف آية ٤٤.

(٢) سورة البقرة آية ١٥٩.

(٣) سورة البقرة آية ٢١٣.

(٤) الميزان ١/٣٨٩.

اللحظة الأولى بعد أن شملته لعنة الله عندما رفض السجود لآدم، والشیطان قام ببناء منهجة ليعارض به مهمة الإنسان التي خلق من أجلها. وهو قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾^(١) والمنهج الشیطاني يقوم على عرقلة طريق العبادة. وقد بينه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿قال رب بما أغويتني لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾^(٢).

فالزينة التي أودعها الله في الكون لتكون مدخلاً للإيمان كما في قوله تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾^(٣) وقوله: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾^(٤) فهذه الزينة وغيرها. قام الشيطان بتزيينها ليكون هذا التزيين مادة للإغواء ثم للاحتناك على طريق عبادة النجوم والكواكب وكافة الأرباب الأرضية.

● والزينة والإغواء يخاطبان في الإنسان غرائزه. وعن طريقهما يتم إمداد الفرد بالطاقة العصبية المذمومة للتعبير عن هذه الغرائز، وتتوقف قوة الدفع حسب طبيعة الشيء الذي إستمال الغريزة، ومع عملية الدفع تبدأ الإتجاهات. والإتجاهات هي تنظيم مستمر لعمليات الدوافع والإنفعالات والإدراك والمعرفة فيما يتعلق بناحية معينة من عالم الفرد، وإذا كان الإتجاه الفطري قد غرست فيه معرفة الله عز وجل ومعرفة الخير والشر، فإن تغيير هذا الإتجاه يكون نتيجة لمعلومات

(١) سورة الذاريات آية ٥٦.

(٢) سورة الحجر آية ٣٩.

(٣) سورة ق آية ٦.

(٤) سورة الأعراف آية ٣٢.

جديدة أفرزتها دائرة التزيين والإغواء. فعلى هذه المعلومات يتغذى الإنسان الضعيف فينقلب مزاجه، ويقصد بالمزاج مجموعة الخصائص الإنفعالية. أو بعبارة أخرى مجموعة الصفات التي يتسم بها سلوك الفرد وانفعالاته ودوافعه، ومع هذه الانقلابات تنشأ العواطف التي يقوم عليها صروح الحب في غير الله والعبادة لغير الله. وفوق هذه الصروح تنقسم الحياة الفعلية وفوق هذا الانقسام يكون الإحتناك الشيطاني. وهو قوله تعالى: ﴿قال أراءيتك هذا الذي كرمت علي، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾، قال إذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً^(١) قال في الميزان: والإحتناك في الآية: الإلجام. وهو من قولهم: حنك الدابة بحبلها أي جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به^(٢). فعلى طريق الإحتناك وهو طريق اللاعبادة واللا دعوة واللا شعور. تبرز القوافل التي على عاتقها يكون تنفيذ البرنامج الشيطاني الذي يعارض به مهمة الإنسان في الأرض. وهو قوله تعالى: ﴿قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾^(٣) قال في الميزان: أي لأجلسن لأجلهم على صراطك المستقيم وسبيلك السوي الذي يوصلهم اليك وينتهي بهم إلى سعادتهم. فالقعود على الصراط المستقيم كناية عن إلزامه والترصد لعابريه ليخرجهم منه^(٤).

● والشيطان لا يتمكن من إكراه الناس على المعصية. وإنما يدعو الناس إلى الضلال فقط. وهو قوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك من الغاوين﴾^(٥) والشيطان نفسه سيعترف بعدم إكراه

(١) سورة الإسراء آية ٦٣.

(٢) الميزان ١٤٤/١٣.

(٣) سورة الأعراف آية ١٦.

(٤) الميزان ٣١/٨.

(٥) سورة الحجر آية ٤٢.

الناس على المعصية يوم القيامة. وهو قوله تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم. وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾^(١) وكما ذكرنا أن مجال دعوة وعمل الشيطان هو أحاسيس الناس وعواطفهم ومشاعرهم، لإيجاد الدافع الذي يغير الإتجاه بعيداً عن إتجاه الفطرة.

● وجحافل الشيطان تكون أشد عنفاً عند الذين آمنوا في حياة الأنبياء. قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾^(٢) قال في الميزان: ومعنى جعل العدو من المجرمين أن الله جزاهم على معاصيهم بالختم على قلوبهم. فعاندوا الحق وأبغضوا الداعي إليه وهو النبي^(٣) وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي. إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم آياته والله عليم حكيم. ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾^(٤).

قال في الميزان: ومعنى الآية. وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى وقدر بعض ما يتمناه من توافق الأسباب على تقدم دينه وإقبال الناس عليه وإيمانهم به، ألقى الشيطان في أمنيته ووسوس للناس وهيج الظالمين وأغرى المفسدين ليفسدوا الأمر على ذلك الرسول أو النبي ويبطلوا سعيه، ولكن الله يزيل ما يلقي الشيطان ثم

(١) سورة ابراهيم آية ٢٢.

(٢) سورة الفرقان آية ٣١.

(٣) الميزان ١٥ / ٢٠٥.

(٤) سورة الحج آية ٥٢ - ٥٣.

يحكم آياته بإنجاح سعي الرسول أو النبي واطهار الحق . وقيل : والتمني ربما جاء بمعنى القراءة والتلاوة . فيكون معنى الآية على هذا المعنى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا وقرأ آيات الله ألقى الشيطان شياً مضللاً على الناس بالوسوسة ليجادلوه بها ويفسدوا على المؤمنين إيمانهم ، فيبطل الله ما يلقيه الشيطان من الشبه .

٤ - تأملات في الإمتحان والإبتلاء

غرس الله تعالى في أعماق الفطرة معرفته تعالى ، وحمل النسيج الفطري إلهاماً يميز به الإنسان ما هو تقوى مما هو فجور ، ويعرف به طريق الخير وطريق الشر ، وخلاصة القول أن الإنسان خلقه الله في أحسن تقويم . وهو قوله تعالى : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾^(١) قال في الميزان : ومعنى كونه في أحسن تقويم . صلوحه بحسب الخلقة للعروج الى الأهداف الرفيعة العليا ، والفوز بحياة خالدة عند ربه . سعيدة لا شقاوة معها ، وذلك بما جهزه الله به من العلم النافع ومكنه من العمل الصالح .

فالإنسان إذا آمن بما عمل وزاول صالح العمل . رفع الله عمله . كما قال تعالى : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾^(٢) أما إذا وقف الإنسان تحت ولاية الشيطان . فإنه يندرج في أسفل سافلين أي في مقام منحط ، والمراد بالسفالة على أي حال . الشقاء والعذاب .

والإنسان ينطلق الى العلم النافع والعمل الصالح من مخزونه الفطري ومن الدين الذي بعث به الله الأنبياء والرسل عليهم السلام ،

(١) سورة التين ٥ .

(٢) سورة فاطر آية ١٠ .

فالفطرة تربط الإنسان بغاية وجوده. والدين هو الطريقة الخاصة في الحياة التي تؤمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، وشجرة الفطرة والدين تنبت في التوحيد. وأسلوب دين الله وقوانينه الجارية قامت على أساس الأخلاق التي تحفظ الإنسان من الخطأ والنزلة، وعلى هذا الأساس الأخلاقي يكون العلم النافع. لأن المعارف الحقّة والعلوم المفيدة لا تكون في متناول البشر إلا عندما تصلح أخلاقه.

● ولما كان الإنسان قد خلقه الله في أحسن تقويم. وذلك بتآلف العناصر التي يتكون منها. بحيث تتجه إتجاهاً موحداً نحو غرض معين، ولما كان الإنسان قد أنشأه الله مختاراً في فعله. بمعنى أنه يعرف ما هو تقوى مما هو فجور. وله أن يميل في كل عمل الى كل من جانبي الفعل والترك، فإن تعالى أجرى عليه الإمتحان والحكمة في إسكان الله تعالى في الأرض بعد أن زينها سبحانه بجميع اللذائذ المادية، هي إمتحان النوع الإنساني فرداً فرداً لإظهار صلاحية الإنسان الباطنية لإستحقاق الثواب والعقاب، والإمتحان ناموس آلهي ولا يستثنى منه المؤمن والكافر والمحسن والمسيء، وكل جزء من أجزاء العالم وكل حالة من حالاته التي لها صلة بالإنسان هي من الوسائل والعوامل التي يمتحن الله البشر بها، وتحت سقف الإمتحان يوجد إلقاءات شيطانية نفذت من أودية التزيين والإغواء. وتوجد أعلام الأنبياء والرسل عليهم السلام التي تسوق أتباعها نحو صراط الله العزيز الحكيم، وبين هذا وذاك لا يخفى الحق. لأن الحق لا يخفى بأي وجه وعلى أي تقدير. لأن الحق في النسيج الفطري. ولا يمنع الناس من قبوله والخضوع الباطني أمامه. إلا البغي والظلم والجحود والعناد والإستكبار.

● فالإنسان يمتحن فرداً فرداً ليتلبس السعيد بسعادته والشقي

بشقائه والله غني عن العالمين، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾^(١). وقال: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾^(٢). وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^(٣). وقال: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٤). وقال: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٥). وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾^(٦).

وإذا كان الإنسان يمتحن داخل وعائه الفردي. فإنه يمتحن أيضاً داخل وعائه الاجتماعي، يمتحن شعوباً وقبائل وأمم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾^(٧) قال في الميزان: والإمتحان يكون فيما أعطى الله وأنعم. وليست التكاليف الإلهية والأحكام المشرعة إلا إمتحاناً إلهياً للإنسان في مختلف مواقف الحياة، وفي قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فتح لأبواب الرحمة، أي فاستبقوا الخيرات وهي الأحكام والتكاليف. ولا تشتغلوا بأمر الاختلافات التي بينكم وبين غيركم^(٨).

فلما كان على الفرد حجج من الله. كذلك على المجتمعات حجج من الله. لأن لكل أمة حياة إجتماعية وراء الحياة الفردية التي لكل واحد

(١) سورة يونس آية ١٠٨ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٠٤ .

(٣) سورة فصلت آية ٤٦ .

(٤) سورة العنكبوت آية ٦ .

(٥) سورة الإسراء آية ٧٢ .

(٦) سورة الإسراء آية ١٩ .

(٧) سورة المائدة آية ٤٨ .

(٨) الميزان ٣٥٢ / ٥ .

من أفرادها، ولما كان لكل فرد أجل محدد ومحتوم وله نهاية، فكذاك هناك أجل آخر وميقات آخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفراد. للأمة بوصفها مجتمعاً ينشئ ما بين أفرادها العلاقات والصلات القائمة على أساس من الأفكار والمبادئ، فهذا المجتمع الذي يسمى بالأمة. له أجل وله موت له حياة وله حركة، ولما كان الفرد يتحرك فيكون حياً ثم يموت. فكذاك الأمة تكون حية ثم تموت، وكما أن موت الفرد يخضع لأجل ولقانون ولناموس. كذلك الأمم أيضاً لها آجالها المضبوطة، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١).

وحركة المجتمع تحت سقف الإمتحان. حركة تحكمها سنة الإستخلاف وهي السنة التي يمتحن بها الله الحاكم والمحكوم قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلَفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(٢) وحركة المجتمعات على إمتداد التاريخ الإنساني حركة ناطقة. بمعنى أن الله تعالى جعل الماضي ينطق في الكون ليتدبر الحاضر وهو منطلق نحو المستقبل، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(٣) فالحاضر إذا تدبر الماضي وجد أن الله تعالى يحيي الذين آمنوا وعملوا الصالحات حياة طيبة غير التي يعطيها للآخرين، وأن الحياة الدنيا التي يعتقد الموجود الحي إنها سعادة لنفسه وراحة لذاته. إنما تكون سعادة فيها الراحة والبهجة إذا جرت على حقيقة مجراها. ويجد الحاضر أن العذاب الذي رآه الناس هو نتيجة طبيعية لأعمالهم. وأن الله لم يهلك أمة إلا بعد الإنذار والحجة. وما هلكت أمة إلا بشركها بالله والإعراض عن آبائه وإستكبارهم في مقابل الحق وتكذيبهم

(١) سورة الأعراف آية ٣٤.

(٢) سورة الأعراف آية ١٢٩.

(٣) سورة يوسف آية ١٠٩.

الأنبياء والرسل. فإذا علم الحاضر هذا. إستقام تحت مظلة الإمتحان. وإستخدم جميع الموجودات وإعتبرها وسيلة في الدنيا لبلوغ سعادة الآخرة.

● وفي الوقت الذي يدعو فيه القرآن الكريم بتدبر الماضي، فإنه في الوقت نفسه يكشف عن المستقبل عندما يقف كل فرد للحساب أمام ربه. يوم ترى كل أمة جاثية وخشعت الأصوات للرحمن. ففي هذا اليوم يظهر التابع والمتبوع في كل مجتمع على حقيقته. يقول تعالى: ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتِهِمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾^(١) وفي مشهد آخر يقول تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾^(٢).

● وبالجمله: إن للإنسان هدف واضح ومحدد وهو عبادة الله تعالى. وهذا الهدف الواضح المحدد يملك إمكانية تسمح بتحقيقه. وإن الشيطان لا يملك السلطان الذي يغير هذا الهدف. وإنما يحمل لافتات الزينة والزخرف التي تدعو الى الضلال. ويوم القيامة يتبرأ الشيطان من الذين إتبعوه.

والخلاصة: قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾^(٣) قال في الميزان: «هل تظنون إنما خلقناكم عبثاً تحيون وتموتون من غير غاية باقية في خلقكم وإنكم إلينا لا ترجعون» «فتعالى الله... الآية.

(١) سورة الأحزاب آية ٦٨.

(٢) سورة المؤمنون آية ١٠٦.

(٣) سورة المؤمنون ١١٥.

ووصف سبحانه نفسه بأنه ملك وأنه حق وأنه لا إله إلا هو وأنه رب العرش الكريم، فله سبحانه أن يحكم بما شاء من بدء. وعود وحياة وموت ورزق، نافذ حكمه ماضياً أمره لملكه، وما يصدر عنه من حكم فإنه لا يكون إلا حقاً فإنه حق ولا يصدر عن الحق بما هو حق إلا حق، ولا يفعل سبحانه إلا حقاً. فللأشياء رجوع إليه وبقاء به وإلا كانت عبثاً باطلة ولا عبث في الخلق ولا باطل في الصنع^(١).

٥ - [الدين الخاتم]

أوجب الله تعالى على نفسه فتح الطريق لعباده وهدايتهم إليه. فبعث سبحانه الأنبياء والمرسلين حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ولأن مجال بحثنا هنا يبدأ من المسيرة الإسرائيلية لنقف على مشروع المسيح الدجال وينتهي إلى الأمة الخاتمة لنقف على مشروع المهدي المنتظر، فإننا سنلقي هنا بعض الضوء على المسيرة الإسرائيلية باعتبار إنها المسيرة السابقة على الدين الخاتم.

● وبنظرة سريعة على المسيرة الإسرائيلية، نجد أن الدين الإلهي الذي بعث به موسى عليه السلام. نزل في وقت بدت فيه أعمال الكفار كالحجب المتراكمة والظلمات التي بعضها فوق بعض تخنق نور المعرفة في القلوب. وقامت فيه الحاجة الإنسانية للأمن والطعام بالهبوط بالإنسانية إلى درك أسفل سافلين، ويعود ذلك إلى العقائد التي رفع الشيطان أعلامها حول الأرباب المتعددة من كواكب ونجوم وأصنام وأوثان، ففي الوقت الذي كانت الإنسانية قد إكتسبت شعوراً وجدانياً من الواقع يؤثر في سلوكها وشعورها. ويفرغ عليها طابعاً خاصاً. نزل الدين الإلهي على موسى عليه السلام. ليفود بني إسرائيل إلى صراط الله

(١) الميزان ٧٣/١٥.

الحميد ويكونوا هم بدورهم حجة على غيرهم . ولقد أنعم الله تعالى على بني إسرائيل نعماً عديدة . تبدأ ببعثة موسى وهدايتهم إلى دين الله . وتمر بنجاتهم من آل فرعون وتنتهي بإنزال التوراة وتشريع الشريعة التي تزدهو بسنة إجتماعية هي أحسن السنن وهي سنة التوحيد . تأمرهم بطاعة الله ورسوله والعدل التام في مجتمعهم وعدم الإعتداء على غيرهم من الأمم .

وفي خيمة الإجتماع بين لهم موسى أن الأخلاق الفاضلة . تحتاج إلى عامل يحرسها ويحفظها في ثباتها ودوامها وهذا العامل هو التوحيد ، وبين أن أركان المجتمع الصالح لا تثبت إلا برجال تحددهم الدعوة من صفاتهم الرسوخ في العلم ، وأخبرهم أن تفسير أحكام الشريعة موقوفة على هارون وبنيه^(١) وفي الوقت الذي كان موسى عليه السلام يبين فيه طريق الخير . أخبرهم بالغيب عن ربه بأنهم سيختلفون من بعده^(٢) ، وسيحرفون^(٣) وسيفعلون ما يوجب لعنة الله عليهم^(٤) .

ووقع ما أخبر به موسى عليه السلام ، وبرزت قيادات هدفها التصارع على الملك ، وكان إختيار هذه القيادات يتم نتيجة لصفات القائد الشخصية وأحياناً الجسمانية ، ولم يتطرق الإختيار إلى عامل الأصالة أو المركز الديني ، وتحت قيادة هذه الزعامات تسلت ثقافات عبادة العجول وغيرها من الأمم إلى بني إسرائيل ، وعندما بعث فيهم داود عليه السلام ساقهم بعيداً عن عبادة المادة ووحيد الدولة ، ولكن هذا الإصلاح لم يدم طويلاً . فبعد سليمان بن داود عليهما السلام إنقسمت

(١) انظر : سفر اللاويين ٩/١ ، ١/٨ - ١٤ .

(٢) المصدر السابق ٢٦/٣ - ٨ .

(٣) التثنية ٣١/٢٤ - ٢٩ .

(٤) المصدر السابق ٣٨/١٥ - ٣٦ .

الدولة الى مملكتين لا قوة لهما ولا مهابة، كانت مملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها أورشاليم، بينما كانت مملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها (شكيم) ثم (السامرة)، وبين المملكتين إشتعلت الحروب والصراعات، وقامت في كل مملكة العديد من الانقلابات طمعاً في الحكم، وكانت هذه الانقلابات تنتهي بمجازر دموية. وفي بعضها كان الطرف المنتصر يقوم بقتل الأسرة المالكة ليقضي على النسل الملكي في المملكة المهزومة، وفي وسط هذا الظلام المتراكم قامت المسيرة الإسرائيلية تحت أعلام المملكتين. بعبادة البعل وبناء المشارف لتقديم الذبائح وصنعوا الشر وحادوا عن طريق الفطرة.

وبينما كانت المسيرة الإسرائيلية تتخبط في دروب الانحراف. جاء ملك آشور على مملكة إسرائيل وقام بسبيهم (عام ٧٢١ ق). وجاء ملك بابل على مملكة يهوذا وقام بسبيهم (عام ٥٨٦ - ق م). وفي أرض السبي تغذت المسيرة الإسرائيلية من الثقافات العنصرية. ومن عقائد لا تؤمن بما وراء الحس. ولا ينقاد أتباعها إلا الى اللذة والكمال المادي. وفي الحي اليهودي تلبست هذه الثقافات بلباس الدين. وظهرت مقولات الأخبار التي تصف اليهود بأنهم المخصوصون بالكرامة الإلهية لا تعدوهم الى غيرهم. وبرروا ذلك بأن الله جعل فيهم نبوة وكتاباً وملكاً. فلهم بذلك السيادة والتقدم على غيرهم. وأخذوا من أفواه أحبارهم أن الدين الموسوي لا يعدوا بني إسرائيل الى غيرهم، وعلى هذا فهو جنسية بينهم، ولما كانت هذه الكرامة والسؤدد أمر جنسي خص بني إسرائيل، فالإنتساب الإسرائيلي هو مادة الشرف وعنصر السؤدد والمنتسب الى إسرائيل له التقدم المطلق على غيره. وتحت قيادة الحس والمادة أصبح القوم لا يقبلون قولاً إلا إذا دل عليه الحس. وأن يقبلوا كل ما يريده أو يستحسنه لهم كبرائهم من جمال المادة وزخرف الحياة، وعلى إمتداد هذا الفقه تناقضت الملكات الإنسانية قولاً وفعلاً بعد أن

كفر أصحابها بنعمة الله، وأنتج هذا التناقض العديد من الفتن المهلكة. ولأن هذه الفتن تقود أصحابها الى المسيح الدجال. وقعت المسيرة إلا من رحم الله في شراك الدجال. يقول النبي ﷺ «وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال»^(١).

ومن لطف الله تعالى بعباده بعث فيهم المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، ولكن بنو إسرائيل كذبوه وطالبوه بأن يعيد لهم الملك إن كان هو المسيح حقاً، وهذه الروح الباغية التي دبت في قلوبهم جعلتهم يفسدون في الأرض ويميتوا الروح الإنسانية وآثارها الحاكمة في الجامعة البشرية، وكانت مقولة شعب الله المختار وأرض الميعاد أصل أصيل في الصد عن سبيل الله. لأن الفطرة تقول بأن الأرض لله يورثها الله من يشاء من عباده، والله تعالى لا يصطفي أحداً بالاستخلاف إصطفاءً جزافاً ولا يكرم أحداً إكراماً مطلقاً من غير شرط ولا قيد، لأن الكرامة الإلهية ليست بذاك المبتذل السهل التناول حتى ينالها كل ناعق. أو يحسبها كل محتال أو مختال كرامة جنسية أو قومية، بل يشترط في نيلها الوفاء بعهد الله وميثاقه والتقوى في الدين، فإذا تمت الشرائط حصلت الكرامة وهي المحبة والولاية الإلهية التي لا تعدوا عباده المتقين. وأثرها النصر الإلهية والحياة السعيدة التي تعمر الدنيا وتصلح بال أهلها وترفع درجات الآخرة.

● وفي الوقت الذي كانت الظلمات فيه بعضها فوق بعض، بعث الله تعالى رسوله محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة الى الإنسانية جمعاء، ولأن الإنسان كائن حي يرغب ويحس ويدرك وينفعل ويتذكر. ويتعلم ويتخيل ويفكر ويعبر ويريد ويفعل، ولأن العلاقة بين الإنسان وبيئته علاقة أخذ وعطاء وفعل وإنفعال وتأثير متبادل وصراع موصول. وهو في تعامله

(١) رواه أحمد والبخاري ورجال الصريح (الفتح الرباني ٢٤/٦٩).

معها يتأثر وينفعل بشتى الإنفعالات. ويعبر عن أفكاره ومشاعره باللفظ تارة وبالحركة والإشارة تارة أخرى. ويكد ويسعى ويضرب في الأرض ويندمج في حلقات إجتماعية، فلأجل ذلك وغيره. قامت الرسالة الخاتمة بتوجيه الغرائز والإنفعالات الإنسانية، ليتم التآلف بين العناصر المختلفة للشخصية وتتحد ويقوى ما بينها من إرتباطات. لتسلك مسلكاً واحداً نحو هدف واحد.

وعلى إمتداد عهد البعثة الخاتمة، خاطب القرآن والسنة المطهرة عقل الإنسان ووجدانه. وتم إرشاده الى معرفة الله والإيمان به، وبينت له العبادات التي تدعم صلة الإنسان بربه وتركى نفسه وتسمو بروحه، وإنطلق الخطاب الى المجتمع فبينت الأحكام والمبادئ التشريعية الأمور التي تنظم أمر المجتمع تنظيماً عادلاً متوازناً. وتخلصه من كل أسباب الصراع والانحراف وتتكافأ فيه الفرص لجميع الناس في حدود قدراتهم المختلفة، وأمر الشرع الحنيف برد أي إختلاف إلى الله ورسوله. قال تعالى: ﴿وما اختلفتم في شيء فحكمه إلى الله﴾^(١). وقال: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾^(٢). وأمر الله الذين آمنوا بأن لا يكون لهم إختيار أمام إختيار الله ورسوله. قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾^(٣). وعلى هذا فمن حكم بغير حكم الله ورسوله يكون قد وقف في دائرة من دوائر ثلاث: دائرة الكفر لقوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾^(٤). أو دائرة الظلم. لقوله تعالى: ﴿ومن

(١) سورة الشورى آية ١٠.

(٢) سورة الحشر آية ٧.

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٦.

(٤) سورة المائدة ٤٤.

لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون^(١) أو دائرة الفسق لقوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾^(٢). وتحديد كل دائرة يخضع لفقه دقيق عال. فمن أراد الوقوف عليه فليراجع كتب العلماء.

● والقرآن الكريم كتاب البعثة الخاتمة. يهدي العقول إلى استعمال ما فطرت على إستعماله. وسلوك ما تألفه وتعرفه بحسب طبعها. ويحث حثاً بالغاً على تعاظمي العلم ورفض الجهل. في جميع ما يتعلق بالسماويات والأرضيات والنبات والحيوان والإنسان من أجزاء عالمنا وما وراءه من الملائكة والشياطين وغير ذلك. ليكون ذريعة إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، وإشترط القرآن التقوى في التفكير والتذكر والتعقل وربط العلم بالعمل. للحصول على إستقامة الفكر وإصابة العلم وخلوصه من الأوهام الحيوانية والإلقاءات الشيطانية. والقرآن الكريم يتعرض بمنطقه لجميع شؤون الحياة الإنسانية. ويحكم على الإنسان منفرداً أو مجتمعاً صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى. ويحكم على الحاضر والبادي والعالم والجاهل والشاهد والغائب، في أي زمان كان وفي أي مكان كان، وجميع المعارف الإلهية والحقائق الموجودة في القرآن تستند إلى حقيقة واحدة هي التوحيد..

● والدعوة الخاتمة لا تفرق بين أحد من رسل الله، لأن الدعوة الإلهية للبشرية دعوة واحدة، قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله﴾^(٣). فأمرت الدعوة بالإيمان بجميع الأنبياء والرسل. لأن من

(١) سورة المائدة ٤٥.

(٢) سورة المائدة ٤٧.

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٥.

كذب نبي من الأنبياء يكون في الحقيقة قد كذب جميع الأنبياء وفرق بين الله ورسله. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بَبْعَضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾^(١).

● وبالجمله :

إن البعثة الخاتمة تقضي بوقوف الإستكمال الإنساني. فعدم نسخ الدين وثبات الشريعة. يستوجب أن الإستكمال الفردي والإجتماعي للإنسان هو هذا المقدار الذي إعتبره القرآن في بيانه وتشريعه، والقرآن كتاب لا يقبل الإبطال والتهذيب والتغيير والنسخ، وثبات الشريعة يفيد بأن الحجة الدامغة قد أحاطت بالناس وهم يسرون تحت سنة الإمتحان لينظر الله اليهم كيف يعملون، وتحت هذه السنة نفى الله الدين الإجباري بعد أن تبين للناس الرشد من الغي. قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾^(٢).

٦ - [خاتمة المطاف]

قامت الرسالة الخاتمة بإرشاد بني إسرائيل الى طريق الحق، وقامت بتصحيح ما لديهم من معلومات وما يحتفظون من ذكريات تتعلق بأحداث لم يشهدوها في الماضي، إبتداءً من هجرة ابراهيم عليه السلام الى الأرض المباركة. ومروراً بخلافة داود عليه السلام وقيام مملكته وبناء سليمان عليه السلام للهيكل. وإنتهاء ببعثة المسيح عليه السلام وما انتهت اليه، ولكن الذين كفروا من بني إسرائيل لم ينصتوا الى الحق

(١) سورة النساء آية ١٥١.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٦.

الذي أخبرتهم به الرسالة الخاتمة، وركنوا إلى مقولة الأخبار في عهدهم القديمة والتي تقول: إن داود إختاره الله وعينه ملكاً. ومملكة داود هي عنوان ووعد عهد الله لإبراهيم. وأورشليم إختارها الله عاصمة لهذا الملك. ولأن داود هو مؤسس المملكة فهو المسيح المصطفى وعلى الجميع أن يخضعوا لسلطان مملكته الأزلية ولعاصمتها أورشليم. لأن التعبد لله لا ينفصل عن الولاية للأرض وعاصمتها، ولما كانت المملكة قد زالت على أيدي الغزاة في الماضي. فإن على المؤمنين بها أن يعملوا من أجل عودتها. وأن يظل هذا العمل دائماً حتى يأتي المسيح ابن داود في المستقبل. ليعيد المملكة إلى الوجود ويعيد المجد والرفعة إلى اليهود.

وعندما ركن اليهود إلى هذه المقولة ولم يؤمنوا بالرسالة الخاتمة. وقالوا يوماً: ليس علينا في الأميين سبيل. ويوماً آخر: نحن أولياء الله من دون الناس ونحن أبناء الله وأحبائه، ثم راحوا يسعون في الأرض فساداً. وينسبوا إلى الله تعالى ما لا يناسب ساحة قدسه وكبرياء ذاته جلت عظمته، فعندما فعلوا هذا وغيره. لعنهم الله. وألقى سبحانه بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(١) فيه ما لا يخفى من الدلالة على بقاء أمتهم إلى آخر الدنيا. وحذر الله تعالى المسلمين أن يردوا موردتهم فيصيبهم ما أصابهم.

● ولما كان الله تعالى قد توعد الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق بصرفهم عن آياته. وهو قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ

(١) سورة المائدة آية ٦٤.

سبيلاً^(١). ولما كانت في بطن الغيب آيات عندما تأتي لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل. وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتُ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خِيراً قُلْ إِنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾^(٢).

ولما كان خروج المسيح الدجال أحد هذه الآيات كما أخبر النبي ﷺ، فإن الذين كفروا من بني إسرائيل قد وقعوا في شباك الدجال ولحق بهم الذين إتبعوا سنتهم وأمسكوا بذيولهم.

● وإذا كانت النتيجة هي وقوعهم في شباك المسيح الدجال. فإن ذلك يستقيم مع ما قدموه لأنفسهم عند المقدمة. حيث لم ينقادوا إلا إلى اللذة والكمال المادي وما يستحسنه لهم كبرائهم. وعلى هذا الطريق نسجوا للبشرية شباكاً من الفتن المتعددة. ومن صنع فتنة وقع فيها. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولاً قُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ. وَحَسَبُوا أَنْ لَا يَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(٣) قال في الميزان: والفتنة هي المحنة التي تغر الإنسان. أو هي أعم من شر وبليه. والعمى هو عدم إِبصار الحق وعدم تمييز الخير من الشر. والصمم عدم سماع العظة وعدم الإِعباء بالنصيحة. وهذا العمى والصمم معلولاً حسبانهم أن لا تكون فتنة. والظاهر أن حسبانهم ذلك معلول ما قدرُوا لأنفسهم من الكرامة بكونهم من شعب إسرائيل. وأنهم أبناء الله وأحباؤه فلا يمسه سوء وإن فعلوا وارتكبوا ما ارتكبوا. ومعنى الآية: أنهم لمكان ما إعتقدوا لأنفسهم من كرامة اليهود. ظنوا أن لا يصيبهم سوء أو لا يفتنون بما فعلوا. فأعمى

(١) سورة الأعراف آية ١٤٦.

(٢) سورة الأنعام آية ١٥٨.

(٣) سورة المائدة آية ٧١.

ذلك الظن والحسبان أبصارهم عن ابصار الحق . وأصم ذلك آذانهم عن سماع ما ينفعهم من دعوة أنبيائهم . . على أن الله تعالى فتح لهم أبواب التوبة فرفع هذا الحسبان عن قلوبهم والعمى والصم عن أبصارهم وآذانهم . . ونجا بالتوبة بعضهم ، وعلى إمتداد المسيرة إعتقدوا ما إعتقدوه لأنفسهم من قبل كرامة اليهود . وظنوا أن لا يصيبهم سوء أو لا يفتنون . فعموا وصموا كثيراً منهم^(١) .

فعند بداية الطريق جهر الأنبياء بما ينفع المسيرة ، وحذروا من الفتن التي تلقي بأصحابها تحت أقدام المسيح الدجال آخر الزمان ، يقول النبي ﷺ : «إن الله لم يبعث نبياً إلا إمامته الدجال^(٢)» وقال : ﴿... وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال^(٣)» وقال : «إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال^(٤)» . ولكن المسيرة الإسرائيلية لم تنصت في نهاية المطاف الى تحذيرات الأنبياء ، ومع تحريفهم المستمر للأصول التقطوا تحذير الدجال ووضعوا عليه لباس التبشير ، وذلك عندما وجدوا أن ما معه يلتقي مع فقه الحسن والزينة الذي تشربوا أصوله من أفواه الأخبار ، ولقد صرحوا للنبي ﷺ بأنهم ينتظرون أميراً يملكون به الأرض^(٥) . وما هذا الأمير إلا المسيح الدجال . وسنبين ذلك في موضعه إن شاء الله .

لقد عموا وصموا ولم ينفعهم ما قدروا لأنفسهم من الكرامة بل أعماهم وأوردهم مورد الهلكة والفتنة ، لأن ما قدروه لأنفسهم لم تنطق به الفطرة ولا شرائع الأنبياء ولا حركة التاريخ .

(١) الميزان ٦٨ ، ٦٩ / ٦ .

(٢) رواه الامام احمد (الفتح الرباني ٢٤ / ٦٩) وابن ماجه حديث رقم ٤٠٧٧ .

(٣) رواه الامام احمد والبزار ورجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٢٤ / ٦٩) .

(٤) رواه احمد (الفتح الرباني ٢٤ / ٦٩) وابن ماجه .

(٥) تفسير ابن كثير ٨٤ / ٤ .

● وإذا كنا قد ألقينا شعاعاً من الضوء على مسيرة الدجال . فإننا في هذا المدخل نلقي شعاعاً آخر على مسيرة المهدي المنتظر التي حددها الدين الخاتم . وفي البداية نقول : لما كان الدجال شر مخبوء في بطن الغيب يلتقط الانحراف وأصحابه آخر الزمان ، فإن المهدي المنتظر هو الخير المخبوء في بطن الغيب ومعسكره هو الذي سيواجه معسكر الدجال آخر الزمان ، وبين المعسكرين ستدور معارك الفطرة والقدس ، ومن عدل الله أن جعل أمام الشر المخبوء خير مخبوء آخر الزمان . ليكون في ذلك حجة على جبين المستقبل . وهذا من سنن الوجود قال تعالى : ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق﴾^(١) .

ولما كان الخير المخبوء والشر المخبوء يقرأ الحاضر أحداثهما كما رواها الأنبياء والرسل عليهم السلام وذلك لينظم الحاضر خطواته في إتجاه الطريق الصحيح . وهو يسير تحت سقف الإمتحان والابتلاء لينظر الله الى عباده كيف يعملون . فإن الحاضر إذ لم يصحح خطواته في يومه فلن ينفعه أن يصحح خطواته عند ظهور الأحداث وإشتعال الملاحم في المستقبل ، وذلك لأنه سيكون قد إرتبط إرتباطاً وثيقاً بما يعتقد من إنحرافات سياسية وإقتصادية وإجتماعية ، وهذا الإرتباط يدعمه المسيح الدجال . الذي قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فتنه «ما بين خلق آدم الى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال»^(٢) .

والقرآن الكريم أشار إلى آيات وفتن وملاحم وأحداث مستقبلية ، وأخبر بأن الذين كفروا لن ينفعهم إيمانهم يومئذ . قال تعالى : ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون فأعرض عنهم وانتظر إنهم

(١) سورة الأنبياء آية ١٨ .

(٢) رواه الامام مسلم (الصحيح ٤/٢٦٧) .

منتظرون^(١) قال المفسرون: معنى الفتح إزالة الإغلاق والإشكال. وذكر ابن كثير. أن هذا الفتح لم يكن هو فتح مكة على زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما هو فتح ما زال في بطن الغيب. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتُ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾^(٢). قال في الميزان: إن الآية تتضمن تهديداً جدياً لا تخويفاً صورياً فالإيمان لا ينفع نفساً لم تؤمن قبل ذلك اليوم إيمان طوع وإختيار، أو آمنت قبله ولم تكن كسبت في إيمانها خيراً ولم تعمل صالحاً. بل إنهمك في السيئات والمعاصي. إذ لا توبة لمثل هذا الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾^(٣). فالنفس التي لم تؤمن من قبل إيمان طوع ورضى. أو آمنت بالله وكذبت بآيات الله ولم تعتن بشيء من شرائع الله واسترسلت في المعاصي الموبقة. ولم تكتسب شيئاً من صالح العمل فيما كان عليها ذلك. ثم شاهدت البأس الإلهي فحملها الإضطرار إلى الإيمان لترد به بأس الله تعالى لم ينفعها ذلك. ولم يرد عنها بأساً ولا يرد بأس الله عن القوم المجرمين. . وفي الآية دلالة على أن هذه الأمة سيشملهم القضاء بينهم بالقسط والحكم الفصل مما لا ستره عليها. كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ. وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ - إِلَىٰ أَنْ قَالَ - وَيَسْتَنْوُونَكَ أَحَقُّ هُوَ. قُلْ أَيُّ رَبِّي

(١) سورة السجدة آية ٢٨.

(٢) سورة الأنعام آية ١٥٨ .

(٣) سورة النساء آية ١٨ .

(٤) سورة يونس، آية ٤٧ - ٥٣ .

● ولما كان الطريق الى المسيح الدجال هو طريق التزيين والإغواء والإحتناك. ورموزه هم أئمة الضلال على إمتداد التاريخ الإنساني، فإن طريق المهدي المنتظر هو طريق الفطرة الذي يحمل أعلام التوحيد والأخلاق، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم حدد طريق المهدي تحديد دقيق، فبين أنه يحمل أعلام القسط والعدل آخر الزمان، يقول عليه الصلاة والسلام «لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلماً وجوراً وعدواناً، ثم يخرج من أهل بيتي من يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»^(١) وبين أن المهدي من ولد فاطمة عليها السلام، فقال «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»^(٢). وأخبر بأن طريق المهدي هو الطريق المنصور. لا يضر أتباعه من عاداهم أو من خذلهم، قال عليه الصلاة والسلام «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»^(٣).

● وطريق المهدي رموزه هم أئمة الهدى. فعن جابر بن سمرة قال. قال رسول الله ﷺ «يكون من بعدي إثنا عشر أميراً» قال: ثم تكلم بشيء لم أفهمه. فسألت الذي يليني فقال: «كلهم من قريش»^(٤) ولما كان النبي قد ذم قريش وعلمانها في بعض الأحاديث. فلا يمكن فهم هذا الحديث إلا في ضوء الذين لم يذمهم النبي من قريش. وأيضاً في

(١) رواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (المستدرک ٤/٥٥٧).

(٢) قال في التاج الجامع للأصول رواه ابو داود والحاكم بسندين صحيحين (التاج ٥/٣٤٣) وأنظر سنن ابو داود ٤/١٠٧، عون المعبود ١١/٣٧١، كنز العمال ١٤/٢٦٤، سنن ابن ماجه حديث ٤٠٨٦، مستدرک الحاكم ٤/٥٥٧.

(٣) رواه الترمذي وقال في تحفة الأحوازي رواه مسلم وابن ماجه (التحفة ٦/٤٨٣).

(٤) رواه الترمذي وقال في تحفة الأحوازي وأخرجه الشيخان وابو داود وغيرهم (التحفة ٦/٤٧٤).

النظر في أصول الدعوة الإلهية، وقد علمنا من هذه الأصول أن العلم بالله هو أشرف العلوم. لأن الله هو أشرف معلوم على الإطلاق، وهذا العلم لا يبوح بأسراره إلا لأهله، ولهذا وضعت النبوة أهل هذا العلم على ذروة المسيرة من بعدهم، لكي يحفظوا الدين من شطحات المنافقين وأخبار وعلماء السوء، ووجدنا في التوراة الحاضرة أن موسى عليه السلام أوقف هذا العلم على هارون وبنيه لا يتعداهم إلى غيرهم، فهم وحدهم الذين يفسرون الشريعة للشعب^(١). وعندما بغى بني إسرائيل على الراسخين في العلم. ضلوا وأضلوا كما بينا.

ولم يشذ الدين الخاتم عن هذه القاعدة لأن الدعوة الإلهية دعوة واحدة، وفي أحاديث كثيرة ربط النبي ﷺ أهله بالكتاب ومن هذه الأحاديث قوله: «إني تارك فيكم خليفتين. كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض. أو ما بين السماء إلى الأرض. وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردوا على الحوض»^(٢). وفي أحاديث أخرى ربط النبي ﷺ بينه وبين علي بن أبي طالب. كما ربط موسى عليه السلام بين نفسه وبين هارون أخيه، قال النبي ﷺ لعلي «أنت مني بمنزلة هارون من موسى. إلا أنك لست نبياً. إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي في كل مؤمن من بعدي»^(٣).

ولما كانت منزلة علي بن أبي طالب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم كمنزلة هارون بن موسى، ولما كان أهل موسى من ذرية هارون هم وحدهم أهل الاختصاص بتفسير الشريعة، وأهل محمد ﷺ هم

(١) انظر سفر اللاويين ٩/١ - ١١، ١ - ١٤.

(٢) رواه الامام احمد وقال الهيثمي اسناده جيد (مجمع الزوائد ٩/١٩٣) (الفتح الرباني ٢٢/١٠٥) (كنز العمال ١/١٧٢).

(٣) رواه احمد (الفتح الرباني ٢١/٢٠٤) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ٣/١٣٣) وابن ابي عاصم وصححه الألباني (كتاب السنة ٢/٥٦٥).

وحدهم مع القرآن الكريم في حبل واحد ولن يفترقا حتى يردوا على الحوض، فعلى هذا يمكن فهم حديث الإثني عشر أميراً السابق ذكره والذي روي بالفاظ متعددة. ومنها قول النبي ﷺ «إن عدة الخلفاء بعدي عدة نقباء موسى»^(١) وفي رواية «إثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل»^(٢).

والأمة الخاتمة إمتحنها الله تعالى بأهل بيت النبي ﷺ كما إمتحن سبحانه بني إسرائيل بأهل بيت موسى من بعده، وروي أن النبي ﷺ قال «أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي»^(٣) وقال «يا أيها الناس اني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي»^(٤). وإنطلقت المسيرة تحت مظلة الإمتحان. لينظر الله تعالى الى عباده كيف يعملون. بعد أن إستخلفهم كما إستخلف الذين من قبلهم، ومن معجزات النبوة قوله صلى الله عليه وآله وسلم «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر. وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى. قال «فمن»^(٥) المراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم، وسيأتي تفصيل ذلك كله في موضعه من هذا الكتاب.

وكل مقدمة أول الزمان ستلحق بها نتيجتها آخر الزمان، والناس في بداية الطريق. يعرفون طريق الخير وطريق الشر. ولكن للأهواء

(١) رواه ابن عدي وابن عساكر (كنز العمال ١/٨٩) وأبو نعيم (كنز العمال ١٢/٣٣).

(٢) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٣/١٢) وأبو يعلي والبزار (مجمع الزوائد ٥/١٩٠) والحاكم (المستدرک ٤/٥٠١).

(٣) رواه الامام مسلم (الصحيح ١٥/١٧٩).

(٤) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٥/٦٦٢) والنسائي (كنز العمال ١/١٧٢).

(٥) رواه البخاري (الصحيح ٤/٢٦٤) ومسلم (الصحيح ١٦/٢١٩) وأحمد (الفتح الرباني ١/١٩٧).

زخرف وزينة. ومع الأهواء يسرون في طريق لا يرون إلا بدايته أو وسطه ولا يرون في نهاية الطريق، لأن نهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء.

٧ - [حكمة الإخبار بالغيب]

الإخبار بالغيب من الأمور التي يمتحن الله تعالى بها عباده. قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١) قال في الميزان: المراد بنصره ورسوله. الجهاد في سبيله دفاعاً عن مجتمع الدين وبسطاً لكلمة الحق، والمراد بعلمه بمن ينصره ورسوله تمييزهم ممن لا ينصر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إشارة إلى إن أمره بالجهاد إنما هو ليميز المتمثل منهم من غيره، لا حاجة منه تعالى إلى ناصر ينصره. إنه تعالى قوي لا سبيل للضعف إليه. عزيز لا سبيل للذلة إليه^(٢).

وعلى طريق الإخبار بالغيب يكون الثواب والعقاب في الحياة الدنيا والآخرة. ومن الذين يدخلون إلى دائرة الأمان كل من تحرك الحركة الصحيحة نحو الأحداث التي تستقبل الناس والتي أخبر بها الأنبياء والرسل. قبل أن تأتي آيات الله لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، فدائرة الأمان يدخلها من تعامل مع الإخبار بالغيب تعامل المتفكر المتذكر لتكون حركته في الدنيا مرتبطة بالله تعالى. وفي الآخرة يدخل الذين يخشون ربهم بالغيب. والذين أخذوا بأسباب الحياة الكريمة في مغفرة الله جل وعلا. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٣) قال في الميزان:

(١) سورة الحديد آية ٢٥.

(٢) الميزان ١٧٢/١٩.

(٣) سورة الملك آية ١٢.

وعدّ سبحانه خشيتهم بالغيب . لكون ما آمنوا به محجوباً عنهم تحت حجب الغيب .

والله تعالى يعلم الغيب لذاته قال سبحانه ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾^(١) فالآية أفادت معنى الأصالة، فعلم الغيب في الأصل يختص بالله تعالى وغيره يعلمه منه سبحانه، وهو سبحانه يظهر لرسله ما شاء من الغيب . قال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من إرتضى من رسول﴾^(٢) .

وإخبار الأنبياء والرسل بالغيب عند ربهم . فيه لطف من الله لعباده وهم تحت سقف الإمتحان والابتلاء، فالله يعلم أن عباده يجهلون أكثر مصالحهم وطرقها في الحياة، ولذا سن سبحانه الشرايع وما فيه خيرهم . ليدلهم على الصراط المستقيم والسعادة الدائمة ويزجرهم عما فيه الفساد، ولعلمه سبحانه أن أكثر عباده لا يطيعونه فيما شرع لهم، أظهر لرسله بعض ما يستقبل الناس من أحداث في الدنيا والآخرة، ليكون هذا الإخبار بالغيب حجة وسراج يهدي الى الطريق المستقيم . ليهلك من هلك عن بينة، والإخبار بالغيب في خطوطه العريضة لطف ورحمة . ولا يرفع هذا اللطف وهذه الرحمة أن يكون العباد متمرسين على طاعته سبحانه غير منقادين الى أوامره ونواهيه، لأنه سبحانه اللطيف بعباده الجواد الكريم . يلطف ويأمر بالطاعة لأنه يريد لها وينهى عن المعصية لأنه كاره لها .

● ومنهج البحث في هذا الكتاب يتخذ من الإخبار بالغيب عموداً فقرياً للوصول الى الحقيقة التي يجلس على قممها آخر الزمان «المهدي المنتظر» رمزاً لطائفة الحق . «والمسيح الدجال» رمزاً للانحراف

(١) سورة الأنعام آية ٥٩ .

(٢) سورة الجن آية ٢٦ .

والشدوذ، ومعنى تتبع الإخبار بالغيب للوصول الى الحقيقة، هو إيماني بأن النبوءة هي التي تفسر التاريخ وليس العكس، فالأنبياء يخبرون بالغيب عن ربهم فيما يستقبل الناس، وهذا الإخبار إما في دائرة التحذير وإما في دائرة التبشير، وكل دائرة لا بد أن يكون لها أصحاب وأتباع، والله تعالى له في كل موضع في هذا الكون شاهد وهذا الشاهد حجة، وبالنظر الى هذه الدوائر بضوء الإخبار بالغيب يمكن أن نرى حقيقة الحركة الإنسانية. حركة التاريخ تحت سقف الإمتحان والابتلاء. ومن هذه الحركة يمكن أن نخرج بمضمون وبقضية وبهدف. ويمكن أن نضع أيدينا بكل يسر على العروة الوثقى التي نحكم بها على المسيرة التاريخية. تلك المسيرة التي ظهر على ساحتها العديد من أعلام الزينة والإغواء والأهواء ودخل أصحابها في دائرة التحذير. وعندما أصبحوا أعمدة في هذه الدائرة، حذرت النبوءة منهم ومن دوائرهم. ثم سلطت أضواءها على دائرة التبشير ليتحرك الناس الحركة التي يحبون أن ينظر الله اليهم وهم يتحركونها. لأن سنة إستخلاف الإنسان في الأرض تقوم على حكمة «لينظر الله كيف تعملون».

وبالجملة: لقد حذر الوحي من الشيطان. وجذرت النبوءة من المنافقين والمترفين الذين اتخذوا من الصد عن سبيل الله هدفاً لهم، وفي دائرة التحذير وقف الشيطان وبرنامجه وأتباعه من أهل الأهواء تحت ضوء الإخبار بالغيب، ليتبين الناس الوقود الذي أمد المسيرة. ويعلموا أن التاريخ وان ظهر كوحدة واحدة، إلا أنه في الحقيقة وحدة إنسانية واحدة ذات حركتين، حركة حق وحركة باطل، ولأن الحاضر إنا للماضي فإنه يرث هذه التركة وينطلق بها الى المستقبل. وعلى الإنسان في هذه الحالة أن ينقب ويبحث وينظر فيما حوله من حجج عليه. لأنه مستخلف في الأرض. والإستخلاف يقتضي حركة. والحركة منظورة من الله.

● ولما كنا نهدف من هذه الدراسة أن نمسك بخيوط المسيح الدجال والمهدي المنتظر، فإننا لا يمكن أن ننحي مصادر أهل الكتاب جانباً، ومصادر أهل الكتاب وأقصد «الكتاب المقدس». وأن كان قد ذهب منه الكثير من الوحي، ودخل فيه الشيء الكثير من الأوهام حتى أصبح الكتاب به الكثير من المتناقضات، وبهذا شهد علماء مقارنة الأديان والحضارة من أهل الكتاب أنفسهم، وشهد القرآن الكريم أن أيدي أهل الكتاب أمتدت إلى النصوص بالحذف والإضافة. وبأنهم إستبدلوا نصوص تحمل التوجيه الإلهي بغيرها تعبر عن المصلحة والهوى عند الأحزاب والرهبان. إلا أن الكتاب المقدس لا يخلو من وحي إلهي ومعالم سماوية باهتة. وهذا الوحي الظاهر حجة على أهل الكتاب لأنه يرشدهم إلى دعوة النبي الخاتم ﷺ، أما المعالم الباهتة والمتناقضات فهي دعوة لقبول البينة التي حملها رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة.

وفي دراستنا هذه سنسلط الأضواء على المسيرة التاريخية لبني إسرائيل. من واقع إخبار أنبيائهم بالغيب عن ربهم، وذلك لنقف على الانحراف وحجمه وإلى أين قاد أتباعه، وعلى إمتداد عملية الرصد هذه سنسلط الأضواء القرآنية على هذه الأحداث والانحرافات، ليظهر طريق الخير وطريق الشر ونميز ما هو تقوى في هذه الأحداث مما هو فجور، وعند البحث عن الخلل في سيرة الأمة الخاتمة. سننتقل من الأصول وننظر في المسيرة من خلال إخبار النبي ﷺ بالغيب عن ربه، ثم ننظر عليها وهي تشق طريقها نحو المستقبل، وعلى هذا التصور أقدم قراءتي لحركة التاريخ.

الحجة والأروقة المتصرعة

[الطريق الى المسيح الدجال]

الحجة والأروقة المتصدعة

[نقض العهد]

١ - [القاعدة والذروة]

تذكر التوراة الحاضرة. أن الله أمر موسى عليه السلام ببناء خيمة الاجتماع لتكون مركزاً للعبادة، وذكر سفر الخروج كيف تم تحديد المكان وكيف تم البناء^(١). فقال «وكلم الرب موسى قائلاً: في الشهر الأول في اليوم الأول من الشهر تقيم مسكن خيمة الاجتماع»^(٢) «وأخذ موسى الخيمة ونصبها»^(٣).

ولأن العلم بالله هو أشرف العلوم وهو ذروة كل العلوم. فإن الله تعالى زكى من عباده طائفة ليحملوا هذا العلم الرفيع ويبينوا مراده وأسراره للناس. بعد أن أخذ الشيطان على عاتقه القعود على الصراط المستقيم يزخرف العلوم ويصد عن العبادة الحق. وفي عهد خيمة

(١) الخروج إصحاح ٢٥، ٢٦ وما بعده.

(٢) المصدر السابق ١/٤٠.

(٣) المصدر السابق ٧/٣٣.

الإجتماع كان آل عمران وعلى رأسهم هارون وبنيه هم وحدهم الذين لهم الحق في تفسير الشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام. وتروي التوراة أن الله تعالى طهرهم وأعطاهم فقه هذا العلم الرفيع. وفي إختيار الله تعالى لهم تذكر التوراة أن الله قال لموسى «تقدم هارون وبنيه الى باب خيمة الإجتماع، وتغسلهم بماء وتلبس هارون الثياب المقدسة وتمسحه وتقدسه ليكون لي، وتقدم بنيه وتلبسهم أقمصه وتمسحهم كما مسحت أباهم ليكونوا لي، ويكون ذلك لتصير لهم مسحتهم كهنوتاً أبدياً في أجيالهم»^(١). وتذكر التوراة أن موسى فعل ما أمر به الله «فقدم موسى هارون وبنيه وغسلهم بماء، وجعل عليه القميص... وألبسه الحبة وجعل عليه الرداء... ووضع العمامة على رأسه... ومسحه لتقدسه. ثم قدم موسى بني هارون وألبسهم أقمصه... كما أمر الرب موسى»^(٢).

● وفي مرتبة هارون وبنيه الفقهية. تذكر التوراة أن الله كلم هارون وأمره بحفظ الشعائر التي علمها له. لتعليم بني إسرائيل الفرائض التي فرضها الله. «وكلم الرب هارون قائلاً: خمرأً ومسكراً لا تشرب أنت وبنوك معك... للتمييز بين المقدس والمحلل وبين النجس والطاهر. ولتعليم بني إسرائيل جميع الفرائض التي كلم الرب بها بيد موسى»^(٣) وكان الله تعالى يبين الشريعة لموسى وهارون تارة. ويوصي موسى بأن يبين لهارون وبنيه أمور من الشريعة تارة أخرى «وكلم الرب موسى وهارون قائلاً لهما: كلما بنى إسرائيل قائلين هذه هي الحيوانات التي تأكلونها من جميع البهائم التي على الأرض»^(٤) «وكلم الرب موسى قائلاً: كلم هارون وبنيه قائلاً: هذه شريعة ذبيحة

(١) المصدر السابق ١١/٤٠ - ١٥.

(٢) اللاويين ١/٨ - ١٢.

(٣) المصدر السابق، ٨/١٠ - ١١.

(٤) المصدر السابق ١/١١.

الخطية...»^(١) وبعد أن تم التطهير والتعليم وعلمت الجموع منزلة هارون وبنيه من موسى. تقول التوراة «ثم رفع هارون يده نحو الشعب وباركهم... ودخل موسى وهارون الى خيمة الاجتماع. ثم خرجا وباركا الشعب»^(٢).

● وتذكر التوراة أسماء بني هارون الذين إختارهم الله ليعلموا الشعب^(٣) وذكرت أن هؤلاء وحدهم لهم حق تفسير الشريعة. «وتوكل هارون وبنيه فيحرسون كهنوتهم والأجنبي الذي يقترب يقتل»^(٤) وأخبرت التوراة بأن سبط لاوى - ولاوى هو جد موسى وهارون - مهمته خدمة خيمة الاجتماع وحفظ أمتعه، وأن الله وهب هؤلاء لهارون وبنيه^(٥). ومما يذكر أن موسى وهارون هما إبننا عمران، وفي ذرية هارون أودع الله فقه الشريعة التي جاء بها موسى، وهذه الذرية من الذين إصطفاهم الله على العالمين، ومنها مريم ابنة عمران وإبنها المسيح عليهما السلام. وإختتم الله بهما الشجرة الإسرائيلية، بعد أن حملت الخاتمة بعض أسماء المقدمة لتتذكر المسيرة البداية من عند النهاية، وسنبين ذلك في موضعه. فسبط لاوى جد موسى وهارون. يقول فيهم الله كما ذكرت التوراة «يخدمون خدمة المسكن. فيحرسون كل أمتعة خيمة الاجتماع... وتعطي اللاويين لهارون وبنيه إنهم موهوبون له هبة من عند بني اسرائيل»^(٦) أما هارون بن عمران وبنوه. فيقول فيهم «وتوكل هارون وبنيه فيحرسون كهنوتهم والأجنبي الذي يقترب

(١) المصدر السابق ٢٤/٦.

(٢) المصدر السابق ٢٢/٩.

(٣) سفر العدد ٢٢/٣.

(٤) المصدر السابق ١٠/٣.

(٥) المصدر السابق ٥/٣.

(٦) المصدر السابق ٥/٣.

يقتل»^(١) وهكذا تم تحديد القاعدة وذروتها.

وبالجملة: كان الكاهن الأعلى يقوم بمهمته بعد إختيار الله له، وهذه قاعدة أصيلة في الدعوة الإلهية للناس، والله يزكي من يشاء ويختار من يشاء، والعهد الجديد يقر بذلك فيقول «ولم يكن أحد يتخذ لنفسه هذه الوظيفة الشريفة متى أراد بل كان يتخذها من دعاه الله إليها كما دعا هارون»^(٢) والرسالة الخاتمة أقرت بهذه الحقيقة، وذلك في قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب «أنت مني بمنزلة هارون من موسى. إلا أنك لست نبياً إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي في كل مؤمن بعدي»^(٣) وسيأتي الحديث عن هذه المنزلة في موضعه.

● ولقد ألقى القرآن الكريم بأضوائه على منزلة هارون، وذلك لما سأل موسى عليه السلام ربه تعالى ﴿اجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً﴾^(٤) قال في لسان العرب: الوزير الذي يحمل ثقل الملك ويعينه برأيه، والوزير في اللغة: إشتقاقه من الوزر. والوزر الجبل الذي يعتصم به لينجي من الهلاك^(٥). وقال في الميزان في تفسير الآية: وإنما سأل موسى ذلك. لأن الأمر كثير الجوانب متباعد الأطراف، ويحتاج فيه موسى الى وزير يشاركه في ذلك. فيقوم ببعض الأمر فيخفف عنه. ويكون مؤيداً لموسى فيما يقوم به موسى، وهذا معنى أقوله ﴿إشدد به أزري وأشركه في أمري﴾ أي في أمر كان يخص موسى وهو تبليغ ما

(١) المصدر السابق ١٠/٣.

(٢) العبرانيين ١/٥ - ٤.

(٣) رواه الامام أحمد (الفتح الرباني ٢٠٤/٢١) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١٣٣/٣) وابن أبي عاصم وقال الألباني رجاله ثقات (كتاب السنة ٥٦٥/٢).

(٤) سورة طه آية ٢٩ - ٣٢.

(٥) لسان العرب ص ٤٨٢٤.

بلغه من ربه. فهذا هو الأمر الذي يخصه ولا يشاركه فيه أحد سوى هارون^(١).

٢ - [التحذيرات]

تذكر التوراة أن موسى عليه السلام بعد أن أقام حجته أشهد الله تعالى على بني إسرائيل، وأخبر بالغيب عن ربه أن المسيرة من بعده ستختلف وستفترق وسترتكب جرائم تستحق عليها لعنة الله، تقول التوراة «أمر موسى اللاويين حاملي عهد الرب قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب هناك شاهد عليكم، لأنني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هوذا وأنا معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب. فكم بالحرى بعد موتي. إجمعوا إلى كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم. لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض. لأنني عارف إنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به. ويصيبكم الشر في آخر الأيام لأنكم تعملون الشر أمام الرب»^(٢).

وفي هذا البيان إشارة إلى إنقلاب القوم على الخط الرسالي الذي يقوده أبناء هارون، فبعد موت موسى عليه السلام يبدأ الفساد ويزيغون عن الطريق الذي أوصاهم به، وهذا يستوجب أن يصيبهم الشر في آخر الأيام، لأن الوجد الذي تم دقه عند البداية لم يبله الزمان وأصبح له جذور عند النهاية..

وتذكر التوراة أن موسى عليه السلام ذكرهم في هذا اليوم بالله الذي خلقهم وإستخلفهم. وذكرهم بأيام الله وكيف يأخذ الله الأمم

(١) الميزان تفسير سورة طه.

(٢) التثنية ٣١/٢٤ - ٢٨.

الظالمة^(١). وتذكر التوراة تحذيرات نطق بها موسى عليه السلام على مسامع القوم. منها «لا تصنعوا لكم أوثاناً ولا تقيموا لكم تمثالاً منحوتاً أو نصباً ولا تجعلوا في أرضكم مصوراً لتسجدوا له»^(٢). «إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياهِ وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم، تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتدرّكك، ملعونا تكون في المدينة. ملعونا تكون في الحقل. . . ملعونا تكون في دخولك ملعونا تكون في خروجك، ويرسل الرب عليك اللعنة والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله. . . يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب فتتلمس في الظاهر كما يتلمس الأعمى في الظلام. . . تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتتبعك وتدرّكك حتى تهلك. . . فتكون فيك آية وأعجوبة وفي نسلك إلى الأبد»^(٣). «إن لم تسمعوا لي ولم تعملوا كل هذه الوصايا وإن رفضتم فرائضي. وكرهت أنفسكم أحكامي فما عملتم كل وصاياي بل نكثتم ميثاقي. فإني أعمل هذه بكم: أسلط عليكم رعباً وسلاً وحمى تفني العين وتتلف النفس وتزرعون باطلاً زرعكم فيأكله أعداؤكم واجعل وجهي ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم»^(٤).

وبالجملة: إنطلقت المسيرة الإسرائيلية تحت مظلة الإمتحان لينظر الله اليهم كيف يعملون، بعد أن أخذ عليهم سبحانه العهد بأن يسمعوا ويطيعوا. وحذرهم من عواقب الكفر والانحراف، ومما ذكرته التوراة قوله لهم «أنظر. أنا واضح أمامكم اليوم بركة ولعنة. البركة إذا سمعتم لوصايا الرب الهكم التي أنا أوصيكم بها اليوم، واللعنة إذا لم تسمعوا

(١) المصدر السابق اصحاح ٣٢.

(٢) اللاويين ١/٢٦.

(٣) التثنية ٢٨/١٥، ٢٨، ٤٦.

(٤) اللاويين ١٧/٢٦.

لوصايا إلهكم وزغتم عن الطريق التي أنا أوصيكم بها اليوم لتذهبوا وراء
آلهة أخرى لم تعرفوها»^(١).

● والقرآن الكريم أشار الى الحكمة التي من وراء إستخلاف بني
اسرائيل في الأرض. فقال له ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم
في الأرض فينظر كيف تعملون﴾^(٢) وأشار الى العهود التي أخذها الله
عليهم ومنها أن لا يقولوا على الله إلا الحق^(٣) وأن يذكروا ما في الكتاب
لعلهم يتقون^(٤) وأن يوفوا بعهده^(٥) وأن يذكروا نعمته عليهم وتفضيله لهم
في قيادة المسيرة^(٦) وحذرهم من الكفر بآيات الله ومن قتل النفس التي
حرم الله إلا بالحق، وقال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا
تعبدون إلا الله وبوالدين إحسانا وذوي القربى واليتامى والمساكين
وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾^(٧)، وقد بدأت الآية
بقوله ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ وختمت بقوله ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ الآية.
وبين البداية والخاتمة كان للمسيرة وجوه، فعبدوا غير الله وأضاعوا
حقوق القربى وعلى رأسهم قربي موسى عليه السلام، وأضاعوا حقوق
اليتامى والمساكين وأفسدوا في الأرض، وأضاعوا الصلاة والزكاة
وإتبعوا الشهوات، وكل هذا شهد به الكتاب المقدس والقرآن الكريم
وحركة التاريخ.

(١) التثنية ١١/٢٦ - ٢٩.

(٢) سورة الأعراف آية ١٢٩.

(٣) سورة الأعراف آية ١٦٩.

(٤) سورة البقرة آية ٦٣.

(٥) سورة البقرة آية ٤٠.

(٦) سورة البقرة آية ٤٧.

(٧) سورة البقرة آية ٨٣.

٣ - [الإنقلاب على تعاليم خيمة الإجتماع]

ذكرت التوراة تحذير الله لبني اسرائيل «واللعنة إذا لم تسمعوا لوصايا الحكم وزغتم عن الطريق» وأخبر القرآن الكريم أنهم لم يسمعوا وزاغوا عن الطريق. وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾^(١) والزيف: الميل عن الإستقامة. ولازمه الإنحراف عن الحق الى الباطل. فهم زاغوا أولاً. فأزاغ الله قلوبهم لسوء إختيارهم. وإزاغته تعالى إمساك رحمته وقطع هدايته عنهم كما يفيد التعليل بقوله ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ حيث علل الإزاغة بعدم الهداية^(٢).

والذين تلبسوا بالزيف وفتحوا طريق الضلال. ظل منهمجهم يعمل على طريق الصد عن سبيل الله على امتداد الرحلة الإسرائيلية. وإنطلق تحت ظلاله الذين أخذوا بذيول آبائهم وخرجوا عن سبيل موسى وهارون عليهما السلام. وسنبين في موضعه أن الخط الذي خرج عن طريق هارون وبنيه. هو الذي صد عن سبيل المسيح عيسى عليه السلام وهو الذي مهد للمسيح الدجال بعد ذلك.

● ويبين العهد القديم أن الإنحراف فتحت أبوابه مع الفتوحات العسكرية من بعد موسى عليه السلام فمع القتال على الملك إتسعت رقعة الأرض ودخل السبي ومعهم آلهتهم الغريبة وثقافتهم التي تفسد الفطرة، وسجل العهد القديم قول يوشع بن نون لبني اسرائيل «أنتم شهود على أنفسكم إنكم قد إخترتم لأنفسكم الرب لتعبدوه. فقالوا: نحن شهود. فالآن إنزعوا الآلهة الغريبة التي في وسطكم وأميلوا قلوبكم

(١) سورة الصف آية ٥.

(٢) الميزان ١٩/٢٥٠.

الى الرب إله اسرائيل»^(١).

وتعليمات يوشع بن نون بنزع الآلهة الغريبة لم تلبث طويلاً . لأنها ذابت في غبار المسيرة بعد وقت قصير، ويذكر سفر القضاة أن الشعب الإسرائيلي إختار لنفسه مجموعة من الزعماء تولوا قيادته، وكان هؤلاء الزعماء يتم إختيارهم وفقاً لصفاتهم الجسمانية أو الشخصية، وكان معظمهم من العسكريين، وعلى أكتاف هذه الزعامة بدأت المسيرة تتجرد من المعنى الديني الذي وضعت أصوله في خيمة الاجتماع، ولبست المسيرة رداء الغزو والإحتلال، ولم يكن الشعب على امتداد هذه المدة يحكمه قائد واحد. فمع تمزيق الوحدة الدينية تمزقت الأرض من تحتهم وتحولت الى رفع للأسباط والجنود، يقول سفر القضاة «وفي تلك الأيام لم يكن ملك في اسرائيل، كان كل واحد يعمل ما يحسن في عينه»^(٢).

● ومن القيادات التي ذكرها السفر، إمراة تدعى (ديورة) وكانت من العسكريين، يقول السفر «وديورة.. زوجة لفيدوت. هي قاضية اسرائيل في ذلك الوقت.. وكان بنو اسرائيل يصعدون إليها للقضاء»^(٣) ومنهم (جدعون) الذي قاد معارك ضد الجواله، (والجلعاوي) الذي حارب بني عموت، و(شمشون) الذي حارب أهل فلسطين.

ويذكر السفر ما ترتب هذه الفتوحات وهذا القتال على الملك، فيقول «فسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحيثيين والآموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا لأنفسهم نساء. وأعطوا بناتهم لبنينهم. وعبدوا آلهتهم. فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب. ونسوا

(١) يوشع ٢٤/٢١ - ٢٣.

(٢) القضاة ١٧/٦.

(٣) المصدر السابق ٤/٤ - ٦.

الرب الههم. وعبدوا البعلليم والسواري»^(١) «وعبدوا البعلليم. والعشتاروت. وآلهة آرام وآلهة صيدون. وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين. وتركوا الرب ولم يعبدوه»^(٢) «وزنوا وراء البعلليم وجعلوا لهم بعل يرث إلهاً»^(٣).

● وهكذا جاءت النتيجة وفقاً لمقدمة إنقلبوا فيها على أعقابهم بعد وفاة موسى عليه السلام بزمان يسير. لقد ساروا بلا رأس وراء الزخرف والأهواء. فإنتهت بهم أقدامهم وهم تحت سقف الإمتحان الى التيه والضيايع.

٤ - [عهد الهيكل]

١ - الطريق الى الهيكل:

بعد أن تمزقت الوحدة الدينية وإختلف الذين أوتوا الكتاب بعد أن جاءهم العلم، وبعد أن جرت الروح العسكرية حاملة للعدوان في جسد المسيرة، لم تجف الساحة من الأنبياء والمصلحين الذين حملوا مشاعل الفطرة على إمتداد الطريق، ومن هؤلاء (طالوت) ويسميه العهد القديم (شاول). إصطفى الله طالوت وزاده بسطة في العلم والجسم، فكان علمه مناراً في ساحة ليس فيها علم يرى، وكانت قوته معجزة في ساحة يختار أهلها الزعيم وفقاً لصفاته الجسمية ومقدرته العسكرية، ويضاف الى هذا وذاك أن طالوتاً جاء إليهم بما ضيعوه على طريق الاختلاف والإفتراق، لقد جاء ومعه تابوت موسى فيه سكينه من الله وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، لعل المسيرة إن تتذكر وتتدبر وتؤمن.

قال تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا

(١) المصدر السابق ٣/ ٥ - ٧.

(٢) المصدر السابق ١٠/ ٦ - ٧.

(٣) المصدر السابق ٧/ ٣٣.

أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال. قال إن الله إصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم. وقال لهم نبيهم إن آية ملكة أن يأتىكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين^(١).

● فعندما أخبرهم نبيهم بملك طالوت حَكَمُوا الحس في الأمر، وإعترضوا بأنهم أحق بالملك منه وأنه لم يؤت سعة من المال، فحمل الرد اليهم: أن الملك وهو إستقرار السلطة على مجتمع من الناس، الفرص منه أن يدبر صاحبه المجتمع تدبيراً يوصل كل فرد من أفرادها الى كماله اللائق به، ويجمع الناس تحت إرادة واحدة فلا يزاحم فرد فرداً. ولا يتقدم فرد من غير حق ولا يتأخر فرد من غير حق، والذي يحقق هذا المطلب أمران: (أحدهما): العلم بجميع مصالح الناس ومفاسدها (وثانيهما) القدرة الجسمية على إجراء ما يراه من مصالح المملكة، وهما اللذان يشير اليهما قوله تعالى: ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾.

ثم حاصرهم الرد بحجة دافعة وهي قوله تعالى: ﴿والله يؤتى ملكه من يشاء﴾ أي له تعالى التصرف في ملكه كيف شاء وأراد. وليس لأحد أن يقول: لماذا أو بماذا. أي ليس لأحد أن يسأل عن علة التصرف لأن الله هو السبب المطلق.

● ويذكر أبو الفتح السامري في تاريخه. أن طالوتاً قاتل بني اسرائيل. وجعل ساحات البعل خالية وأبطل طرقها وإنه داهم بني اسرائيل في مرج البهاء وقتل كل من وجدته في ساحة البعل. وحفظ الشريعة اثنين وعشرين عاماً^(٢) ولم يقف طالوت أمام الشذوذ الداخلي

(١) سورة البقرة آية ٢٤٨.

(٢) نقد التوراة/ حجازي لالسقا ص ٩٢.

في المسيرة فقط وإنما جهز جيشاً لقتال عدوه الخارجي المتمثل في (جالوت) ويسميه العهد القديم (جليات)^(١) وأثناء تقدم الجيش في اتجاه المعركة، أجرى طالوت على الجنود اختباراً على قاعدته يميز الصادق من المنافق، لتتعرى المسيرة العسكرية التي تاجر بها بني اسرائيل من بعد موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا إلا قليلاً منهم﴾. فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه. قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾^(٢).

ذكر في الميزان أن الجنود كانوا في الظاهر مع طالوت، ولكن لم يتميز بعد الطيب من الخبيث، ولم يتحقق بعد من هم الذين مع طالوت، فكان النهر الذي إبتلاهم به الله. ليتعين به من ليس منه وهو من شرب من النهر، ويتعين به من هو منه وهو من لم يطعمه، وبعد جواز النهر تمت المفاصلة وبقي معه الذين هم منه. والذين لم يخرجهم من المغترفين، والتدبر في الآيات يعطي أن يكون القائلون: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. هم المغترفون، والذين قالوا «كم من فئة قليلة» هم الذين لم يظعموا الماء أصلاً^(٣).

وبدأت المعركة لتظهر إسم داوود من خلالها، قال تعالى: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾. فهزموهم بإذن الله وقتل داوود جالوت وآتاه الله

(١) صموئيل أول ١٧/٢٣.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩.

(٣) الميزان ٢/٢٨٥.

الملك والحكمة وعلمه مما يشاء^(١). وعلى هذا تكون مملكة طالوت مهدت الطريق لمملكة داوود. وبالجملية: لقد سجلت مملكة طالوت على المسيرة الاسرائيلية. أنها مسيرة ليس فيها علم يرى لإتجاهها نحو البعل والأصنام، وسجلت عليهم تولي أكثرهم عند إنجاز القتال قبل مجيء طالوت. وهو قوله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين. وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ الآية، وسجل عليهم الاعتراض على ملكه، والشرب من النهر، وقولهم: لا طاقة لنا بجالوت وجنوده.

ونظراً لأن طالوتاً بعث عليهم بالحجة والقبضة الحديدية، فإن سيرته لم تجد لها حظاً وافراً ضمن أمجاد بني اسرائيل، والذي يقرأ سفر صموئيل يجد أن كاتب السفر قد وقع في تناقضات عديدة، وهدم قيادة طالوت لحساب قيادة داوود، وأكد معنى يقول أن خلاص الشعب من طالوت كان على أيدي داوود، ويستلزم ذلك أن مملكة داوود هي المتنفس الذي ينبغي أن تتوجه اليه المسيرة وهي تجتر ذكرياتها، ولم ينسى كاتب السفر أن يجعل طالوت عدواً لدوداً لداوود، فذكر أن طالوتاً (شاول) قال لإبنه «ما دام ابن عيسى (داوود) حياً على الأرض. لا تثبت أنت ومملكته. والآن ارسل وأت به التي لأنه ابن الموت هو»^(٢) وذكر أن طالوت أمر عبده وجنوده بقتل داوود^(٣). وإن داوود هرب خوفاً منه^(٤). وقال أن طالوت قتل كهنة الرب^(٥). وكانت نهايته نهاية

(١) سورة البقرة آية ٢٥١.

(٢) صموئيل أول ٢٠/٣٠.

(٣) المصدر السابق ١/١٩.

(٤) المصدر السابق ١/٢٧.

(٥) المصدر السابق ١٧/٢٢.

المهزوم المكسور نتيجة لغضب الله عليه^(١). لأنه حول الحرب اليهودية من حرب قومية مع الجيران. الى حرب جانبية لتصفية الصراعات الشخصية.

وذكر كاتب السفر أن الله زاد (شاول) بسطة في الجسم، ولم يشر الكاتب إلى بسطة العلم، وأدى ذلك الى الخلط بين الحقيقة وبين الأوهام التي دثرها الخيال على إمتداد طريق تداول الذكريات.

● وجاء داوود عليه السلام على أرضية فيها «التابوت فيه سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون». وشد الله تعالى ملكه بالهيبة وحسن التدبير والمعارف الحققة. وكانت مملكة داوود عليه السلام دعوة من أجل العودة الى ينبوع الفطري. وكان تسبيح داوود عين معجزته. فالجبال في تسبيحها توافق تسبيحه والطيور يسبح معه وتقرع تسبيحها أسماع الناس. قال تعالى: ﴿واذكر عبدنا داوود ذا الأيدي إنه أواب. إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق. والطيور محشورة كل له أواب. وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾^(٢) لقد كان التسبيح حجة على أصحاب القلوب التي قدت من حديد. وكان حجة من شأنها انها ترفع الصدا الذي على القلوب لمن أراد أن يتخذ الى ربه سبيلاً. ولم تفتن المسيرة الى حكمة التسبيح في مملكة داوود. وتصفحت أمام الأرض والطين وحدود مملكة داوود.

● ومن بعد داوود جاء سليمان عليهما السلام، وأعطاه الله المعجزات التي يخضع لها أصحاب العقول والأفهام والذين أفنوا حياتهم في غيبوبة بناء المقابر والأهرامات ومعابد العجول، جاء سليمان عليه السلام بالمعجزة التي تذيب النحاس، وأسأل الله له النحاس فكان

(١) المصدر السابق ١٥/٢٨.

(٢) سورة ص آية ١٨ - ١٩.

كالعين الجارية. وسخر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل وصحائف الطعام وما يجمع فيه الماء. والقذور الراسيات التي يطبخ فيها الطعام وغير ذلك، ولم يكن هذا من أجل الأبهة، وإنما كان من أجل إقامة الحجة على مسيرة بشرية. تسير تحت سقف الإمتحان لينظر الله اليهم كيف يعملون.

● وذكر العهد القديم أن داوود لم يأمر ببناء المحراب في أورشاليم. وإنما أمر ببناء مذبحاً في (بيدر أرونة) اليبوسي. وعندما أراد صاحب الأرض أن يتبرع مكان المذبح. رفض داوود عليه السلام أن يكون المكان مجاناً واستشراه. وأقام عليه المذبح^(١) وأتى بالتابوت وأمر آل هارون واللاويين فحملوا التابوت «كما أمر موسى حسب كلام الرب بالعصى على أكتافهم»^(٢) وعندما بعث سليمان عليه السلام. أمر الله تعالى ببناء البيت في أورشاليم. يقول العهد القديم أن الله قال لداوود «إنك انت لا تبني البيت. بل إبنك الخارج من حلبك هو الذي يبني البيت الأسمي»^(٣) وذكر العهد القديم أن سليمان قال «وهانذا قائل على بناء بيت لإسم الرب إلهي. كما كلم الرب داوود أبي»^(٤).

٢ - [تحذيرات سليمان عليه السلام]

عندما فرغ سليمان من بناء البيت. ذكر العهد القديم أنه قال «ليعلم كل شعوب الأرض. أن الرب هو الله وليس آخر. فليكن قلبكم كاملاً لدى الرب الهنا إذ تسرون في فرائضه وتحفظون وصايا»^(٥) وأخبر

(١) صموئيل الثاني ٢٤/٢٣ - ٢٥.

(٢) أخبار الأيام الأول ١٥/١٥.

(٣) الملوك الأول ١٨/١٨ - ٢٠.

(٤) المصدر السابق ٨/٦٠.

(٥) المصدر السابق ٨/٦١.

بني اسرائيل أن الله يحذرهم من ترك فرائضه . فقال : «إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائي . ولا تحفظون وصاياي وفرائضي التي جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها . فاني أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التي أعطيتهم إياها . والبيت الذي قدسته لإسمي أنفيه من أمامي . ويكون اسرائيل مثلاً وهزأة في جميع الشعوب . وهذا البيت يكون عبرة»^(١) .

٣ - [الإنقلاب على تعاليم الهيكل]

بعد وفاة سليمان عليه السلام إنقسمت الدولة الواحدة التي وضع داوود عليه السلام أساسها ، ويمكن القول أنه بعد سليمان أصبح لدينا تاريخين لليهود الذين لم يتحدوا في مملكة واحدة بعد سليمان ، تاريخ مملكة إسرائيل في الشمال . وتاريخ مملكة يهوذا في الجنوب ، ويمكننا القول أيضاً أنه بعد سليمان أصبح لليهود قبلتين لا قبلة واحدة . وتحديد القبلة في التوراة جاء كما يلي «وإذا جاء بك الرب إلهك الى الأرض التي أنت داخل اليها . فاجعل البركة على جبل جرزيم . واللعنة على جبل عيبال»^(٢) وعلى أرضية الخلاف والاختلاف والإفتراق ، قال السامريون إنها جبل «جزريم» وعلى ذلك دونوا توراتهم ، وقال العبرانيون إنها جبل «عيبال» وعلى ذلك دونوا توراتهم ، وهذه الكلمة هي التي ميزت بين التوريتين . وفي عهد المسيح ابن مريم عليه السلام سأله إمراة سامرية عن هذا الاختلاف قالت له «يا سيد أرى إنك نبي . أبأؤنا عبدوا الله في هذا الجبل . وأنتم اليهود تصرون على أن اورشليم يجب أن تكون المركز الوحيد للعبادة . فأجابها يسوع : صدقيني يا إمراة

(١) المصدر السابق ٦/٩ - ٩ .

(٢) التثنية ٢٦/١١ .

ستأتي الساعة التي فيها تعبدون الله لا في هذا الجبل ولا في أورشليم»^(١) وكان عليه السلام يشير بذلك الى بيت الله الحرام في مكة المكرمة كما سنبين في موضعه.

وجماعة اليهود مختلفون في الصحيح بين النصين حتى الآن. فكل جماعة من اليهود تدعي أن الآخرين حرفوا هذا الموضع في التوراة. وما زال الخلاف بين العلماء. فأدم كلارك في تفسيره ٨١٧/١ ينقل عن المحقق «كنيكات» إنه يدعي صحة السامرية. والمحققان (باري) و (درشور) يدعيان صحة العبرانية^(٢).

ويمكننا القول أيضاً أنه بعد سليمان عليه السلام صدرت قرارات رسمية من القيادة بعبادة العجول، وأول من سن هذه السنة (يربعام) مؤسس مملكة اسرائيل الشمالية، فعندما وجد شعبه يذهب الى أورشليم عاصمة خصمه ملك يهوذا ليقرّبوا ذبائحهم في بيت الله هناك قال: «إن صعد هذا الشعب ليقرّبوا ذبائح في بيت الرب في أورشليم. يرجع قلب هذا الشعب إلى سيدهم ملك يهوذا ويقتلونني»^(٣) ولهذا السبب أقدم على عمل واتخذ قراراً. يقول العهد القديم: «وعمل عجولين من ذهب. وقال لهم^(٤). كثير عليكم أن تصعدوا الى أورشليم، هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر. ووضع واحد في بيت إيل وجعل الآخر في دان»^(٥). وبني المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من أبناء لاوي»^(٦) (والكهانة. في سبط لاوي موقوفة على أبناء هارون)

(١) انجيل يوحنا ٤/ ٢٠ - ٢٢.

(٢) المقارنات/ د. محمد الصادقي ص ٩٩.

(٣) الملوك الأول ١٢/ ٢٥.

(٤) أي قال للشعب.

(٥) الملوك الأول ١٢/ ٢٨ - ٢٩.

(٦) المصدر السابق ١٢/ ٢١ - ٢٢.

وما لبثت هذه السنة أن إنتشرت. وصدرت قرارات عليا على إمتداد المسيرة تنظم هذه العبادة، وعلى إمتداد المسيرة الاسرائيلية بعث الله تعالى الأنبياء اليهم في المملكتين. ليسوقوهم الى سبيل الفطرة وليكونوا عليهم حجة وهم يتحركون تحت سقف الإمتحان والإبتلاء لينظر الله اليهم كيف يعملون، ويدكر الكتاب المقدس أن الأنبياء الذين بعثوا في مملكة إسرائيل الشمالية هم: إيليا، اليسع، عاموس، هوشع، أما الذين بعثوا في مملكة يهوذا الجنوبية فهم: يوثيل، أشعيا، ميخا، صفنيا حبقوق، أرميا، وكذب الشعب منهم من كذب وقتل منهم من قتل.

● وسجل سفر الملوك إنحرافات بني اسرائيل بعد سليمان في اكثر من موضع. منه «إن بني اسرائيل أخطأوا الى الرب إلههم الذي أصعدهم من أرض مصر من تحت يد فرعون مصر. واتقوا آلهة أخرى وسلكوا حسب فرائض الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني اسرائيل وملوك اسرائيل الذين أقاموهم. وعمل بنو اسرائيل سراً ضد الرب إلههم أمور ليست بمستقيمة وبنوا لأنفسهم مرتفعات في جميع مدنهم... وأقاموا لأنفسهم أنصاباً وسواري على كل تل عال وتحت كل شجرة خضراء. وأوقدوا هناك على جميع المرتفعات مثل الأمم الذين ساقهم الرب من أمامهم. وعملوا أموراً قبيحة.. وعبدوا الأصنام التي قال الرب لهم عنها لاتعملوا هذا الأمر. وأشهد الرب على اسرائيل وعلى يهوذا عن يد جميع الأنبياء وكل راء قائلًا: إرجعوا عن طرقكم الردية وإحفظوا وصاياي فرائضي حسب كل الشريعة التي أوصيت بها آباءكم والتي أرسلتها اليكم عن يد عبيدي الأنبياء. فلم يسمعوا بل صلبوا أقفيتهم كأقفية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب إلههم. ورفضوا فرائضه وعهده الذي قطعه مع آبائهم وشهاداته التي شهد بها عليهم. وساروا وراء الباطل وصاروا باطلاً وراء الأمم الذين حولهم الذين أمرهم الرب أن لا يعملوا مثلهم. وتركوا جميع وصايا الرب إلههم وعملوا

لأنفسهم مسبوكات عجولين . وعملوا سوارى وسجدوا لجميع جند السماء وعبدوا البعل»^(١).

● وسجل أشعيا في سفره هذه الانحرافات، ومما قال كما ذكر العهد القديم: «أسمعي أيتها السماوات. وإصغى أيتها الأرض، الآن الرب يتكلم، ربيت بنين ونشأتهم. أما هم فعصوا عليّ، الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم، ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم. نسل فاعلي الشر. أولاد مفسدين، تركوا الرب. إستهانوا بقدوس إسرائيل. إرتدوا الى الوراء، على من تضربون بعد. تزدادون زيغاناً، كل الرأس مريض وكل القلب سقيم. من أسفل القدم الى الرأس ليس فيه صحة. بل جرح وإحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت»^(٢) وقال: «وقد إرتد الحق الى الوراء والعدل يقف بعيداً. لأن الصدق سقط في الشارع والإستقامة لا تستطيع الدخول. وصار الصدق معدوماً. والحائد عن الشر يسلب»^(٣).

● والخلاصة لقد أقام الله الحجة على بني إسرائيل ببعث الأنبياء فيهم، وأمرهم سبحانه أن يوفوا بعهده وأن يذكروا نعمته التي أنعمها عليهم وأن لا يعبدوا إلا إياه، وحذرهم سبحانه من عواقب العصيان والكفر، ولكن قست قلوبهم وإندفعت قافلتهم في طريق الانحراف، رافعة لاعلام والإستكبار في الأرض بغير حق تصد بها عن سبيل الله، وعلى طريق الانحراف وضعوا مقدمات الفتن التي تنتهي نتائجها في سلة المسيح الدجال.

(١) الملوك الثاني ١٧/٧، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٧.

(٢) أشعيا ١/٣ - ٧.

(٣) المصدر السابق ١٤/٥٩.

ولما كان اليهود قد رفعوا على إمتداد مسيرتهم بعد ذلك لافتة تقول بأنهم شعب الله المختار، فإننا سنلقي بعض الضوء على مملكة اسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب. لتظهر رموز المسيرة ويقف الباحث على الحركة الحقيقية للقافلة. ليقرر ماذا قدمت الصفوة والقدوة في مملكة اسرائيل الشمالية ومملكة يهوذا الجنوبية. وهل ما قدموه يستقيم مع صراط الفطرة. وهل تحليل حوادث هذه المرحلة التاريخية يقود الى دوائر الأمان الغيبية التي بيّنها الأنبياء والرسل.

ثانياً [القتال على الملك]

بعد وفاة سليمان عليه السلام خلفه ابنه (رحبعام) فخرج عليه (يربعام بن نياط) وكان قد هرب الى مصر من وجه سليمان. وعندما مات سليمان عاد وقاتل (رحبعام بن سليمان) وإنتهى النزاع بتقسيم الدولة الى مملكتين^(١).

١- [مملكة إسرائيل] (٩٣١ - ٧٢٢ ق.م)

قامت هذه المملكة بزعامة (يربعام) يتبعه الأسباط العشر، وإتخذت المملكة شكيم عاصمة لها ثم (نابلس) فيما بعد، وهؤلاء يقيمون التوراة السامرية. فيعترفون بأسفار موسى الخمسة وسفري يوشع والقضاء ويرفضون باقي أسفار العهد القديم^(٢). وحكم هذه المملكة ثمانية عشر ملكاً من تسع عائلات مختلفة^(٣) وكانت كل عائلة تتقلد الحكم تقوم بمجازر تقتل فيها عظماء ومعارف وكهنة البيت الحاكم السابق.

(١) الملوك الأول ١٢/٢ وما بعدها.

(٢) مقارنة الأديان/ابراهيم خليل ص ٨٦.

(٣) مفاتيح الأسفار الإلهية ص ٥٣.

ويعود تأسيس هذه المملكة الى (يربعام بن نياط) ويذكر العهد القديم «أن الكهنة واللاويين تركوا مسارحهم في اسرائيل وانطلقوا الى يهوذا وأورشاليم. لأن (يربعام) وبنيه رفضوهم من أن يكهّنوا للرب، وأقام (يربعام) لنفسه كهنة للمرتفعات وللتيتوس وللعجول التي عمل»^(١). وعلى طريق (يربعام) سار جميع ملوك اسرائيل.

● ملك (يربعام) على اسرائيل ٢٢ سنة. وخلفه ابنه (ناداب) الذي إستمر حكمه عامين^(٢). وانتهى بتمرد عليه قاده (بعشا). وعندما ملك. يذكر العهد القديم «أنه ضرب كل بيت يربعام. لم يبق نسمة ليربعام حتى أفناهم»^(٣) واستمر ملك بعشا ٢٤ سنة^(٤). وملك بعده ابنه (إيلة) ولم يدم له الملك سوى عامين^(٥). ثم خرج عليه (زمرى) الذي يقول عنه العهد القديم «عند تملكه وجلسه على كرسيه ضرب كل بيت بعشاً لم يبق له بائلاً بحائط مع أوليائه وأصحابه وأفنى زمرى كل بيت بعشاً»^(٦). ولم يدم الحكم لزمرى إلا سبعة أيام فقط^(٧) فقد خرج عليه (عمرى) قائد الجيش. وإستولى على المدينة. وعندما علم (زمرى) أن المدينة سقطت دخل الى القصر وأشعل النار في نفسه^(٨). وملك (عمرى) على اسرائيل ١٢ سنة^(٩). وأسس مدينة السامرة. وذكر العهد

(١) أخبار الأيام الثاني ١١ / ١٤ - ١٥.

(٢) ملوك أول ١٥ / ٢٦.

(٣) المصدر السابق ١٥ / ٢٨.

(٤) المصدر السابق ١٥ / ٣٤.

(٥) المصدر السابق ١٦ / ٨.

(٦) المصدر السابق ١٦ / ١١ - ١٢.

(٧) المصدر السابق ١٦ / ١٥.

(٨) المصدر السابق ١٦ / ١٩.

(٩) المصدر السابق ١٦ / ٢٢.

القديم بأنه أساء أكثر من جميع الذين قبله^(١).

بعد (عمرى) ملك ابنه (أخاب) وقام بإيعاز من امرأته إيزابيل بقتل انبياء الرب^(٢)، وكانت أيام حكمه على اسرائيل ٢٢ سنة، وخلفه ابنه (أخزيا) لمدة عامين^(٣). ومن بعده تولى الحكم أخوه (يهورام)، وكانت أيام حكمه ١٢ سنة^(٤). ثم خرج عليه قائد جيشه (ياهو) ويذكر العهد القديم أن (ياهو) بعث برسائله الى الرؤساء والشيوخ، وفيها «إن كنتم سمعتم لقولي فخذوا رؤوس رجال بني سيدكم وتعالوا اليّ»^(٥)، وعندما وصلت الرسائل الى الرؤساء والشيوخ، يقول العهد القديم «أخذوا بني الملك وقتلوا سبعين رجلاً، ووضعوا رؤوسهم في سلال وأرسلوها اليه»^(٦) «وقتل ياهو كل الذين بقوا لبيت أخاب وكل عظمائه ومعارفه وكهنته حتى لم يبق له شارد»^(٧)، وفي أثناء تقدمه الى السامرة. صادف جماعة من مملكة يهوذا تربطهم مصاهرة ببيت أخاب. فقال «أمسكوهم أحياء. فأمسكوهم. ثم أمر بقتلهم عند بئر عقد، إثنين وأربعين رجلاً. ولم يبق منهم أحداً»^(٨). وكانت الأيام التي ملك فيها ياهو على اسرائيل ٢٨ عاماً، وخلفه ابنه (يهوآحاز) ملك على اسرائيل ١٧ عاماً^(٩). وتولى الحكم من بعده ابنه (يهوآش) لمدة ١٦ سنة^(١٠) ثم ملك من بعده ابنه

(١) المصدر السابق ١٦/٢٥.

(٢) الملوك الأول ١٥/٢١ - ١٦.

(٣) المصدر السابق ٢٢/٥٣.

(٤) الملوك الثاني ٣/٣.

(٥) المصدر السابق ١٠/٦.

(٦) المصدر السابق ١٠/٧.

(٧) المصدر السابق ١٠/١٢.

(٨) المصدر السابق ١٠/١٤.

(٩) المصدر السابق ١٣/٣.

(١٠) المصدر السابق ١٣/١١.

(يربعام الثاني) لمدة ٤١ سنة^(١). ثم جاء من بعده ابنه (زكريا) وكانت مدة حكمه ٦ أشهر^(٢). خرج عليه (شلوم بن يابيش) وضربه أمام الشعب فقتله وملك عوضاً عنه^(٣). ولم يدم حكمه إلا شهراً واحداً^(٤). خرج عليه (مخيم بن جادي) وضربه في السامرة فقتله. وملك عوضاً عنه لمدة ١٠ سنوات^(٥). وخلفه ابنه (فقحيا) وكانت مدة حكمه سنتين^(٦). خرج عليه (فتح بن رمليا) وضربه فقتله وملك عوضاً عنه، وكانت مدة حكمه ٢٠ سنة^(٧)، خرج عليه (هوشع بن أيلة) وضربه فقتله وملك عوضاً عنه ٩ سنوات^(٨).

● في عهد (منحيم بن جادي) بدأت نجم آشور في الظهور، ولقوة ساعدها بعث (منحيم) الى (فول) ملك آشور. ألف وزنة من الفضة لتكون يده معه ليثبت المملكة في يده، وفرض (منحيم) على اسرائيل الضرائب ليدفع بملك آشور خمسين شاقل فضة على كل رجل^(٩)، وفي عهد (فقح بن رمليا) جاء ملك آشور (تغلت فلاسر) الى اسرائيل. واستولى على بعض الحصون والجبال وكل أرض نفتالي، وسبى أهلها الى آشور^(١٠) ثم طور الملك الآشوري (شلمنأسر) هجومه على اسرائيل على عهد (هوشع بن إيلة) يقول العهد القديم «صعد عليه

(١) المصدر السابق ٢٤ / ١٤.

(٢) المصدر السابق ٩ / ١٥.

(٣) المصدر السابق ١٢ / ١٥.

(٤) المصدر السابق ١٤ / ١٥.

(٥) المصدر السابق ١٨ / ١٥.

(٦) المصدر السابق ٢٢ / ١٥.

(٧) المصدر السابق ٢٧ / ١٥.

(٨) المصدر السابق ٢ / ١٧.

(٩) المصدر السابق ١٩ / ١٥.

(١٠) المصدر السابق ٢٩ / ١٥.

شلمنأسر ملك آشور، فصار له هوشع عبداً ودفع له جزية، ووجد ملك آشور في هوشع خيانة، لأنه أرسل رسلاً الى سوا ملك مصر. ولم يؤد جزية الى ملك آشور حسب كل سنة. فقبض عليه ملك آشور وأوثقه في السجن. وصعد ملك آشور على كل الأرض. وصعد الى السامرة.. وأخذ ملك آشور السامرة وبني اسرائيل إلى آشور»^(١).

● وهكذا نزل الستار على مملكة قطعت شوطاً كبيراً في عالم الإنحراف الذي إنطلقت فيه بوقود «فقه البقر»، نزل الستار بعد مسيرة إستمرت ٢٠٠ سنة تقريباً (٩٣١ - ٧٢٢ ق.م). لم تقدم فيها قدوة عسكرية أو سياسية أو إجتماعية أو اقتصادية، ولم تفتح فيها طريقاً للفطرة. لأن طريق الفطرة لا ترفعه سواعد تحمل أعلام المثل الأعلى المتدني المنحط. حيث العجول والتيوس والسوارى والأنصاب وغير ذلك.

أن الحركة الإسرائيلية التي قدمتها مملكة اسرائيل الشمالية. لم تكن من أجل أرض الميعاد أو هيكل سليمان أو المحافظة على نقاء الدم اليهودي، أو غير ذلك من العناوين البراقة التي تاجرت بها مؤسسات الصد عن سبيل الله فيما بعد، وإنما كانت الحركة من أجل الملك والأهواء التي خرجت من دوائر الزينة والإغواء والإحتكاك، وإذا كنا قد القينا الضوء على الجناح الشمالي للتاريخ الإسرائيلي، فإننا نلقي فيما بعد الضوء على الجناح الجنوبي لهذا التاريخ وأقصد به مملكة يهوذا الجنوبية، لنقف على المقدمات الحقيقية في الماضي البعيد. ونستنتج منها معلومات واقعية في حاضرنا الذي نحياه. ومن هذا الإستنتاج نمد البصر الى المستقبل لنرى الدوائر الغيبية التي تحدث بها الأنبياء والرسل. وهم يخبرون بالغيب عن ربهم جل وعلا..

(١) المصدر السابق ١٧/٣ - ٥.

٢ - [مملكة يهوذا] (٩٣١ - ٥٨٦ ق. م)

قامت هذه المملكة بزعامة (رحبعام بن سليمان) يتبعه قبيلتين واتخذت المملكة (أورشاليم) عاصمة لها. وهؤلاء يقيمون العهد القديم بأقسامه الثلاثة: التوراة والكتب والأنبياء.

دخل (رحبعام) في معارك طاحنة مع (يربعام) ملك إسرائيل، ولأن يربعام كان مدفوعاً من مصر، ويحمل في قلبه عقيدة العجل التي كانت تدين بها الأسرة الفرعونية الثانية والعشرين (٩٤٥ - ٧١٢ ق. م). لم يتركه فرعون مصر شاشنق وحده في أرض المعركة، وتقدم بقواته نحو أورشاليم ليأخذ منها الخزائن. ويرعى عقيدة العجل التي بدأت تنمو في المملكة، يقول العهد القديم «وعمل يهوذا الشر... وبنوا هم أيضاً لأنفسهم مرتفعات وأنصاباً وسواري على كل تل مرتفع وتحت كل شجرة خضراء... وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر الى أورشاليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان، فعمل الملك رحبعام عوضاً عنها أتراس نحاس»^(١).

● وملك رحبعام ١٧ سنة^(٢)، وبعد وفاته ملك أبنه (إبيام) ثلاث سنين^(٣). وبعد وفاته ملك ابنه (أسا) ٤١ سنة. نزع خلالها جميع الأصنام إلا أنه لم ينزع المرتفعات^(٤) ثم ملك ابنه (يهوشافاط) ٢٥

(١) مقارنة الأديان/ ابراهيم خليل ص ٨٧.

(٢) الملوك الأول ٢٧/١٤.

(٣) المصدر السابق ٢١/١٤.

(٤) أخبار الأيام الأول ٢/١٣.

سنة^(١) وصاهر بيت الملك آخاب ملك إسرائيل، وكانت هذه المصاهرة باباً دخلت منه الأوثان بصورة أكبر وأشمل في عهد ابنه (يهورام). الذي ملك يهوذا ثماني سنوات. قال فيها العهد القديم «سار في طريق ملوك إسرائيل كما فعل بيت آخاب لأن بنت آخاب كانت له امرأة»^(٢)، «وتشدد وقتل جميع أخوته بالسيف»^(٣)، «وعمل مرتفعات في جبال يهوذا وجعل سكان أورشاليم يزنون»^(٤)، وملك من بعده ابنه (أخزيا) لمدة سنة واحدة^(٥). وقتل بيد (ياهو) ملك إسرائيل الذي خرج في إسرائيل على بيت آخاب وقتلهم جميعاً^(٦).

وعندما قتل (أخزيا) قامت أمه بإعتلاء العرش في أورشاليم لمدة ٦ سنوات، ثم إنتهت حياتها بالقتل^(٧). وتولى الحكم (يهواش). وكان ابن سبع سنين حين ملك، وملك ٤٠ سنة^(٨)، وسمح لرؤساء يهوذا بعبادة الأصنام، يقول العهد القديم «جاء رؤساء يهوذا وسجدوا للملك، حينئذ سمع الملك لهم، وتركوا بيت الرب إله آبائهم وعبدوا السواري والأصنام، فكان غضب على يهوذا وأورشاليم لأجل أنهم هذا، وأرسل اليهم أنبياء لإرجاعهم الى الرب وأشهدوا عليهم فلم يصغوا»^(٩). وإنتهت حياة يهواش بالقتل. قتله عبيده في بيت القلعة^(١٠)، وملك عوضاً عنه ابنه

-
- (١) الملوك الأول ٩/١٥.
 - (٢) المصدر السابق ٤١/٢٢.
 - (٣) الملوك الثاني ١٧/٨.
 - (٤) أخبار الأيام الثاني ٤/٢١.
 - (٥) المصدر السابق ١١/٢١.
 - (٦) المصدر السابق ٢/٢٢.
 - (٧) المصدر السابق ٩/٢٢.
 - (٨) أخبار الأيام الثاني ١٥/٢٣.
 - (٩) المصدر السابق ١/٢٤.
 - (١٠) المصدر السابق ١٧/٢٤ - ١٩.

(أمصيا). وكان ابن خمس وعشرين سنة حين ملك. وملك ٢٩ سنة^(١)، يقول العهد القديم «أتى (أمصيا) بآلهة بني ساعير وأقامهم له آلهة. وسجد أمامها وأوقد لها»^(٢)، وملك من بعده ابنه (عزريا) وكان ابن ست عشرة سنة حين ملك. وملك ٥٢ سنة^(٣). وملك من بعده ابنه (يوثام) وكان ابن خمس وعشرين سنة حين ملك وملك ١٦ سنة^(٤).

وملك بعد يوثام ابنه (آحاز) وكان ابن عشرين سنة حين ملك. وملك ١٦ سنة. يقول العهد القديم: «سار في طريق ملوك إسرائيل. وعمل أيضاً تماثيل مسبوكة للبعليم. وأحرق بنيه بالنار حسب رجاسات الأمم. وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال. وتحت كل شجرة خضراء»^(٥). وعندما أغار ملك آرام على مملكة يهوذا بعد الملك (أحاز) برسالة الى ملك آشور (تغلث فلاسر) يقول له فيها: «أنا عبدك وابنك. إصعد وخلصني من يد ملك آرام ومن يد ملك إسرائيل»^(٦) القائمين عليّ، وأخذ آحاز الفضة والذهب الموجودة في بيت الرب. وأرسلها الى ملك آشور هدية. فسمع له ملك آشور»^(٧).

وبعد آحاز. ملك ابنه (حزقيا) وكان ابن خمس وعشرين سنة. وملك ٢٩ سنة^(٨). وعاصر حزقيا سقوط مملكة إسرائيل وسبي أهلها الى آشور، وكانت هذه إشارة تحمل عبرة، ولأنهم لم يسمعوا ولم يطيعوا،

-
- (١) الملوك الثاني ١٢ / ٢٠.
 - (٢) المصدر السابق ١ / ١٤.
 - (٣) أخبار الأيام الثاني ٢٥ / ١٤.
 - (٤) الملوك الثاني ١٥ / ٢.
 - (٥) المصدر السابق ١٥ / ٣٤.
 - (٦) أخبار الأيام الثاني ٢٨ / ٣ - ٤.
 - (٧) كانت هذه الأحداث قبل سقوط مملكة إسرائيل الشمالية.
 - (٨) الملوك الثاني ١٦ / ٧ - ٩.

جاء اليهم ملك آشور (سنحاريب) وإستولى على مدن يهوذا الحصينة، يقول العهد القديم: «صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها، وأرسل حزقيا ملك يهوذا الى ملك آشور.. يقول: قد أخطأت! إرجع عني! ومهما جعلت عليّ حملته! فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا. ثلاث مئة وزنة من الفضة. وثلاثين وزنة من الذهب فدفّع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك، وفي ذلك الزمان. قشر حزقيا الذهب عن أبواب هيكل الرب والدعائم التي كان قد غشاها حزقيا، ودفعه لملك آشور»^(١).

وبعد وفاة حزقيا. ملك إبنه (متى) وكان ابن اثنتي عشرة سنة. وملك ٥٥ سنة^(٢). يقول العهد القديم عنه: «عمل سوارى وسجد لكل جند السماء وعبدها، وبنى مذابح في بيت الرب... وبنى مذابح لكل جند السماء في دارى بيت الرب، وعبر بنيه في النار... وعاف وتفاءل وسحر وإستخدم جانا... ووضع تمثال الشكل الذي عمله في بيت الله»^(٣) «وسفك منى دماً بريثاً جداً. حتى ملأ أورشاليم من الجانب الى الجانب»^(٤)، وبعد موت منى ملك إبنه (آمون)، وكان ابن إثنين وعشرين سنة، وملك سنتين، وسار على طريق أبيه وعبد الأصنام التي عبدها وسجد لها، وتمرد عليه عبيده وقتلوه في بيته^(٥)، ثم ملك عوضاً عنه إبنه (يوشيا) وكان ابن ثمان سنين حين ملك، وملك ٣١ سنة^(٦)، وكان يوشيا مرتبط بمعاهدة مع ملك آشور، وفي خضم الأحداث بين

(١) أخبار الأيام الثاني ٢٩/١.

(٢) الملوك الثاني ١٨/١٣ - ١٦.

(٣) المصدر السابق ٢١/١.

(٤) أخبار الأيام الثاني ٣٣/٤ - ٧.

(٥) الملوك الثاني ٢١/١٥ - ١٦.

(٦) المصدر السابق ٢١/٢١ - ٢٤.

فرعون مصر وملك آشور، قتل فرعون مصر يوشيا^(١)، وقام بتعيين ابنه (يهواحاز) عوضاً عنه، ثم قام بعزله وأخذه أسيراً، وعين أخوه (الياقيم) عوضاً عنه ملكاً على يهوذا، بعد أن غير إسمه الى (يهوياقيم) وكان ابن خمس وعشرين سنة حين ملك. وملك ٢١ سنة^(٢). يقول العهد القديم: ودفع يهوياقيم الفضة والذهب لفرعون. إلا أنه قوم الأرض لدفع الفضة بأمر فرعون. كل واحد حسب تقويمه. وطالب الشعب بالفضة والذهب^(٣).

● ولم يدم الحال لفرعون مصر في بسط سلطانه على مملكة يهوذا، ففي أيام يهوياقيم. ظهر نجم ملك بابل (نبوخذ ناصر) يقول العهد القديم: «في أيامه صعد نبوخذ ناصر ملك بابل، فكان له يهوياقم (ملك يهوذا) عبداً ثلاث سنين»^(٤). «ولم يعد ملك مصر يخرج من أرضه، لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر الى نهر الفرات. كل ما كان لملك مصر»^(٥)، وبعد يهوياقيم الذي قيده نبوخذ ناصر بسلاسل نحاس^(٦) ملك ابنه (يهوياكين) عوضاً عنه. وكان ابن ثمان عشر سنة حين ملك، وملك ثلاثة أشهر^(٧). يقول العهد القديم: «في ذلك الزمان... جاء نبوخذ ناصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها، فخرج يهوياكين ملك يهوذا الى ملك بابل، هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه. وأخذه ملك بابل... وأخرج من هناك جميع

(١) المصدر السابق ١/٢٢.

(٢) المصدر السابق ٢٣/٢٩.

(٣) الملوك الثاني ٢٣/٢٦.

(٤) المصدر السابق ٢٣/٣٥.

(٥) المصدر السابق ١/٢٤.

(٦) المصدر السابق ٢٤/٦.

(٧) أخبار الأيام الثاني ٣٦/٧.

خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك.. وسبى كل أورشاليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبى، وجميع الصنائع والأقيان.. لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض، وسبى يهوياكين الى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه.. سباهم من أورشاليم الى بابل^(١)، وقام ملك بابل بتعيين (متينا) عوضاً عنه، وغير اسمه الى (صدقيا) وكان ابن احدى وعشرين سنة حين ملك^(٢). ثم عاد نبوخذ ناصر مرة أخرى الى أورشاليم، وأخذ (صدقيا) وقتل أولاده أمام عينيه. وقلعوا عينه. وقيدوه بسلاسل من نحاس. وجاءوا به الى بابل^(٣) وأحرقوا بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشاليم. وأعمدة النحاس التي في بيت الرب. والقواعد كسروها وحملوا نحاسها الى بابل^(٤).

٣ - [نظرات على المسيرة]

لقد إنطلقت المسيرة تحت سقف الإمتحان والابتلاء، تحيط بهم حجة موسى عليه السلام في عهد خيمة الإجتماع وحجة داوود وسليمان في عهد الهيكل، ولقد أخبر الله تعالى في كتابه أن موسى عليه السلام قد أحاطهم علماً. بأن إستخلافهم في الأرض من أنواع الإمتحان بالملك، قال تعالى: ﴿قال موسى لقومه إستعينوا بالله وإصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا. قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾^(٥) وشهد العهد القديم بأن

(١) الملوك الثاني ٨/٢٤.

(٢) المصدر السابق ١٠/٢٤ - ١٦.

(٣) المصدر السابق ١٨/٢٤.

(٤) المصدر السابق ٦/٢٥.

(٥) المصدر السابق ٩/٢٥ وما بعدها.

مسيرة الشعب لم تسير على هدى الأنبياء. ولم تفتح للفطرة الإنسانية باباً وصدت عن سبيل الله. وانطلقت بزاد ووقود مرابط العجول والتيوس التي إنتشرت عبادتها في مصر على إمتداد العصور الفرعونية، ولقد ذكر القرآن الكريم أنهم بعد خروجهم من مصر عبدوا العجل في زمن موسى عليه السلام، وتوعد الله تعالى الذين أشربوا في قلوبهم حب العجل بغضب الله والذلة في الدنيا، ومن لطفه تعالى بالمسيرة وهي في مهدها أمرهم سبحانه بأن يذبحوا بقرة. ليعلموا أن الله هو الذي يحيي ويميت، فذبحوها وما كادوا يفعلون، وظل فقه كهنة البقر يدفع مسيرة الانحراف حتى صارت عبادة البقر والتيوس عبادة رسمية. الخارج عنها خارج عن الشرعية في مملكة اسرائيل ومملكة يهوذا، وتحت هذا الفقه جرى القتال على الملك. وذكر العهد القديم: أن ملك اسرائيل قتل من يهوذا مائة وعشرين ألفاً في يوم واحد، وسبى بسوا اسرائيل من أخوتهم مئتي ألف من نساء وبنين وبنات، ونهبوا أيضاً من غنيمة وافرة وأتوا بالغنيمة الى السامرة^(١). وذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق بأن لا يفعلوا ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ. وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَسَارِي تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ.﴾^(٢).

وذكر العهد القديم أن فقه كهنة البعل والقتال على الملك. أنتج في نهاية المطاف أنماطاً بشرية لا يمكن بحال أن تقود مسيرة في إتجاه الفطرة، وفي هذا يقول أشعيا «الآن أيديكم تنجست بالدم، وأصابعكم

(١) سورة الأعراف آية ١٢٩.

(٢) أخبار الأيام الثاني ٢٨/٦ - ٩.

بالإثم، وشفاهكم تكلمت بالكذب، ولسانكم يلهج بالشر، ليس من يدعو بالعدل وليس من يحاكم بالحق»^(١) وقال «رؤساؤك متمرّدون ولقضاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لا يقضون لليتيم. ودعوى الأرملة لا تصل اليهم»^(٢) وقال «تكلمنا بالظلم والمعصية، حبّلنا ولهجنا من القلب بكلام الكذب، وقد إرتد الحق الى الوراء والعدل يقف بعيداً. لأن الصدق سقط في الشارع والإستقامة لا تستطيع الدخول»^(٣) وقال «قد حبّلوا بتعب وولدوا أثماً، فقسوا بيض أفعى ونسجوا خيوط العنكبوت الأكل من بيضهم يموت. والتي تكسر تخرج أفعى، خيوطهم لا تصير ثوباً، ولا يكتسبون بأعمالهم، أعمالهم أعمال إثم، وفعل الظلم في أيديهم، أرجلهم الى الشر تجري وتسرع الى سفك الدم الزكي، أفكارهم أفكار إثم، في طرقهم إغتصاب وسحق وطريق السلام لم يعرفوه، وليس في مسالكهم عدل، جعلوا لأنفسهم سبلاً معوجة وكل من يسير فيها لا يعرف سلاماً»^(٤).

● لقد قال أشعيا أن رؤساء الشعب فيهم لصوص يحبون الرشوة ويتبعون العطايا. وقال تعالى في كتابه ﴿إِنْ كَثِيراً مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾^(٥) وقال أشعيا أن الشعب تكلم بالظلم والمعصية والكذب. وبأن أيديهم تنجست بالدماء وأصابهم بالإثم. وقال الله تعالى في كتابه: ﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٦) وقال أشعيا أن بيضهم بيض أفعى الأكل منه يموت والتي

(١) سورة البقرة آية ٨٤.

(٢) أشعيا ٥٩/٣ - ٤.

(٣) المصدر السابق ٢٢/١.

(٤) المصدر السابق ١٤/٥٩.

(٥) المصدر السابق ٥٩/٥ - ٨.

(٦) سورة التوبة آية ٣٤.

تكسر تخرج أفعى. وقال تعالى في كتابه: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾^(١) وقال أشعيا إن أرجلهم الى الشر تجري وتسرع الى سفك الدم الزكي. وقال تعالى في كتابه: ﴿ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾^(٢) وقال أشعيا أن في طرقهم إغتصاب وسحق وطريق السلام لم يعرفوه. وقال تعالى في كتابه: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾^(٣) وقال أشعيا انهم جعلوا لأنفسهم سبلاً معوجة وكل من يسير فيها لا يعرف سلاماً. وذكر تعالى في كتابه حركة الذين كفروا من أهل الكتاب. فقال: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾^(٤) وقال ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾^(٥) وقال ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾^(٦) الى آخر هذه الآيات التي تكشف مناهج سبلهم في الصد عن سبيل الله.

● فالمسيرة لم تنتج هدى وإنما ظلاماً. ولم تنتج خبزاً وإنما دماً. لهذا قال أشعيا «نلتمس الحائط كعمي. وكالذي بلا أعين نتجسس. قد عثرنا في الظهر كما في العتمة»^(٧) وقال «كيف صارت القرية الآمنة زانية.. كان العدل يبيت فيها. وأما الآن فالقاتلون»^(٨) لهذا وقعوا تحت العقاب الإلهي، بما قدمت أيديهم. قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا

(١) سورة المائدة آية ٦٢.

(٢) سورة المائدة آية ٨٢.

(٣) سورة المائدة آية ٦٤.

(٤) سورة آل عمران آية ١٨٦.

(٥) سورة البقرة آية ١٠٥.

(٦) سورة البقرة آية ١٠٩.

(٧) سورة آل عمران آية ٦٩.

(٨) أشعيا ٢١/١.

وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً، إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً^(١) فالعقاب كان نتيجة لمقدمة. سلكوا فيها سبل الضلال بعد أن بين لهم الأنبياء والرسل والهدف الذي من أجله خلقهم الله. وبينوا الإمكانيات الإنسانية والإمكانيات التي في الكون التي تسمح لتحقيق هذا الهدف، ودعم الأنبياء والرسل أقوالهم بالحجة والمعجزة ليكون لكلامهم مشروعية القبول من أقوامهم ومن العصر، ثم بينوا لهم أصلح وأنضج العناصر التي ينبغي أن تكون في ذروة المسيرة لقيادة الناس نحو الهدف، ولكن المسيرة الإسرائيلية ضلت الطريق. لأن سلوكها كان إستجابة لحاجة معينة صرخت بها بعض الغرائز التي تصنمت أمام لافتات التزيين والإغواء والإلقاءات الشيطانية، وتحت إلحاح هذه الحاجة نظمت المسيرة عمليات الدوافع والإنفعالات والإدراك والمعرفة، فكان تغيير الإتجاه من النور الى الظلام، وتغيير الإتجاه يبدأ حين يبدأ إما بالإنقلاب على معالم إتجاه النور وإما بإضافة معلومات تحط من شأنه وتجعل الناس ينفضون من حوله، ولقد ترتب على تغيير الإتجاه الفطري أن المسيرة لم تنتج إلا ظلاماً ودماءً كما ذكر أشعيا، ولهذا ضربها عذاب الذلة والمسكنة والإستدراج لتركيب طريق جهنم كما ذكر القرآن، ويخطيء من يظن أن المسيرة من بعد الأنبياء قد قدمت زاداً فطرياً، أو قاتلت وفقاً لتعاليم الأنبياء، ولقد تبينا من خلال سردنا لحركة المملكتين إسرائيل ويهوذا أن القتال لم يكن إلا على الملك، وأن ما تاجر به الخلف فيما بعد بأن القتال كان من أجل أرض الميعاد أو لإقامة مملكة داوود، أو للمحافظة على نقاء الدم اليهودي. فكل هذا وغيره. لا وجود له إلا على موائد التبرير والترقيع والتماس

(١) المصدر السابق ٥٩/١٠.

الأعداء وتغليب الأهواء .

فالمسيرة خرجت على تعاليم داوود ومزقت دولة سليمان، وقدمت كنوز الهيكل اما هدية وإما جزية للحفاظ على الملك، وأقامت داخل الهيكل أصنام الأمم. وفي نهاية المطاف أغلقوه، يقول العهد القديم «وجمع أحاز آنية بيت الله، وقطع آنية بيت الله، وأغلق أبواب بيت الله، وعمل لنفسه مذابح في كل زاوية في أورشاليم وفي كل مدينة من يهوذا. وعمل مرتفعات للإيقاد للآلهة الأخرى»^(١).

● وبتدبر انطلاقة المسيرة تحت سقف الإمتحان والابتلاء، وبالوقوف أمام انحرافهم في إتجاه العجول، وما ترتب عليه من دق أوتاد الضلال في طريق التقدم البشري لتتعرش القافلة في طريق الاختيار، نجد أن الشباك التي صنعها الذين كفروا من بني اسرائيل ليوقع فيها الناس، قد وقع فيها الذين كفروا وهم لا يشعرون قبل أن يقع الناس، فالقوم صنعوا الفتن أولاً فقادتهم الفتن الى فتنة الدجال، والطريق الى الدجال لا يحمل إلا معالم الذلة والمسكنة وغضب الله، فتحت هذا السقف يسير الذين صنعوا الفتن وصدوا عن سبيل الله. بعد أن ضلوا ضلالاً بعيداً وكفروا وظلموا، لأن الله تعالى أوجب على نفسه أن لا يهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها.

وطريق الذلة والمسكنة له معالم في العهد القديم وبيّنة القرآن الكريم، وما كانت آشور وبابل أول الزمان إلا بداية لهذا الطريق، بعد أن تعمقت المسيرة في الضلال ولم يكن تقدمها إلا الى الخلف، يقول العهد القديم بعد سقوط مملكة اسرائيل في يد آشور «لم يبق إلا سبط يهوذا وحده. ويهوذا أيضاً لم يحفظوا وصايا الرب الههم. بل سلكوا في فرائض اسرائيل التي عملوها. فرذل الله كل نسل اسرائيل

(١) سورة النساء ١٦٧ - ١٦٨ .

وأذلهم^(١) فالمسيرة تحت سقف الذلة، وبداية هذا السقف تبدأ من عند الذين عبدوا العجل أيام موسى وهارون عليهما السلام، وقال فيهم تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾^(٢). فالجزاء يقف تحت سقفه الذين اتخذوا العجل عند المقدمة، ثم المفتريين الذين ساروا على طريقهم، ويقف تحته قتلة الأنبياء. وقال تعالى في الذين كفروا من بني إسرائيل ﴿وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(٣).

قال في الميزان: الذلة مضروبة عليهم كضرب السكة على الفلز، أو كضرب الخيمة على الإنسان، فهم مكتوب عليهم أو مسلط عليهم الذلة، قال تعالى في آية أخرى ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ أَيْنَ مَا ثَقَفُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ﴾^(٤) وقد كرر الله تعالى لفظ الحبل بالإضافة إلى الله وإلى الناس لاختلاف المعنى بالإضافة، فإنه من الله القضاء والحكم تكويناً أو تشريعاً، ومن الناس البناء والعمل. والمراد بضرب الذلة عليهم القضاء التشريعي بذلتهم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثَقَفُوا﴾. وظاهر المعنى: أينما وجدتهم الناس تسلطوا عليهم، والذلة التشريعية من آثارها الجزية إذا تسلط عليهم المؤمنون، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ﴾ بآؤا: أي اتخذوا مبة ومكاناً والمسكنة: أشد الفقر. والظاهر أن المسكنة: أن لا يجد الإنسان سبيلاً

(١) أخبار الأيام الثاني ٢٨/٦ - ٩.

(٢) الملوك الثاني ١٧/١٩.

(٣) سورة الأعراف آية ١٥٢.

(٤) سورة البقرة آية ٦١.

الى النجاة والخلص مما يهدده من فقر وغيره^(١). ومن معالم الذلة بعث البعوث عليهم ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَوْمِهِمْ سُوءَ الْعَذَابِ. إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢). قال في الميزان: والمعنى: ليعثن على هؤلاء الظالمين بعثاً يدوم عليهم ما دامت الدنيا من يذيقهم ويوليهم سوء العذاب، وهو تعالى غفور رحيم بعباده، لكنه إذا قضى لبعض عباده بالعقاب لاستيجابهم ذلك بطغيان وعتو ونحو ذلك، فسرعان ما يتبعهم إذ لا مانع يمنع عنه ولا عائق يعوقه^(٣). وآشور وبابل أول الزمان صورة تحمل معالم هذا العقاب وهذا الغضب.

● لقد وقعوا تحت العقاب نتيجة لمقدمات قدموها وسار عليها الذين من خلفهم، وهذا العقاب له محطة في آخر الزمان يرفع أعلامها المسيح الدجال. وهو الفتنة الكبرى التي من أجلها صنعت جميع الفتن صغيرة أو كبيرة منذ كانت الدنيا، فالذين سقطوا أول الزمان يحمل بصماتهم الذين سيسقطون آخر الزمان، والله تعالى أعز وأمنع من أنه يظلم أو أن ينسب الى نفسه الظلم.

(١) سورة آل عمران آية ١١٢.

(٢) الميزان ٣/٣٨٤.

(٣) سورة الأعراف آية ١٦٧.

ثالثاً [فتن البحث عن هوية]

مما لا شك فيه أن وجود الفرد في بيئة معينة وإتصاله المستمر بالعالم الخارجي يجعله يكتسب خبرات جديدة تعدل من إستعداداته وميوله الفطرية، فالعالم الخارجي له أثراً بالغاً على تنظيم الإنفعال الذي يمد الفرد بالطاقة العصبية اللازمة. للتعبير عن الغريزة حتى تتجمع حول شخص معين أو حول شيء معين، والمسيرة الاسرائيلية لم تنقطع يوماً عن العالم الخارجي. ولهذا إكتسبت مجموعة من الخصائص الإنفعالية المميزة للفرد، أو بعبارة أخرى مجموعة الصفات التي يتسم بها سلوك الفرد وإنفعالاته ودوافعه، وعلى إمتداد المسيرة وفي كل مرة يحدث الإتصال بالعالم الخارجي. تتأثر مجموعة من الغرائز والإنفعالات المختلفة. فإن كانت في مجموعها تلتقي مع الأهواء أدت الى عاطفة حب. وإن كانت في مجموعها مؤلمة أدت الى عاطفة كره.

والدين الإلهي لم يترك الإنسان للعالم الذي من حوله، وإنما قدم البناء اللازم الذي تتكامل به الشخصية وتتألف عناصرها بحيث تتجه إتجهاً موحداً نحو غرض معين، ولكن المسيرة الاسرائيلية إختلفت عناصر شخصيتها عندما إبتعدت عن خط الأنبياء، مما أدى الى حدوث الإنقسامات المختلفة بين العناصر وتعارضت إتجاهاتها، فكان من نتيجة

ذلك ضعف الشخصية أمام الزينة والزخرف في العالم الخارجي، فراحت تأكل من ثماره وتجتز ذكرياتها على سبيله، وأنتج زاد الثمار والذكريات العقد النفسية التي هي في مجملها إستعداد وجداني مكتسب دائم. يؤثر في سلوك المرء وشعوره ويفرغ عليهما طابعاً خاصاً، ومما لا شك فيه أن العقدة النفسية قد تنشأ من صدمة إنفعالية عنيفة، أو قد تنشأ من صراع نفسي غير محسوم، أو قد تنشأ من تربية غير رشيدة، هذا كله له معالم على إمتداد المسيرة الاسرائيلية التي أرغمتها العقد النفسية في نهاية المطاف على الخوف. حتى ولو لم يكن هناك داعياً الى الخوف، وهذا كله نتيجة حقيقية. لمقدمة حقيقية. غيروا فيها إتجاههم الفطري. وأصبحوا عالة على حركة وإنتاج الأمم من حولهم.

● والباحث في المسيرة الاسرائيلية يجد أن المسيرة قد تأثرت بعقائد العالم الخارجي، ومن ثياب هذه العقائد إتخذت المسيرة ثوباً واحداً أضافت اليه معالم سماوية باهتة، تتفق مع أهوائهم وتنسجم مع العقد النفسية التي أفرزتها الأحداث على إمتداد المسيرة، وفي نهاية المطاف رشحت ثقافات هذه العقائد على المدنية المعاصرة وهددت الإنسانية بالإنهدام. ومهدت الطريق الى المسيح الدجال. وفي إفرازات المسيرة الاسرائيلية يقول صاحب تفسير الميزان: إذا تأملت قصص بني اسرائيل المذكورة في القرآن، وأمعت فيها. وما فيها من أسرار أخلاقهم وجدت أنهم كانوا قوماً غائرين في المادة مكبين على ما يعطيه الحس من لذائذ الحياة الصورية، فقد كانت هذه الأمة لا تؤمن بما وراء الحس ولا تنقاد إلا الى اللذة والكمال المادي، وهم اليوم كذلك، وهذا الشأن هو الذي صبر عقولهم وإرادتهم تحت إنقياد الحس والمادة. لا يعقلون إلا ما يجوزانه، ولا يريدون إلا ما يرخصان لهم ذلك، فإنقياد الحس يوجب لهم أن لا يقبلوا قولاً إلا إذا دل عليه الحس، وإنقياد المادة إقتضى فيهم أن يقبلوا كل ما يريده أو يستحسنه لهم كبرائهم من جمال

المادة وزخرف الحياة، فأنج ذلك فيهم التناقض قولاً وفعلاً، فهم يذمون كل إتباع بإسم أنه تقليد وإن كان مما ينبغي إذا كان بعيداً من حسهم، ويمدحون كل إتباع بإسم أنه حظ الحياة وإن كان مما لا ينبغي إذا كان ملائماً لهوساتهم المادية، وقد ساعدتهم على ذلك وأعانهم عليه مكثهم الممتد وقطونهم الطويل بمصر تحت إستدلال المصريين، واسترقاقهم وتعذيبهم، وبالجمله: فكانوا لذلك صعبة الإنقياد لما يأمرهم به أنبيائهم والربانيون من علمائهم مما فيه صلاح معاشهم ومعادهم، وسريعة اللحق الى ما يدعوهم المغرضون والمستكبرون منهم، وقد أبتليت الحقيقة والحق اليوم بمثل هذه البلية بالمدينة المادية، فهي مبنية القاعدة على الحس والمادة. فلا يقبل دليل فيما بعد عن الحس، ولا يسأل عن دليل فيما تضمن لذة مادية حسية، فأوجب ذلك إبطال الغريزة الإنسانية في أحكامها، وإرتحال المعارف العالية والأخلاق الفاضلة من بيننا. فصار يهدد الإنسانية بالإنهدام، وجامعة البشر بأشد الفساد وليعلمن نبأه بعد حين^(١).

● فالمسيرة إكتسبت من العالم الوثني الشيء الكثير، وكان لهذا أثراً بالغاً على سلوك الفرد وإنفعالاته ودوافعه، ودفعت المسيرة في صراع نفسي غير محسوم أدى الى تناقض حركتها قولاً وفعلاً، وهذا الإهتزاز النفسي رشح فيما بعد على الجامعة البشرية وهددها بالفساد، وليبان المكتسبات الاسرائيلية من الأمم الوثنية الإستكبارية، نلقي بعض الضوء على أهم المحطات التي تزودت منها المسيرة الإسرائيلية.

١ - [فتنة العجل]

لا شك أن أبرز ظاهرة في خصائص الديانة المصرية القديمة هي

(١) الميزان ٢٩٦/٨.

كثرة الآلهة، ولو ذرنا المنطقة من منف إلى أسوان وبحثنا في كل مركز من مراكز العبادة، لوجدنا كائنات إلهية تتخذ صور الأبقار والتماسيح والكباش والكلاب الوحشية واللبؤات والعجول، وكثيراً من المخلوقات الأخرى ويطلق عليها عادة أسماء شتى في مختلف المدن، ورغم أن الآلهة تبعاً لبلادها كانت تختلف في الشكل وفي الاسم. إلا أنه توجد عدة دلائل على أن المعتقدات الدينية كانت موحدة في أذهان المصريين أكثر مما نظن من واقع إختلاف أشكال الآلهة وأسمائهم^(١) ويجل جميع قدماء المصريين البقرة لأنها معطية اللبن ولأنها الأم السماوية للشمس كما يعتقدون، وأطلقوا على البقرة إسم (صخور) وكثيراً ما كانوا يبنون لها المعابد ويكرسون لها قطعاناً كاملة من أخواتها، وكذلك للآلهة التي تتخذ صورة الثور (مثل: مونتو، ومين، وآمون) وللشيران التي تتجسد فيها الآلهة (مثل: منفيس، أبيس، هليوبوليس)^(٢).

والعجل أبيس له بصمات واضحة على العقيدة المصرية القديمة، فهو رمز الإخصاب. وإعتقد المصريون أن العجل أبيس إقترن بإله منف (بتاح) وإندمج في (أوزيريس) فتكون منهما إله جنائزي. ومنذ ذلك الوقت إتخذ موت العجل أبيس أهمية بالغة، فيدفن بجنائزة رسمية وسط جمع من الكهنة وغيرهم الذين كانوا يحضرون له الهدايا من كافة أرجاء المملكة، وكانوا يعتقدون أن أبيس عندما يموت يعود فيولد من جديد، ولهذا كان الكهنة يبحثون عنه بمجرد أن يموت، ويتوجهون الى الحقول ويفحصون القطعان للعثور على ذلك الإله الذي يمكن التعرف عليه بعلامات خاصة فوق جلده، وعندما يعثرون عليه يحل الفرع محل الحزن ويتوج العجل الإلهي في الحظيرة المقدسة بمنف. حيث يعيش

(١) الميزان ١/٢١٠.

(٢) معجم الحضارة المصرية القديمة ص ٣٢.

مع أمه يحيط به حريم الأبقار^(١).

● فالبقرة ترمز الى الإخصاب. وعقيدتها تقول أنها في (أبيس) بمجرد أن تموت تبعث من جديد. وهي في (صخور) حاكمة السماء وجسمها الحقيقي، والروح الحية للأشجار، ومربية ملك مصر، وأم حورس، وربة الذهب، وشخصية متعددة الألوان بوسعها أن تأخذ صورة لبؤة، وهي ربة للسعادة والرقص والموسيقى^(٢).

فمن هذه العقائد شربت قلوب الذين كفروا من بني إسرائيل حب العجول. وقبل أن تجف أقدامهم من عبور البحر مع موسى عليه السلام إتخذوا العجل إلهاً. قال تعالى: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم إتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون. وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾^(٣).

وعلى عقيدة بعث العجل بمجرد أن يموت، إنطلقوا في آشور وفي بابل تحت سقف السبي، يبحثون عن هوية جديدة تبعث عليها دولتهم، لتضاهي (حخور) حاكمة السماء وجسمها الحقيقي. وتكون كالروح الحية للأشجار كما تقول عقيدة الأبقار، وتحت سقف البحث عن هوية. كانت يد الله تعمل في الخفاء وهم لا يشعرون، قال تعالى: ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترسين﴾^(٤) وذلك لأن نظام العالم هو نظام الأسباب والمسببات، والمسيرة لم تأخذ بأسباب التوبة والرجوع الى الله، وإنما

(١) المصدر السابق ص ٣.

(٢) المصدر السابق ص ٩٦.

(٣) سورة البقرة آية ٩٢.

(٤) سورة الأعراف آية ١٥٢.

أخذت بأسباب لا تحقق النجاة ولا تهدي طريقاً إلا طريق الفتنة التي تقود أتباعها الى جهنم .

٢ - [فتنة الدماء النقية]

لا شك في أن الشيطان صد عن العبادة الحق التي تصل الإنسان بربه . وتحقق له السعادة في الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي ، وبرنامج الشيطان الذي صد به عن العبادة . هو نفس البرنامج الذي شوه به رموز هذه العبادة لينفق الناس من حولهم ، فالله تعالى إصطفى من خلقه آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران وآل محمد . كما أخبر القرآن والسنة . فهؤلاء من دون الناس الذين أخلصهم الله تعالى لعبادته ، وباختصار : اصطفى الله الأنبياء والرسل وإختار سبحانه من عباده من يقوم ببيان شريعته للناس . فهؤلاء أصحاب الدماء النقية ، بمعنى أن الشيطان ليس له فيهم نصيب ، والشيطان صد عن هذا السبيل بإلقاءاته . ومن معالم هذه الإلقاءات ظهور ثقافة تبناها الجبابرة والطواغيت على إمتداد المسيرة البشرية . والعمود الفقري لهذه الثقافة . أن في عروق هؤلاء وأسرههم تجري دماء الآلهة ، ووفقاً لهذا الاعتقاد الذي فرضوه على شعوبهم . حكموا بالحديد وبالنار ، وظل الحكم في هذه الأسر قروناً طويلة نتيجة لهذا الاعتقاد ، وما أن تسقط أسرة حتى تقوم مكانها أسرة جديدة . تنطلق من هذا المستنقع الذي أبتليت به المسيرة البشرية .

وعلى هذا الاعتقاد كان الفراعنة وملوك آشور وملوك بابل والإغريق والبطالمة ، وجميع هؤلاء إحتكت بهم المسيرة الاسرائيلية . وتأثرت ببرامجهم المادية والحسية ، ولقد رشحت ثقافة تزكية الفرد والأسرة والقبيلة التي تحتويها هذه البرامج على المسيرة البشرية فيما بعد ، ورد عليها القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين يزكون

أنفسهم. بل الله يزكي من يشاء ولا تظلمون قليلاً. أنظر كيف يفترون على الكذب وكفى به إثماً مبيناً^(١) وقال جل شأنه ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن إتقى﴾^(٢).

● وفي آشور وبابل لم يضع بني إسرائيل أعمدة الأسرة المختارة وإنما وضعوا أعمدة الشعب المختار الذي يدخر له الغيب أميراً مختاراً يمتلكون به الأرض، وكانت الأرضية التي وضعوا عليها هذه الأعمدة قولهم: سيغفر لنا، ولكي يتفق هذا المدخل مع ما ارتكبه من جرائم، نسبوا إلى الأنبياء ما لا يتفق مع عصمتهم ومكانتهم، بمعنى أن الخطأ إذا وقع فيه الأنبياء. فإن من دونهم يلتمس له الأعذار، وبعد أن أدخلوا أنفسهم في دائرة المغفرة، أدخلوا أنفسهم في دوائر التبشير التي أخبر بها الأنبياء عن ربهم، بمعنى إذا كان في بطن الغيب أمه إختارها الله لقيادة البشرية إدعوا أن الأمة أمتهم، وأن الأوصاف التي بينها الأنبياء تنطبق عليهم في بطن الغيب لكونهم شعب الله المختار. الذين ينفردون عن الناس ولهم افضليتهم على جميع المخلوقات في نظر الخالق، وبهذا وبغيره جعلوا الكتاب المقدس ينطق. بعد أن حرفوا النصوص وتأولوها. وبعد ان وضعوها في غير مواضعها.

● وفولهم سيغفر لنا. أشار إليه قوله تعالى: ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك. وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون. فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق.﴾^(٣) قال ابن

(١) سورة النساء آية ٤٩.

(٢) سورة النجم آية ٣٢.

(٣) سورة الأعراف آية ١٦٨.

كثير: يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض طوائف وفرقاً، فيهم الصالح وغير ذلك، وإختبرهم بالرخاء والشدة والرغبة والرغبة والعافية والبلاء لعلهم يرجعون، فخلف من بعدهم خلف لا خير فيهم وقد ورثوا دراسة التوراة، لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً ويقولون سيغفر لنا^(١).

وقال في الميزان: قولهم «سيغفر لنا» قول جزافي لهم قالوه، ولا معول لهم فيه إلا الإغترار بشعبهم الذي سموه شعب الله. كما سمو أنفسهم أبناء الله وأحباءه، ولم يقولوا ذلك لوعده النفس بالتوبة، ولا أنهم قالوا ذلك رجاء للمغفرة الإلهية، فليس ما تظاهروا به رجاء صادقاً بل أمنية نفسانية كاذبة، وتسويل شيطاني موبق، فمن كان يرجو لقاء ربه، فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً^(٢).

ومن باب قولهم سيغفر لنا فتحو أبواباً قالوا عندها يوماً: نحن أولياء الله من دون الناس، ويوماً: نحن أبناء الله وأحبائه، ووضعوا هذه الأقوال داخل عقيدة تقول خطوطها العريضة: ليس علينا في الأميين سبيل، ومن هذا النسيج قاموا ببناء نظرية تفوقهم على البشر وإنفراديتهم عن الناس وأفضليتهم على جميع المخلوقات في نظر الخالق، وإنطلقوا وراء الأخبار يرددون القول بأنهم أمة فريدة تقف من الأمم موقف المختار الذي يتمتع بحقوق ليس لغيره، ولأنهم أمة فريدة فإن أمتهم عندما تموت تبعث من جديد، لأنها كالروح الحية للأشجار، وكالأم السماوية معطية اللبن لجميع المواليد ليؤمنوا بالعهد الألفي السعيد.

ومن التردد وراء الأخبار انطلقوا إلى دائرة العمل، وخطوطها العريضة تقول: إن داوود إختاره الإله وعينه ملكاً، ومملكة داوود هي

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٦٠.

(٢) الميزان ٨/٢٩٨.

عنوان ودعاء عهد الإله لإبراهيم، وأورشاليم إختارها الله عاصمة لهذا الملك، وعلى الجميع أن يخضعوا لهذه المملكة ولعاصمتها، لأن التعبد لله لا ينفصل عن الدولة وعاصمتها، وإذا كانت الدولة قد إندثرت على أيدي الغزاة، فإنها عندما إندثرت من على الأرض ولدت من جديد داخل صدور بني إسرائيل، وعليهم أن يعملوا لبسط نفوذ الدولة وفقاً لنظرية تفوقهم على البشر وإنفراديتهم عن الناس، حتى يأتي ابن داوود أمير السلام آخر الزمان. فهو وحده المسيح الذي سيعيد المجد لإسرائيل على أرض الواقع، وعلى الجميع أن يخضع من اليوم لمملكته الأزلية ولعاصمتها أورشاليم.

● وهكذا جعلوا الكرامة الإلهية سهلة التناول، وزعموا أن هذه الكرامة وضعت على عاتق العنصر العبري. أكرمهم الله بها إكراماً مطلقاً من غير شرط ولا قيد؛ ولما كانت هذه الكرامة والسؤدد أمر جنسي خص بني إسرائيل، جعلوا الإنتساب الإسرائيلي مادة الشرف وعنصر السؤدد. والمنتسب الى إسرائيل له التقدم المطلق على غيره، لأن هذه الروح الباغية إذا دبت في قالب قوم. بعثتهم الى إفساد الأرض وإماتة روح الإنسانية وآثارها الحاكمة في الجامعة البشرية، بينت الرسالة الخاتمة على نبيها الصلاة والسلام. أن الكرامة الإلهية ليست بذاك المبتذل السهل التناول. يحسبها كل محتال أو مختال كرامة جنسية أو قومية. بل يشترط في نيلها الوفاء بعهد الله وميثاقه والتقوى في الدين، فإذا تمت الشرائط حصلت الكرامة. وهي المحبة والولاية الإلهية التي لا تعدوا عباده المتقين، وأثرها النصر الإلهية والحياة السعيدة التي تعمّر الدنيا وتصلح بال أهلها وترفع درجات الآخرة، وبالجملّة: إن الله تعالى لا يصطفي أحداً بالإستخلاف إصطفاءً جزافاً. ولا يكرم أحداً إكراماً مطلقاً من غير شرط ولا قيد، والإستخلاف تحت سقف الإمتحان والإبتلاء يخضع لسنة الله الحاكمة. ومنها النقل والإقالة، ولا يخص الله

بحسن العاقبة إلا من يتقيه من عباده أينما وجدوا. ولقد رد القرآن الكريم على بني إسرائيل ومن حذى حذوهم من النصارى قولهم بأفضليتهم على البشر، فقال تعالى: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه. قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾^(١). ورد على بني إسرائيل قولهم بأنهم مغفور لهم. وأن مسيرتهم نحو أهدافهم مسيرة يتعبدون فيها لله، فقال جل شأنه ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين. ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة. وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾^(٢).

والخلاصة: لقد أخذت المسيرة الإسرائيلية بسنن الأولين، فأخذوا من عقائد البقر وعقائد الدماء النقية الأعمدة التي أقاموا عليها ديمومة الكرامة والحكم، والكتاب المقدس ينفي في أكثر من موضع مقولتهم بالدماء النقية. ويسجل أنهم سكنوا بين الأمم الوثنية واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنينهم. وعبدوا آلهتهم^(٣) وقال نحميا في سفره «رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموآبيات، ونصف كلام بينهم باللسان الأشدودي، ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي، بل بلسان شعب وشعب»^(٤) فكيف يكون نقاء الدم تحت سقف هذه الأصول وغيرها:؟.

(١) سورة المائدة آية ١٨.

(٢) سورة البقرة آية ٩٤.

(٣) القضاء ٥/٣ - ٧.

(٤) نحميا ١٣/٢٢ - ٢٥.

٣ - [فتنة التأويل والتحريف]

لا شك في أن تحريف الأصول السماوية عمود أساسي يقوم عليه فساد الدين الفطري، وهذا الفساد يهدد الإنسانية بالإنهدام، لأن الفرد الذي يفسد دينه الفطري لا تتعادل قواه الحسية الداخلية. فيتبع القوى الخارجية التي تنسجم مع هواه وبيئاته لها يقوى جانبها في الصد عن سبيل الله، وتحريف المسيرة الاسرائيلية للكتاب ونسيانهم حظاً من الدين وكذبهم على الله بواسطة القصص التي قصوها على الشعب، كل ذلك لا شك فيه وإعترف به العهد القديم وعلماء الكتاب المقدس وأخبر به القرآن الكريم.

والتحريف كان لهدف. وهدفه ما إستقر عليه القوم فيما يتعلق بشعب الله المختار، ففي إتجاه هذا الهدف أولوا ما ورد في النبي الخاتم ﷺ من بشارات. ومن قبل أولوا ما ورد في المسيح ابن مريم عليه السلام. وقالوا: إن المسيح الموعود لم يجيء بعد وهم ينتظرون قدومه الى اليوم، ليحكموا به الشعوب ويعود به ملك داود عنوان ووعاء عهد الله لإبراهيم، ونظراً لأن الجرائم والآثام تحيط بالمسيرة الاسرائيلية. فإن التحريف رفع عن المسيرة هذا الحرج فنسبوا الى الأنبياء ما لا يجوز في حقهم، فالأنبياء عندهم أول من سن عبادة العجول وأول من سن إقامة التماثيل وعبادة آلهة الأمم!! وعلى هذه القاعدة فيما أنه لا يمكن أن تخرج نبياً من الأنبياء من تحت سقف الأنبياء. لإرتكابه معصية بهذا الحجم. فكذلك لا يمكن أن تخرج الشعب من تحت سقف شعب الله المختار. لإتباعه ما سنه الأنبياء ولإرتكابه الجرائم والمعاصي، وبالجمله: كان التحريف من أجل رفع حرج وقعت فيه المسيرة على إمتداد تاريخها، وكان من أجل هدف التقطته المسيرة من ديار العالم الخارجي. ثم أضفت عليه بعض المعالم

السماوية الباهتة ليكون له مشروعية القبول .

وشهادة العهد القديم في نسيان بني اسرائيل حظاً مما ذكروا به ، جاء على لسان أرميا . قال : «أما وحي الرب فلا تذكره بعد . لأن كلمة كل إنسان وحيه إذ قد حرفتم كلام الإله الحي»^(١) . وقال في تحريفهم وكذبهم على الله : «كيف تقولون نحن حكماء وشريرة الرب معنا حقاً إنه الى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب»^(٢) . وقال في ثقافة القص التي كذبوا على الله ليكون للشذوذ قاعدة : «الذين يأخذون لسانهم ويقولون قال - ها أنذا على الذين يتنبأون بأحلام كاذبة ، يقول الرب : الذين يقصونها ويضلون شعبي بأكاذيبهم ومفاخراتهم . وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم . فلم يفيدوا هذا الشعب فائدة»^(٣) .

أما شهادة علماء الكتاب المقدس . ومنهم المفسر (هارسلي) يقول : لا شك في تحريف الكتاب المقدس . في متنه وأصله . يدلنا على ذلك إختلاف النسخ حيث الإختلاف آية الإختلاق . فقد أدخلت كلمات وقحة في المتون المطبوعة مما لا يناسب ساحة الوحي^(٤) . ويقول الدكتور (همفري) : إن تدخل الأوهام في العهد العتيق بيّن لحد يتضح للقارئ بأدنى تأمل . إنهم قضوا على البشارات المسيحية في العهد القديم^(٥) . ويقول (كريزاستم) : لقد إنمحق الكثير من كتب الأنبياء . حيث حرفتها اليهود على غفلة وعلى عمد . فمزقوا البعض منها .

(١) أرميا ٢٣/٣٦ .

(٢) المصدر السابق ٨/٨ .

(٣) المصدر السابق ٢٣/٣١ .

(٤) تفسيره في مقدمة كتاب يوشع ٣/٢٨٢ نقلاً من كتاب المقارنات / د . الصادقي ص ٨٩ .

(٥) كتاب همفري ص ١٧ ، ١٨ ، ط سنة ١٨٤١ نقلاً من كتاب المقارنات ص ٩٠ .

وحرّفوا ما تبقى^(١).

● أما شهادة القرآن الكريم بأن أهل الكتاب حرفوا أو نسوا حظاً مما ذكروا به . فلقد جاءت في أكثر من آية . منها قوله تعالى : ﴿من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾^(٢) . ففي هذه الآية وصف تعالى هذه الطائفة بتحريف الكلم عن مواضعه . وذلك إما بتغيير مواضع الألفاظ بالتقديم والتأخير والإسقاط والزيادة . وإما بتفسير ما ورد عن موسى عليه السلام وعن سائر الأنبياء بغير ما قصد منه من المعنى الحق ، وقوله تعالى : ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾^(٣) قال في الميزان : إن أهل الكتاب إنما إبتلوا بما أبتلوا له لنسيانهم ميثاق الله سبحانه ، ولم يكن إلا ميثاقاً بالإسلام لله ، وكان لازم ذلك أن يتقوا مخالفة ربهم ويتخذوه وكيلاً في أمور دينهم يختارون ما يختاره لهم ، ويتركون متابعة غير الله ورسله ، لكنهم نبذوا الميثاق وراء ظهورهم فأبعدوا من رحمة الله ، وحرّفوا الكلم عن مواضعه وفسروها بغير ما أريد بها ، فأوجب ذلك أن نسوا حظاً من الدين ولم يكن إلا حظاً وسهماً يرتحل بإرتحاله عنهم كل خير وسعادة ، وأفسد ذلك ما بقي بأيديهم من الدين ، فإن الدين مجموع من معارف وأحكام مرتبط بعضها ببعض يفسد بعضه بفساد بعض آخر ، سيما الأركان والأصول^(٤).

● وإفسادهم للدين الفطري يتضح للقارىء بمجرد أن يتأمل عقيدتهم في الله ورسله عليهم السلام ، فالتحريف جعل التوراة تشتمل

(١) تفسيره التاسع على إنجيل متى نقلاً من كتاب المقارنات ص ٩١ .

(٢) سورة النساء آية ٤٦ .

(٣) سورة المائدة آية ١٣ .

(٤) الميزان ٢٣٩ / ٥ .

على أمور في التوحيد لا يصح إسنادها الى الله تعالى . كالتجسيم والحلول في المكان ونحو ذلك، ونسب ما لا يجوز العقل نسبته الى الأنبياء الكرام من أنواع الكفر والفجور والزلات، وهذا المنهج إذا إختلط بعقيدة سماوية أفسد ما بقي منها، ويقول د. جوستاف لوبون عن عقيدة اليهود: في وادي الفرات وفي مصر نشأت ديانة بني إسرائيل . أو على الأصح مختلف العبادات التي مارسها بنو إسرائيل، وذلك بين إقامتهم بفلسطين وعودتهم من السبي، حتى أن أسماء آلهتهم تدل على أصلها، وليست الآلهة الكبرى الشهوانية عشتروت التي كان العبريون يعبدونها. إلا زهراء فينوس بابل عشتار . . وحتى في دور السبي كان شعب اسرائيل قد بلغ من الغرق في الإشرak . ما كان يتعذر معه عزيمة ملك أو خطب نبي تخليصه منه . . ودام دين اليهود القائل بتعدد الآلهة بعبادته الكثيرة وطقوسه المتنوعة وأساطيره المتكاثفة^(١) . وقال د. جوستاف لوبون عن عقيدة اليهود بعد دور السبي: لم يعبد بنو إسرائيل إلهاً يمكن أن يكون رب الأمم الأخرى، ثم يصل د. لوبون الى نتيجة مفادها: لم تكن الديانة اليهودية في كل زمن . مطابقة لما نسميه اليوم باليهودية . ولا شبه بين إله اليهود الراهن وإله سيناء يهوه . فبنو إسرائيل كانوا يعبدون ألوهيمات في أثناء حياتهم البدوية التي قضتها أجيالهم الأولى . ولذلك لا ينبغي أن يطلب من هذا الشعب البسيط تعريف وثيق لموضوع عبادته^(٢) .

● أما ما نسبوه الى الأنبياء الكرام من أنواع الكفر والفجور، فكان الهدف منه تبرير أخطاء المسيرة، بمعنى أنهم إذا أجازوا على الأنبياء الوقوع في الزلات، تلتمس الأعذار لمن دونهم إذا وقعوا فيها أو في

(١) اليهود في الحضارات الأولى/ جوستاف لوبون ص ٥٨ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص ٦٢ وما بعدها.

أشد منها، وإذا كان التحريف قد قطع شوطاً كبيراً في نسبة الزلات الى الأنبياء، إلا أن القارىء للعهد القديم يقع في حيرة عندما يجد نصوص أخرى تمتدحهم، وتزول الحيرة إذا علمنا أن القوم إعتمدوا في حركتهم على أشد الأمور فتكاً وإثارة للفتنة، وهو تلبس الحق بالباطل، ليكون عندهم لكل سؤال جواب.

● فهارون عليه السلام. أشارت التوراة الى تطهيره من المعاصي. وإختيار الله له ليكون مفسراً للشريعة، وغير ذلك من الأمور التي تبين وقع أقدامه على الطريق المستقيم^(١)، وفي مقابل هذا ذكرت التوراة أن هارون هو الذي أقام العجل لبني إسرائيل وبني مذبحة، يقول العهد القديم «فقال لهم هارون: إنزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم وبناتكم وأتوني بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها هارون، فأخذ ذلك من أيديهم. وصوره بالأزميل. وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، فلما نظر هارون بني مذبحة أمامه^(٢)!! لم يشيروا الى السامري الذي أضلهم وجاء ذكره في القرآن الكريم. لأن موقع السامري لا يرفع عن المسيرة حرج.

● وفي موضع آخر من العهد القديم. إفتروا على موسى وهارون عليهما السلام بفرية العصيان، ومن هذا: «فقال الرب لموسى وهارون من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني أمام أعين بني إسرائيل. لذلك لا تدخلان هذه الجماعة الى الأرض التي إعطيتهم إياها^(٣)». وفي موضع آخر نرى نصاً يقول بأن الله كان يأمر وموسى يطيع، وكان الله معه في

(١) انظر سفر العدد ١/١٨، ١/١٩، والخروج ١/٢٩ - ٣٠.

(٢) الخروج ٢/٣٢ - ٦.

(٣) عدد ١٢/٢٠.

كل خطواته، لقد قالوا ليوشع بن نون عندما قاتلوا معه «كل ما أمرتنا به نعمله وحيثما ترسلنا نذهب. حسب كل ما سمعنا لموسى نسمع لك. إنما الرب إلهك يكون معك كما كان مع موسى»^(١).

● وتناول العهد القديم سيرة سليمان عليه السلام، وبينما نجد نصوصاً تمتدحه، نجد نصوصاً أخرى تنسب إليه الزلات، فالنصوص التي إمتدحته بينت كيف كان يحذرهم من مخالفة أوامر الله، وعندما قدم العهد القديم أمثال سليمان صدرها بقوله: أمثال سليمان بن داود ملك إسرائيل. لمعرفة حكمة وأدب. لإدراك أقوال الفهم. لقبول تأديب المعرفة والعدل والحق والإستقامة. لتعطي الجهال ذكاء والشاب معرفة وتديراً. يسمعها الحكماء فيزداد علماً. والفهم يكتسب تديراً. لفهم المثل واللغز. أقوال الحكماء وغوامضهم. مخافة الرب رأس المعرفة^(٢) وتقابل هذه النصوص نصوص أخرى منها قولهم: «وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون. موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات. من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلوا اليهم وهم لا يدخلون اليكم. لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهة أخرى. فإلتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة»^(٣). وقال العهد القديم «إن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى»^(٤) وقال «فذهب سليمان وراء عشتروت آلهة الصيدونيين»^(٥) وقال «بني سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين»^(٦) وقال «وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن

(١) يوشع ١٦/١.

(٢) أمثال ١/١ - ٧.

(٣) ملوك أول ١١/١.

(٤) المصدر السابق ١١/٥.

(٥) المصدر السابق ١١/٦.

(٦) المصدر السابق ١١/٧.

لآلهتهن»^(١). فمن هذه النصوص أخذوا تبريراً لإتجاه مسيرتهم نحو الآلهة المتعددة، ومن نص آخر أخذوا تبريراً للأسباب التي أدت الى تمزيق مملكة سليمان الى مملكتين، يقول «فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك، ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها. فإني أمزق المملكة عندك تمزيقاً»^(٢).

● وبوقود التحريف ظهرت التربية الغير رشيدة. التي أثرت على سلوك المسيرة وشعورها وأفرغت عليها طابعاً خاصاً فيما بعد.

٤ - [السقوط في الفتنة]

حذر الأنبياء والرسل على إمتداد المسيرة البشرية من إلقاءات الشيطان. وبينوا أن ما يلقيه الشيطان ما هو إلا فتنة تصيب الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم. ليكونوا علامة سوء على إمتداد الطريق كي يحذر الناس برامجهم وأطروحاتهم، والقرآن الكريم بشر الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ولم يتوبوا بعذاب جهنم، وفي عالم الفتنة إنطلقت المسيرة الإسرائيلية بعد عهد السبي تبشر بالمسيح المنتظر الذي يعيد مجد المملكة الداوودية، وتولى التلمود عملية التبشير، وللإهود تلمودان، الأول: التلمود الأورشليمي. وقد وضعه أحبار الإهود في أورشليم، والثاني: التلمود البابلي وقد وضعه أحبار الإهود في بابل، ويزعم كثير من الإهود أن موسى تسلم القانون المكتوب على ألواح الحجر، كما تسلم من الله تفسيرات وشروحاً لهذا القانون. وهو ما يدعى بالقانون الشفهي^(٣)، وذكرت مصادر أخرى أن فرقة الفريسيين

(١) المصدر السابق ٨/١١.

(٢) المصدر السابق ١٢/١١.

(٣) الكنز المرصود في فضائح التلمود/ د. محمد الشرقاوي ط مكتبة الوعي مصر

اليهودية التي ظهرت قبل ميلاد المسيح ابن مريم عليه السلام بمائتي عام، هم الذين إبتدعوا القانون الشفهي. وهم الذين وضعوا التلمود^(١).

● ونظراً لما أنتجه التحريف من تناقض وما أنتجه التلمود من اختلافات. إرتقى الأخبار منزلة كبيرة بين الشعب، وكانت مهمتهم النزول على الشعب بتفسيراتهم للتلمود، وهي تفسيرات لا ينبغي أن يناقشها غيرهم، ومن أجل هذه المهمة رفعهم التفسير التلمودي الى مكانة عالية، قال «إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها»^(٢)، وقال «من إحتقر أقوال الحاخامات إستحق الموت. وليس كذلك من إحتقر أقوال التوراة. ولا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود وإشتغل بالتوراة فقط»^(٣)، وقال الحاخام روسكي: إلتفت يا بني الى أقوال الحاخامات أكثر من إلتفاتك الى شريعة موسى^(٤)، وجاء في كتاب كرافت المطبوع سنة ١٥٩٠: إعلم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء^(٥)، وقال الحاخام في أقوال الحاخامات المناقض بعضها بعضاً «إنها كلام الله مهما وجد فيها من تناقض، فمن لم يؤمن بها أو قال إنها ليست أقوال الله. فقد أخطأ في حق الله»^(٦).

● ومن أقوال الحاخامات في شعب الله المختار: «تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله كما أن الإبن جزء من

(١) المصدر السابق ص ٣٢.

(٢) التراث الإسرائيلي/ صابر طعيمة ص ٤٠١.

(٣) الكنز المرصود ص ١٤.

(٤) المصدر السابق ١٦٩.

(٥) المصدر السابق ص ١٧٠.

(٦) المصدر السابق ١٧١.

والده^(١)، ولهذا إختار الله الجنس العبري ليكون منه شعب الله المختار، وأعطى الله ميثاقه لهذا العنصر، وهو ليس عقداً بل عهداً لأنه جاء من جانب واحد، وهو عهد أزلي لا ينقض، وأنه تنفيذاً لهذا الميثاق أخرج الله العنصر العبري من مصر وأنقذه من فرعون، وأهلك أهل فلسطين من أجله وأسكنهم أرضهم وملكها لهم، وإذا كان هذا الملك قد أفلت في عصر من العصور وآل للأمم، إلا أن هذا الملك لله أولاً وأخيراً، ولقد قضى الله منذ الأزل أنه من نصيب شعبه، ومن ثم فلا خوف من ضياعه، وهذا العنصر العبري المختار سيظل لذلك يتطلع الى أن يعيد الله هذا الملك لهذا الشعب كما قضى في كتابه، وسيكون تطلع هذا الشعب لإعادة هذا الملك بكل عقله وقلبه، وإنه لا يشك للحظة إنه سيستعيده. وهو لا بد مسترجعه^(٢).

● وإختلفوا في المسيح المنتظر الذي سيستعيد مملكة داوود وعاء عهد الله لإبراهيم، فزعم يهود السامرة أن المسيح سيكون من سبط يوسف عليه السلام، وزعم يهود أورشليم أنه سيكون من سبط يهوذا من نسل داوود^(٣). وإتفقوا في أحداث مجيء المسيح. وقالوا «تطرح الأرض فطيراً وملابس من الصوف. وقمحاً حبه بقدر كلاوي الثيران الكبيرة، وفي ذلك الزمان ترجع السلطة لليهود. وكل الأمم تخدم ذلك المسيح وتخضع له، وفي ذلك الوقت يكون لكل يهودي ألفان وثمانمائة عبد يخدمونه. وثلاثمائة وعشرة أكوان تحت سلطته، ولكن لا يأتي المسيح إلا بعد القضاء على حكم الأشرار. ولذلك يجب على كل يهودي أن يبذل جهده لمنع إمتلاك باقي الأمم في الأرض، كي تظل السلطة لليهود وحدهم، لأنه من الضروري أن تكون لهم السلطة أينما

(١) الكنز المرصود ص ١٩٠.

(٢) المصدر السابق ص ٨٤.

(٣) نقد التوراة/ حجازي السقا ص ١٦٨.

حلوا، فإن لم يتيسر لهم ذلك إعتبروا منفيين وأسارى، وإذا تسلط غير اليهود على وطن اليهود. حق لهؤلاء أن يندبوا عليه ويقولون: يا للعار ويا للخراب ويستمر ضرب الذل والمسكنة على بني إسرائيل حتى ينتهي حكم الأجانب، وقبل أن يحكم اليهود نهائياً باقي الأمم يجب أن تقوم الحرب على قدم وساق، ويهلك ثلثا العالم ويبقى اليهود سبع سنوات متواليات يحرقون الأسلحة التي كسبوها بعد النصر... ويعيش اليهود في حرب طاحنة مع باقي الشعوب في إنتظار ذلك اليوم، وسيأتي المسيح الحقيقي ويحقق النصر المنتظر ويقبل المسيح إذ ذاك هدايا جميع الشعوب... وتكون الأمة اليهودية يومئذ في غاية الشراء... وإن هذه الكنوز ستملاً بيوتاً كثيرة لا يمكن حمل مفاتيحها وأقفالها إلا على ثلاثمائة حمار، وترى الناس كلهم حينئذ يدخلون في دين اليهود أفواجا... ويتحقق أمل الأمة اليهودية بمجيء المسيح. وتكون هي الأمة المتسلطة على باقي الأمم عند مجيء المسيح^(١).

● وعلى إمتداد المسيرة الإسرائيلية، إكتسب التلمود في نفوس الجماعات الاسرائيلية قداسة وأهمية تفوقان كل مقدس وكل تصور. يقول د. طعيمة: والتلمود من بين جملة المصادر الدينية الإسرائيلية قد أصبح التوراة المهمة في عواطف القوم ومعتقداتهم، وهو جملة من القواعد والوصايا والشرائع والتعاليم الدينية والأدبية. والشروح والتفاسير والروايات المتعلقة بدين وتاريخ وجنس اسرائيل على مدى التاريخ، وكانت هذه التعاليم والقواعد والشرائع تتناقل وتدرس مشافهة من حين إلى آخر، ولما تعاظم شأن هذه التعاليم في نفوس الجماعات الاسرائيلية. وكثرة هذه التعاليم. قرر كبار الحاخامات أن يسجلوا هذه التعاليم حتى تضاف الى ما لديهم من نصوص أو مستندات، وبدأت عملية التسجيل والتدوين

(١) الكثر المرصود ص ١٩٧.

على مراحل متعددة. وفي مواقع مختلفة^(١).

● والخلاصة: لقد ركبت المسيرة طريق الانحراف الذي سلكته الأمم الوثنية، ومن هذا الطريق إكتسبت المسيرة مجموعة من النصائح الإنفعالية. طرحتها ثقافات لا تصيب أصحابها إلا بصدمات نفسية، أو تجعلهم دائماً وأبداً في صراع نفسي غير محسوم، وكان بين يدي المسيرة دوائر تبشير ودوائر تحذير. بيّنها الأنبياء والرسل وهم يخبرون بالغيب عن ربهم، ومن دائرة التبشير بشروا بمسيح تلده عذراء الزهد علامة من علاماته، ومن دائرة التحذير حذروا من مسيح يخرج آخر الزمان فتنة للناس. معه ماء وطعام. وذهب وأهواء، ولكن دوائر التحذير إختلطت بدوائر التبشير. عندما بدأ القوم يحرفون النصوص. وعندما أنستهم مناهج المادة والحس حظاً مما ذكروا به، فإلتقطوا من بين الخليط ما يتفق مع القاسية قلوبهم. وعندما بعث النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم، أقام الحجة على المسيرة البشرية، وأخبر أهل الكتاب بما كانوا يختلفون فيه، ولكن الذين كفروا منهم تكبروا وجادلوا في آيات الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢). قال ابن كثير: نزلت الآية في اليهود، وذلك أنهم إدعوا أن المسيح منهم وأنهم يملكون به الأرض، فأمر الله نبيه. أن يستعد من فتنة الدجال^(٣) وقال في الميزان: أخبر سبحانه أن هؤلاء المجادلين لا ينالوا بغيتهم ولن ينالوا، وقال لرسوله. فلا يحزنك جدالهم، وحصر سبحانه السبب الموجب لمجادلتهم في الكبر، يريدون به إدحاض الحق الصريح، وأمره الله أن يستعد منهم بما لهم من كبر. كما إستعاذ موسى من كل متكبر مجادل.

(١) التراث الاسرائيلي ص ٣٩٥.

(٢) سورة غافر آية ٥٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٨٤.

المسيح عليه السلام
وأعمدة الأروقة المتصرعة

المسيح عليه السلام

وأعمدة الأروقة المتصدعة

أولاً [على طريق آل هارون]

١ - [الطريق الى المسيح عليه السلام]

ذكر العديد من المحققين أن اليهود في عهد السبي . إنخرطوا في المجتمع . وبالذات أن بابل كانت من أغنى المناطق في بلاد ما بين البحرين ، وهذا أتاح لهم العمل في الزراعة والتجارة والأعمال الخاصة ، وفي النهاية أصبحوا مواطنين عاديين داخل الدولة يتمتعون بكافة الحقوق السياسية والاجتماعية ، وعندما زالت دولة بابل وظهرت الدولة الفارسية التي خضعت لسيطرتها دول المنطقة ، إستفاد اليهود من سياسة الملك الفارسي (قورش) . وكانت المبادئ العامة لهذه السياسة إعادة السكان المبعثرين حول نهر دجلة والفرات الى أوطانهم ، فهذه السياسة أحيت الأمل لدى اليهود في بابل في العودة مرة أخرى الى فلسطين ، وبدأت الزعامة الدينية في الظهور تصنع الأحداث وتقود المسيرة ، وذكر العديد من المحققين أن اليهود كانوا في قديم الزمان يسمون فقهاءهم بالحكماء ، نظير تعليمهم الشعب القانون الشفهي وإشرافهم عليه ، وكان

لهؤلاء الحكماء من المدارس في بابل والمدائن والشام. ما لم يكن لأحد من الأمم مثله، وكان لهم في العصر الواحد كثير من الحكماء. في زمان دولة النبط البابليين والفرس ودولة اليونان ودولة الروم.

وبعد أن أحيت سياسة الملك الفارسي قورش الأمل في نفوس اليهود، إتفق السامريون والعبرانيون على إعادة كتابة التوراة في بابل، وشكل العلماء لجنة لهذا الغرض برئاسة (عزرا)، وقد جمعت هذه اللجنة معلومات من التاريخ القديم للمسيرة الإسرائيلية. ومعلومات أرادوا إدخالها على النصوص الأصلية^(١)، وقبل أن تكمل هذه اللجنة عملها. صدر الأمر الفارسي لليهود بالرجوع الى أرض كنعان، ويقول أبو الحسن السامري في تاريخه: إن الفارسيين لما سمحوا لليهود بالعودة. طلبوا منهم أن يتحدوا تحت رئاسة واحدة. وتكون لهم عاصمة واحدة ليسهل التعامل معهم، فإنقسم اليهود. وأصر يهود السامرة أن تكون الرئاسة فيهم. وأن يكون هيكلهم في نابلس، وأصر يهود أورشاليم أن تكون الرئاسة فيهم. ويكون هيكلهم مكان الهيكل القديم، وإشتد العداء بين الفريقين وسجل العهد القديم هذا العداء. عندما شرعوا في بناء الهيكل في أورشاليم^(٢).

● وبدأت خطوات المسيرة للقافلة الإسرائيلية بإعادة بناء الهيكل تحت حكم زربابل^(٣) (٥٣٨ ق.م) ثم بدأ ما سمي بعصر الإصلاح تحت حكم عزرا^(٤) (٤٥٨ ق.م) ثم قام نحميا ببناء السور^(٥)

(١) نقد التوراة/ د. حجازي السقا ص ٧٤.

(٢) انظر عزرا إصحاح ٥، ٤.

(٣) المصدر السابق ٢/٢.

(٤) المصدر السابق ١٣/٧.

(٥) نحميا ١/٢ - ٩.

(٤٤٥ ق.م) وإنتهت مسيرة العهد القديم بسفر النبي ملاخي^(١)، وكانت هناك فترة صمت لا يوجد فيها عهود جديدة. وقررت هذه الفترة بأربعمائة عام. ثم جاء العهد الجديد^(٢). والشواهد الكتابية للمسيرة الإسرائيلية (من ٥٣٨ ق.م) تنحصر في أسفار: عزرا، نحميا، استير، حبقون، زكريا، ملاخي، بالإضافة الى رؤيا دنيال وما أخبر به حزقيال، وبالنظر في حركة المسيرة من خلال هذه الشواهد الكتابية، يجد الباحث أن المسيرة بدأت حركتها بالاختلاف. وعلى هذا الاختلاف ظهرت تورا سامرية تقول أن القبلية في جبل (جزريم)، وأخرى عبرانية تقول بأنها في جبل (عيبال)، وقال يهود السامرة أن المسيح المنتظر من سبط يوسف بن يعقوب، بينما قال أورشاليم أنه من سبط داوود.

وإذا أردنا أن نحكم على المسيرة من خلال الشواهد الكتابية، نجد (نحميا) يقول عند المقدمة: «في تلك الأيام رأيت في يهوذا قوماً يدوسون معاصر في السبت... فخاصمت عظماء يهوذا وقلت لهم: ما هذا الأمر القبيح الذي تعملونه وتدنسون يوم السبت. ألم يفعل آبائكم هكذا فجلب إلينا علينا كل هذا الشر وعلى هذه المدينة، وأنتم تريدون غضباً على إسرائيل إذ تدنسون السبت»^(٣). ويقول «في تلك الأيام أيضاً رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموآبيات، ونصف كلام بنهم باللسان الأشدودي، ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي، بل بلسان شعب وشعب، فخاصمتهم ولعنتهم»^(٤).

(١) مفاتيح الأسفار الالهية ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق ص ٤٥.

(٣) نحميا ١٣/١٥ - ١٨.

(٤) المصدر السابق ١٣/٢٢ - ٢٥.

أما عند النهاية. نجد في (ملاخي) الذي بسفره ينتهي العهد القديم، نجد إدانة واضحة للمسيرة ولقيادتها، قال: «قال لكم رب الجنود: أيها الكهنة المحتقرون إسمي. وتقولون: بم إحتقرنا إسمك؟ تقربون خبزاً نجساً على مذبحي وتقولون بم نجسناك»^(١). ويقول «والآن إليكم هذه الوصية أيها الكهنة. إن كنتم لا تسمعون ولا تجعلون في القلب لتعطوا مجداً لإسمي، قال رب الجنود: فإني أرسل عليكم اللعنة وألعن بركاتكم، بل قد لعنتها لأنكم لستم جاعلين في القلب»^(٢). وقال لهم: «قال رب الجنود: من فيكم يغلق الباب بل لا توقدون على مذبحي مجاناً، ليست لي مسرة بكم. قال رب الجنود: ولا أقبل مقدمة من أيديكم»^(٣).

● وهكذا رأينا عند المقدمة كيف إنحرفت المسيرة، ثم رأينا عند النتيجة كيف ضربها اللعن، وفي سفر (ملاخي) وهو آخر أسفار العهد القديم، نجد أن السفر بين للمسيرة قيادة الهدى التي يختتم بها الله المسيرة الإسرائيلية، وبشر بقيادة الهدى التي يختتم بها الله المسيرة البشرية، وفي تحديد قيادة الهدى للمسيرة الإسرائيلية، بين أن الباب الذي فتحه الله في سبط (لاوى). وجاء منه موسى وهارون وبنوه، هو نفس الباب الذي يأتي منه آخر قيادة هدى للمسيرة الإسرائيلية، لتنتقل القيادة بعد ذلك في إتجاه شعب آخر وأرض جديدة. قال (ملاخي) في قيادة الهدى التي ينبغي على المسيرة إنتظارها: «إني أرسلت اليكم هذه الوصية ليكون عهدي مع لاوى قال رب الجنود: كان عهدي معه للحياة والسلام، وأعطيته إياهما للتقوى فاتقاني، ومن إسمي إرتاع هو، شريعة

(١) ملاخي ٦/١.

(٢) المصدر السابق ١/٢ - ٣.

(٣) المصدر السابق ٩/١ - ١١.

الحق كانت في فيه، والإثم لم يوجد في شفّتيه، سلك معي في السلام والإستقامة وأرجع كثيرين عن الإثم، لأن شفّتي الكاهن تحفظان معرفة ومن فمه يطلبون الشريعة، لأنه رسول رب الجنود، أما أنتم فحدثم عن الطريق وأعثرتم كثيرين بالشريعة، أفسدتم عهد لاوى، فأنا أيضاً صيرتكم محتقرين ودنيئين عند كل شعب. كما إنكم لم تحفظوا طريقي بل حابيتم في الشريعة»^(١).

من هذه النصوص نجد أن (ملاخي) ذكرهم بالبداية التي عندها تصب الله هارون كاهناً للشريعة وجعلها من بعده في بنيه، وهؤلاء هم ذروة سبط لاوى، ثم بين لهم أن عهد الله مع هؤلاء وليس مع غيرهم، فغيرهم حاد عن الطريق وأفسد في الأرض، ثم أخبرهم بأن الله سيرسل اليهم واحد من هذا السبط ليسوق قاعدة السبط ومن ورائها بقية الأسباط، «ها أنذا أرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي. ويأتي بغتة الى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تسرون به، وهو ذا يأتي، قال رب الجنود: ومن يحتمل يوم مجيئه. ومن يثبت عند ظهوره. لأنه مثل نار المُحِصِّ ومثل أشنان القصّار، فيجلس مُمَحْصاً ومنقياً للفضة، فينقي بني لاوى ويصفّيهم كالذهب والفضة. ليكونوا مُقربين للرب تقدمة بالبر، فتكون تقدمة يهوذا وأورشاليم مرضية للرب. كما في أيام القدم وكما في السنين القديم»^(٢).

وبعد أن أشار السفر الى بعثة آخر الأنبياء في سبط لاوى، وهو المسيح عيسى بن مريم كما سنبين في موضعه، تحدث عن اليوم المخوف الذي ينهي المسيرة البشرية، وأخبرهم بأن الله قبل هذا اليوم. سيبعث الى البشرية النبي (إيليا) ومهمته هي فتح أبواب الرحمة. قبل أن

(١) ملاخي ٢/٤ - ٩.

(٢) المصدر السابق ١/٣ - ٥.

يضرب الله المستكبرين وكل فاعلي الشر ويحرقهم، قال: «فهوذا يأتي اليوم المتقد كالتنور، وكل المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشاً، ويحرقهم اليوم الآتي. قال رب الجنود: فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعاً، ولكم أيها المتقون إسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنتها». ثم قال «هأنذا أرسل اليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف، فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم، لئلا آتي وأضرب الأرض بلعن»^(١).

وإيليا النبي. وضعه اليهود وفقاً لعلم حساب الحروف، ومجموع هذا الاسم يشير الى اسم النبي الخاتم صلى الله عليه واله وسلم. الذي يختتم به الله المسيرة البشرية^(٢).

وبهذه الخاتمة إنتهى العهد القديم ليبدأ العهد الجديد، الذي يتحدث عن المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام.

٢ - [على أبواب المسيح عليه السلام]

١ - «آل عمران»:

● إنقسم اليهود حول المسيح المنتظر، ففريق قال إنه يأتي من نسل يوسف. وقال آخرون إنه يأتي من نسل داوود، وذكر (ملاخي) أن الله جعل عهده في سبط (لاوي بن يعقوب). وذكر العهد القديم أن من أبناء لاوي (نحشوم) وولد له (عمرام) وولد لعمرام موسى وهارون ومريم^(٣) ومن هذا النسل إختار الله تعالى الهداة الذين يسوقون المسيرة الإسرائيلية الى الصراط المستقيم.

(١) المصدر السابق ١/٤ - ٦.

(٢) انظر كتاب بشارة نبي الاسلام/ د. حجازي السقا.

(٣) العدد ٦٠/٢٦.

ولقد كشف يهود أورشاليم برامجهم وثقافتهم التي تدعو الى إنتظار ابن داوود الذي يعيد مملكة داوود التي تعتبر عنواناً لعهد الله لإبراهيم، وهذه البرامج والثقافات تخالف نصوص قطعية في العهد القديم حدد فيها من أي سبط يأتي المسيح المنتظر، وإذا نظر الباحث في نسل داوود كما جاء في العهد القديم، يجد أن فاتحة النسل جاءت من الزنا كما ذكر العهد القديم، فيهوذا بن يعقوب زنى بإمرأة ابنه المسماة (ثامارا) وأنجب منها فارص، وفارص أنجب حصرون، وحصرون أنجب أرام، وأرام أنجب عميناداب، وعميناداب أنجب نحشون، ونحشون أنجب سلمون، وسلمون أنجب بوعز، وبوعز أنجب عوبيد، وعبيد أنجب يس، ويس أنجب داوود، ولما كانت المقدمة بها زنا كما ذكر العهد القديم، فإن هذه المقدمة لا تؤهل النسل في الدخول في جماعة الرب كما ذكر العهد القديم أيضاً، وهو قوله «لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر. لا يدخل منه أحد في جماعة الرب»^(١).

وعندما بعث المسيح بن مريم عليهما السلام. وهو من نسل (عجرام) كما سنبين في موضعه. كانت ثقافة التفسير الشفهي للتوراة تغمر الساحة وتمد أتباعها بوقود إنتظار بن داوود، وعندما لم يأت المسيح لليهود بما تشتهي أنفسهم رفضوه وتآمروا عليه، وبعد عصر المسيح عليه السلام أراد النصارى إثبات دعوة المسيح أمام اليهود، فألحقوا المسيح بنسل داوود، ليجعلوا اليهود بهذا الإلحاق من الخارجين على المسيح عليه السلام، وترتب على هذا الإلحاق إشكال، هو أنهم جعلوا للمسيح عليه السلام أربعة أجداد من الزنا، ومن كان كذلك فقد خرج من حزب الله كما صرح العهد القديم، والأجداد

(١) تثنية ٢٣/١ - ٢.

الأربعة هم: مؤاب. فارص. بن عمي. سليمان، (أما مؤاب وبن عمي) فهما إبننا لوط. ذكر العهد القديم. أن لوطاً زنا سكراناً بإبنتيه فولدت له الكبرى مؤاب وولدت الصغرى بن عمي^(١)، ومن الأول جاء الموابيون ومن الثاني جاء العمونيون، والعهد القديم يقول «لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر، لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد»^(٢) (وأما فارص) فولد من ثامارا بعد أن زنى بها يهوذا^(٣) (وأما سليمان) فولد من بت شبع امرأة أوريا حيث زنا بها داوود^(٤) - وحاشاه! والعهد القديم يقول «لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر»^(٥).

فوقها لهذه النصوص يكون الذين ألحقوا المسيح عليه السلام بنسل داوود، قد أخرجوه في الحقيقة من جماعة الرب إلا الأبد، لأنه لا يدخل جماعة الرب كل ولد زنا ولا سيما المؤابيين وبنى عمي وهو منهما، ومما يزيد الإشكال إشكالاً أنهم على الرغم من هذا النسب إعتبروا المسيح عليه السلام إبننا لله أو إلها متجسداً في الناسوت وتلك مصيبة كبرى.

وفي إشكال نسب المسيح يقول موريس بوكاي: تطرح شجرتا النسب اللتان يحتوي عليهما إنجيلا متى ولوقا، مشاكل تتعلق بالمعقولة وبالاتفاق مع المعطيات العلمية، ومن هنا فهي مشاكل تتعلق بالصحة، وهي مشاكل تخرج جداً المعلقين المسيحيين. . . وبأدىء ذي بدء يجب ملاحظة أن هذين النسبيين من جهة الرجال كما ذكر إنجيلا متى ولوقا،

(١) تكوين ١٩/٣٠ - ٣٨.

(٢) تثنية ٢٣/٢ - ٣.

(٣) تكوين ٣٨/٦ - ٣٠.

(٤) صموئيل ١٢/٧ - ٢٣.

(٥) تثنية ٢٣/١ - ٢.

معدوم المعنى فيما يتعلق بالمسيح، ولو كان من الضروري إعطاء المسيح نسباً وهو وحيد مريم أمه وليس له أب بيولوجي، فيجب أن يكون ذلك النسب من جهة مريم فقط^(١).

ولقد تضارب إنجيل متى مع إنجيل لوقا في نسب المسيح إلى داوود، فبينما يذكر متى أن من داوود إلى المسيح ٢٦ جيلاً، يذكر لوقا إنه ٤١ جيلاً، وبينما يذكر متى أن يوسف النجار ابن يعقوب، يذكر لوقا أنه ابن هالي، وبينما يذكر متى أن المسيح من ولد سليمان بن داوود، يذكر لوقا أنه من ولد ناثان بن داوود. وبينما يذكر متى أن شلتائيل ابن يكنيا، يذكر لوقا أنه ابن نيري، وبينما يذكر متى أن ابن زوربابل يدعى أبيهود، يذكر لوقا أنه يدعى ريساً^(٢). وبالجملية: النسب في العهد القديم به ولد زنا، والنصوص القاطعة تفيد أن من جاء من هذا الطريق لا يدخل جماعة الرب، وبعد بعثة المسيح إنطلق متى ولوقا في إنجيل كل منهما. من دائرة المسيح إلى دائرة نسب داوود التي ذكرها العهد القديم، لإثبات أن المسيح بن مريم عليه السلام. هو ابن داوود المذكور عند اليهود. فجاء الإنطلاق من دائرة إلى دائرة محرراً أمام النصوص.

● والقرآن الكريم ينسب المسيح إلى أمه نسبة الولادة، وينسبه إلى الله نسبة الخلقة، ولقد طهر الله تعالى المسيح عن العهر عبر الأضلاب والأرحام وعما ينافي الطهارة إطلاقاً بكلمة واحدة، وهي قوله عند ولادته ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾^(٣) أي أينما كنت قبل الولادة في رحم أمي وجداتي حتى أمي الأولى حواء، وفي صلب أبيها والآباء حتى

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة/ مورييس بوكاي ص ١٠٥.

(٢) انظر متى الاصحاح الأول، لوقا الاصحاح الثالث.

(٣) سورة مريم آية ٣١.

آدم الأول، فقد كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجسني الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسني من مدلهمات ثيابها، فقد كنت مباركاً أينما كنت وحيثما كنت، لم أر صلب زان ولا رحم زانية، أو صلب مشرك جهول ورحم مشركة.

وجميع الأنبياء والرسل خرجوا من شجرة واحدة أصلها ثابت وفرعها في السماء، ولقد إصطفى الله الأنبياء وآلهم على العالمين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ إِصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) إصطفى سبحانه آدم عليه السلام لأنه أول خليفة له في الأرض، وإصطفى نوح عليه السلام لأنه أول الخمسة أولى العزم من الرسل، وهو أيضاً الأب الثاني للنوع الإنساني بعد الطوفان، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٢) وإصطفى سبحانه آل إبراهيم. وهم إسحاق وإسرائيل والأنبياء من بني إسرائيل عليهم السلام. وإسماعيل والطاهر من ذريته وسيدهم محمد ﷺ، وقد جاء ذكره في دعاء إبراهيم وإسماعيل عند رفعهما قواعد بيت الله الحرام بمكة. ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ (إلى قوله تعالى) ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^(٣) وإصطفى الله آل عمران. وآل عمران من ذرية إبراهيم عليه السلام، ولكن الله أفردهم في آية الإصطفاء ليكون في هذا إشارة بأن الله تعالى قدمهم على الناس في أمر أو أمور لا يشاركهم فيه أو فيها غيرهم.

وآية الإصطفاء في خطوطها العريضة إعلان للبشر بأن هؤلاء

(١) سورة آل عمران آية ٣٣.

(٢) سورة الصافات آية ٧٧.

(٣) سورة البقرة آية ١٢٩.

الطيبين الذين خصهم الله والحق بهم من إختارهم، هم في الحقيقة خير أمة أخرجت للجنس البشري. ليقودوه على فترات الى صراط الله العزيز الحميد، وعلى إمتداد المسيرة الإسرائيلية كان عهد الله في سبط (لاوى) وذروة هذا السبط هو عمram، وولد لعمram موسى وهارون ومريم كما ذكر العهد القديم، وأمر الله بني اسرائيل بالطاعة لكهانة هارون ومن بعده لكهانة بنيه، وعلى إمتداد المسيرة إمتحن الله تعالى بني اسرائيل بهذه الذرية وبجملة عهوده ووصاياها تعالى، وشاء الله أن تختتم المسيرة بآل عمران، فجاءت الخاتمة يحمل عمودها الفقري نفس الأسماء التي وردت في المقدمة، لعل القافلة أن تتذكر وتنصت الى أقوال ملاخى وغيره، ولا تلتفت لأقوال الفرق العديدة التي أفرزها التفسير الشفهي للتوراة.

إن المقدمة جاء ذكرها في العهد القديم. بقوله «إن امرأة عمram يوكابد. ولدت لعمram هارون وموسى ومريم»^(١) أما الخاتمة فقد جاء ذكرها في القرآن في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾^(٣) فالخاتمة أمام اليهود تحمل عناوين المقدمة، واليهود كانوا يعلمون أن مريم بنت عمران في حاضرهم تنسب الى عمران في ماضيهم. لكنهم ركبوا مراكب الإستكبار، ومن الدليل على ذلك. أن التشريع الوارد في سفر العدد. يحتم أن تتزوج كل بنت من أسراتها إن أرادت الزواج من يهودي، لقوله «وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بني اسرائيل، تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها، لكي يرث بنو اسرائيل كل واحد نصيب

(١) العدد ٢٦/٦٠.

(٢) سورة آل عمران آية ٣٥.

(٣) سورة التحريم آية ١٢.

آبائه»^(١) أي إن من هو من سبط روابين مثلاً. يتزوج من سبطه ولا يتزوج من سبط شمعون. وهكذا، والنبي زكريا طبقاً للشرعية تزوج من امرأة من بنات هارون فقد جاء في الإنجيل «كان في أيام هيرودوس ملك اليهودية. كاهن اسمه زكريا من فرقة إيبيا، وإمرأته من بنات هارون وإسمها اليصابات»^(٢) والعذراء مريم أم المسيح عليهما السلام. يحكي لوقا إنها كانت قريبة لأليصابات، ومعنى ذلك إنها تكون من نفس السبط الذي منه اليصابات، ولما ثبت أن اليصابات من بنات هارون. فإنه يثبت بالضرورة أن مريم عليها السلام من بنات هارون.

ومن الدليل أيضاً على أن اليهود كانوا يعرفون حقيقة النسب، أنهم أفسحوا للمسيح الطريق ليلقي بمواعظه داخل الهيكل. ذكر يوحنا: أن المسيح حضر الى الهيكل. وجاء إليه جميع الشعب فجلس يعلمهم^(٣). وذكر لوقا: دخل المسيح المجمع حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ^(٤). وما كان اليهود ليسمحوا بذلك إلا لعلمهم أن المسيح الذي تربت أمه في الهيكل بعد أن كفّلها زكريا الذي ينسب لهارون. يحمل العلم الذي علموا موضعه على إمتداد المسيرة والقرآن الكريم أخبر في آياته أن اليهود كانوا يعرفون هذا. وأن الحجة قامت عليهم بما علموا وبما قدمه المسيح وحمله اليهم، وقال تعالى بعد أن وضعت العذراء ولدها ﴿فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ. قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيّاً﴾^(٥) قال صاحب الكشف: قوله «يا أخت هارون» إنما عنوا هارون النبي، وكانت من أعقابه في طبقة

(١) العدد ٨/٣٦.

(٢) لوقا ١/٥.

(٣) يوحنا ٨/١ - ٦.

(٤) لوقا ٤/١٦.

(٥) سورة مريم آية ٢٧.

الأخوة، وعن أبي طلحة والسدي في قوله «يا أخت هارون» أي أخي موسى. وكانت من نسله^(١).

لقد كانت شرافة النسب تقتضي القول: أنها أخت موسى لا هارون، لأفضلية موسى على هارون، ولكن جاء إنتسابها لهارون دون أبيها عمران ودون موسى. لتكون الحجة عليهم دافعة وهم يتلون الكتاب ويفسرونه التفسير الذي لا يقره أبناء هارون.

والخلاصة: لقد وضع اليهود النسب الذي يتفق مع أهوائهم، ثم شيدوا على هذا النسب فتن لا تقود إلا الى الدجال، ولقد بينت الرسالة الخاتمة أن للدجال كنى وأسماء تستقيم مع فتنه. منها: ابن داوود، أبو يوسف^(٢) والنصارى الذين دونوا نسب المسيح لم يلتفتوا إلى أن المسيح ليس له أب بيولوجي، وأن نسبه الى يوسف النجار لا جدوى من ورائها، لأن النسب يجب أن يكون من جهة العذراء فقط، لكنهم عملوا خلاف ذلك، وإتبعوا النسب الذي وضعه اليهود، إعتقاداً منهم أن متابعة اليهود في هذا، فيه إدانة لليهود الذين لم يؤمنوا بدعوة المسيح عليه السلام، ولكن هذا النسب الذي تجاهل سبط لاوى الذي على ذروته آل عمران، قاد الذين ينتظرون المسيح إبن داوود أو المسيح ابن يوسف، الى فتنة وصفتها الرسالة الخاتمة بأنها أعظم فتنة منذ ذراً الله ذرية آدم.

٢ - «الأعمدة المتصدعة وآل هارون»:

وقبل بعثة المسيح عليه السلام كانت المسيرة قد إرتوت من مياه الأمم الذين تعاقبوا على حكم فلسطين، وكان لهذا الإرتواء أثراً بالغاً في بناء الشخصية الإسرائيلية بعد عهد السبي، والدول التي تعاقبت على

(١) تفسير ابن كثير ٣/١١٨.

(٢) بيان الأئمة ص ١٠٤. الفتن والملاحم/ ابن كثير ص ١٣٣، بيان الأئمة ص ١٠٤.

حكم فلسطين بعد السبي هي: فارس (٥٣٨ - ٣٣٣ ق.م)، اليونان (٣٣٣ - ٣٤٣ ق.م) مصر (٣٢٣ - ٢٠٤ ق.م)، سوريا (٢٠٤ - ١٦٧ ق.م)، المكابين (١٦٧ - ٦٣ ق.م) وفيها كان اليهود مستقلين من الناحية العملية، روما (٦٣ ق.م) وإمتد حكم الرومان حتى (٦٣٣ ق.م)^(١). وعلى إمتداد هذه الفترة كان لليهود تجهيزاتهم التي أقاموها للحفاظ على تعاليمهم التي تقود إلى أهدافهم، وكان الحي اليهودي يذخر بالفرق المتعددة ومن أهم هذه الفرق: (الفريسيين) وهؤلاء أهم فرق اليهود وأكثرهم خطراً، ويتمسكون بالتفسير الشفهي (التلمود) وتقليد الشيوخ السابقين^(٢). ولقد حذر المسيح عليه السلام من هذه الفرقة^(٣). ومنهم جاء القديس بولس الذي قاد المسيرة المسيحية فيما بعد. وسنين ذلك في موضعه، (الصدوقيين) وهؤلاء يتمسكون بالناموس المكتوب^(٤)، (والأسنيين) وهؤلاء يمارسون حياة رهبانية وهم يمثلون اليهودية السرية^(٥)، (الهيروديين) وهم حزب سياسي يريد إرجاع السلطة الى عائلة هيرودس^(٦)، (الغيورين) وهؤلاء حزب قومي مستقل يؤيد إستعمال العنف والقسوة^(٧)، وكان يوجد داخل الحي اليهودي العديد من المؤسسات أهمها: (المجمع اليهودي) وهو مبنى يجتمع فيه اليهود لقراءة الأسفار، وهو كان للتعليم^(٨)، (السنهدرين) وهم السلطة

(١) مفاتيح الأسفار ص ٥٥، ٥٦.

(٢) مفاتيح الأسفار ص ٥٦.

(٣) متى ١٠/٢٤.

(٤) مفاتيح الأسفار الالهية ص ٥٦.

(٥) المصدر السابق ص ٥٦.

(٦) المصدر السابق ص ٥٧.

(٧) المصدر السابق ص ٥٧.

(٨) المصدر السابق ص ٥٨.

القضائية والدستورية العليا عند اليهود^(١)، (العشارين) وهم يهود يجمعون الضرائب للرومان^(٢)، (الكتبة) وهم طبقة من الشعب مهمتهم شرح الناموس، ولقد أكثروا من التقاليد الشفاهية. وحددوا قواعد تشمل النواحي العملية للحياة اليومية، وهم يسمون بالمحامين والمعلمين والربيين^(٣)، (الناموس الشفاهي) وهو مجموعة التعليقات والتفاسير التي تدور حول ناموس موسى^(٤) ويشرف عليه كبار الحاخامات.

● فتحت حكم الأمم تشكلت الشخصية الإسرائيلية بعد السبي، وهذا التشكيل حمل معالم الشخصية الإسرائيلية قبل وأثناء السبي، وقبل بعثة المسيح عليه السلام كانت الفرق الإسرائيلية المتعددة تتصارع على رقعة الاختلاف والجميع يتجه نحو هدف واحد، وهذا الهدف نسجته الفتن المتعددة. وفي النهاية إرتدى ثياب أمير السلام. الذي يعيد مجد مملكة داوود وعاء الوعد الإلهي لابراهيم. وهذه الثياب يشرف على صيانتها العديد من المؤسسات التي تتمركز حول التفسير الشفهي للناموس (التلمود). وفي هذه الأجواء المشحونة بالرفض لكل منهج لا يخلص اليهود من حكم الأجانب، لطف الله تعالى بعباده وبعث اليهم من يقيم عليهم الحجة ويسوقهم الى صراط الله العزيز الحميد، لينظر سبحانه الى عباده كيف يعملون تحت سقف الإمتحان والإبتلاء.

● وعند خاتمة المسيرة الإسرائيلية، بعث الله تعالى النبي يحيى والنبي عيسى، وكل منهما يحمل معالم جفاف المسيرة، ليتدبر فيها أصحاب العقول والأفهام، وليعلموا أن القيادة ستزعم من أيديهم وتكون

(١) المصدر السابق ص ٥٨.

(٢) المصدر السابق ص ٥٨.

(٣) المصدر السابق ص ٥٨.

(٤) المصدر السابق ص ٥٨.

لشعب آخر من أبناء ابراهيم، ومعالم الجفاف أن النبي يحيى ولد لأب
إشتعل رأسه شيباً ولأم عاقر، أما المسيح عليه السلام فولد لعذراء لم
يمسها بشر، لقد جاء يحيى من طريق أبوين الذرية لهما أمر غير
معهود. ليكون مصداقاً بعيسى عليه السلام الذي جاء من جهة كلمة
الإيجاد (كن)، وذلك لأن سائر الأفراد من الإنسان يجري ولادتهم على
مجرى الأسباب العادية المألوفة، ولكن ولادة المسيح عليه السلام لم
تجر هذا المجرى. لأنه فقد بعض الأسباب العادية. لهذا كان وجوده
بمجرد كلمة التكوين (كن) ولم يتخلل هذا الوجود الأسباب العادية.

لهذا كان الباب الذي دخل منه آخر أنبياء بني اسرائيل، باب يدعو
المسيرة الى التدبر والإيمان. وليحذروا المخالفة لأنها ستنتج على آخر
الطريق فتنة، ومعنى أن يغلقوا على أنفسهم باب الفتنة. أن قيادة
المسيرة البشرية لن تكون من داخل الأبواب المغلقة، إنما ستنتقل الى
مكان أوسع وأرحب، والله تعالى يورث الأرض لمن يشاء من عباده.

● في نهاية المسيرة جاءت دعوة زكريا عليه السلام، وكان
متزوجاً من اليصابات من بنات هارون^(١) ويقول إنجيل لوقا فيهما إنهما
بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه^(٢). وقال «لم
يكن لهما ولد. إذ كانت اليصابات عاقراً وكلاهما قد تقدم في السن
كثيراً»^(٣). وذكر لوقا: بينما كان زكريا يؤدي خدمته الكهنوتية أمام الله
سأله الولد. فظهر له ملاك وقال له: لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد
سمعت. وزوجتك ستلد لك ابناً تسميه يوحنا. وسوف يكون عظيماً أمام
الرب، والقرآن الكريم ذكر هذه المعجزة في قوله تعالى: ﴿قال رب إني

(١) لوقا ١/٥.

(٢) المصدر السابق ١/٦.

(٣) المصدر السابق ١/٨ - ١٦.

وهن العظم مني وإشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً. وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً. فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب وإجعله رب رضياً. يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً^(١).

● وجاء يحيى وريث زكريا وآل يعقوب، ليكون حجة على مسيرة خرج معظمها عن سبيل آل يعقوب، وبدأ يحيى دعوته، جاء في إنجيل متى «في تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان (يحيى) يكرز في برية اليهودية قائلاً: توبوا لأنه قد إقترّب ملكوت السماوات. فإن هذا هو الذي قيل عنه بأشعيا النبي القائل: صوت صارخ في البرية. أعدوا طريق الرب. إصنعوا سبله مستقيمة»^(٢)، ويقول متى هنري في تفسيره: كانت مهمة يوحنا دعوة الناس للتوبة عن خطاياهم، فقله «توبوا» هي في الأصل اليوناني «تأملوا أو فكروا ملياً» أي: ليكن لكم فكراً آخر لتصلحوا أخطاء الماضي، تأملوا طرقكم. جددوا أذهانكم، لقد أخطأتم التفكير فأعيدوا التفكير وأحسنوا التفكير^(٣).

ولكن القوم لم يتأملوا ولم يفكروا وعكفوا على أطروحة أرض الميعاد التي كتبها الله لإبراهيم دون قيد وشرط. ورفعت فرقة (الفريسيين) أعلام الصد عن سبيل الله. يقول إنجيل متى «ولما رأى يوحنا كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إليه ليتعمدوا قال لهم: يا أولاد الأفاعي. من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. فأثمروا ثمراً يليق بالتوبة ولا تغلّلوا أنفسكم قائلين: لنا إبراهيم أبا. فإني أقول لكم: إن الله قادر أن يطلع من هذه الحجارة أولاد إبراهيم، وها إن الفأس قد

(١) سورة مريم آية ٤ - ٧.

(٢) إنجيل متى ١/٣ - ٤.

(٣) متى هنري ١/٥٨.

ألقيت على أصل الشجرة. فكل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتطرح في النار»^(١)، ويقول متى هنري في تفسيره: نرى يوحنا يوجه حديثه الى هؤلاء القوم بمنتهى الصراحة والأمانة، وما قاله يوجهه في نفس الوقت الى كل الجموع. فاللقب الذي ناداهم به هو «يا أولاد الأفاعي». ولقد أعطاهم المسيح نفس هذا اللقب، لقد كانوا كالأفاعي إذ كانت لهم صورة التقوى والمظهر الخلاب. إلا أنهم مملوئين سما مشحونين خبثاً وعداوة لكل ما هو حسن، وكانوا أولاد الأفاعي نسل وذرية الأفاعي، فكان السم يسري في دمهم وعظامهم. وكانوا يفتخرون بأنهم ولدوا من إبراهيم، ولكن يوحنا بين لهم أنهم من نسل الحية وإن إبليس هو أبوهم^(٢). وقال لهم يوحنا (يحيى): «إن كنتم أولاد ابراهيم. فلا تفتكروا إنكم لا تحتاجون الى التوبة وإنه لا شيء هنالك تتوبون عنه وإن علاقتكم بإبراهيم وإهتمامكم بالعهد الذي قطع معه يجعلانكم مقدسين. ولا يوجد هنالك داع لتجديد أذهانكم وإصلاح طرقكم، ولا تفتكروا بأنكم ستنجحون حتى وإن كنتم لا تتوبون... أو وأن الله سيتغاضى عن عدم توبتكم لأنكم أولاد ابراهيم»^(٣) ويقول متى هنري «يقولون لنا ابراهيم أبا. ولذلك لنا الحق في إمتيازات العهد الذي قطعه الله معهم... يا لغباوتهم في هذا الإدعاء الذي لا أساس له، لقد توهموا بأنهم وقد صاروا أولاد ابراهيم. فإنهم هم شعب الله الوحيد في هذا العالم، ولقد بين لهم يوحنا جهلهم الفاضح في هذا الإدعاء الباطل والغرور الكاذب. فقال «مهما إفتكرتم أن تقولوا في أنفسكم. أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاد ابراهيم، إن إمتحانكم دقيق جداً وقريب جداً، الآن قد وضعت الفأس وقد رفعت أمام أنظاركم ووضعت على أصل الشجرة،

(١) إنجيل متى ٣/٧ - ١١.

(٢) متى هنري في تفسيره ١/٦٦.

(٣) المصدر السابق ص ١/٦٩.

الآن ستوضعون في كفة الميزان لحظة واحدة، الآن قد تحددت نهايتكم للهلاك الذي لا يمكن أن تفلتوا منه إلا بالتوبة العاجلة الصادقة، الآن قد منحكم الله آخر فرصة للاختبار، إما أن تنتهزوا الفرصة الآن. أو تضيع من أيديكم إلى الأبد، وبين كيف أن القصاص منهم سيكون صارماً إن لم ينتهزوا الفرصة، وهذه الحقيقة يوضحها يوحنا بوضع الفأس على أصل الشجرة، ليبين لهم أن الله قضى أن كل شجرة مهما إرتفعت بمواهبها وأمجادها. ومهما بدت خضراء بمظهرها الخارجي، أن لم تصنع أثماراً صالحة تليق بالتوبة فإنها تقطع، لا يعترف بها كشجرة في كرم الله، تصبح غير جذيرة بأن تحتل مكاناً هناك وتلقى في النار، وهي أليق مكاناً للأشجار الجافة لأنها لا تصلح لشيء آخر، إن لم تصلح للأثمار تصلح للنار^(١).

ويقول متى هنري: لقد كانوا عصابة الأفاعي كلهم متساوون في الشر، ورغم أنهم كانوا أعداء بعضهم لبعض. إلا إنهم كانوا متحالفين في الشر، إن نسل الشرير هو نسل الأفاعي، ولقد كان الإنذار الذي وجهه لهم يوحنا «من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي» يتضمن أنهم كانوا في خطر الوقوع تحت طائلة الغضب الآتي. وأنه لا أمل لهم في النجاة منه، لأن قلوبهم قد قست، الفريسيين بسبب تمسكهم بمظهر الديانة. والصدوقيون بسبب كثرة مناقشتهم عن الديانة، حتى كان يصبح كل مجهود لمحاولة التأثير عليهم مقضياً عليه بالفشل، لقد كان هناك غضباً آتياً. ومن واجب كل واحد أن يهرب من هذا الغضب. ومن رحمة الله أنه يحذر للهروب من هذا الغضب.

● لقد كان يحيى (يوحنا) يتحدث بالحق الذي تحدث به آل يعقوب، وكان عليه السلام يقف على أرضية آل عمران (آل هارون)،

(١) تفسير متى هنري ٦٨، ٦٩، ٧٠/١.

قال متى هنري: وكان يوحنا كاهناً على طقوس هارون^(١) وبينما كان يدعو الشعب للتوبة والإيمان بالله وسلوك سبيل آل هارون، كان يعلن أمامهم أنه يمهد الطريق للمسيح عيسى ابن مريم. ويقول «لست المسيح. بل أنا رسول يمهد له الطريق»^(٢). وكان الشعب قد علم من قديم. على لسان الأنبياء والرسل ببشارة تقول «ها العذراء تحبل وتلد ابناً»^(٣).

وعندما ولدت العذراء وشب ولدها عليه السلام، يقول إنجيل متى «جاء يسوع من الجليل الى الأردن الى يوحنا ليتعمد منه»^(٤) ولأن حبل النبوة حبل واحد. وحلقات الأنبياء يكمل بعضها بعضاً، قال يوحنا للمسيح: «هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر»^(٥). وكان المسيح عليه السلام آخر أنبياء الشجرة الإسرائيلية التي جعلها الله حجة على المسيرة الإسرائيلية، وإنتهت حياة نبي الله زكريا ونبي الله يحيى نهاية دموية، روى أن القوم عندما عقدوا العزم على قتل زكريا. هرب منهم فأنفجرت له شجرة فدخل جوفها ثم التأمت عليه، وعندما علم القوم نشروا الشجرة فقطعوها وقطعوه نصفين، أما يحيى عليه السلام. فسجنوه. ثم قتلوه. ثم قطعوا رأسه. وحملت الى ملك بني إسرائيل ليقدّمها هدية لإمرأة كان قد إفتتن بها^(٦)

(١) متى هنري ١/٥٧.

(٢) إنجيل يوحنا ٢٨/٣.

(٣) أشعيا ١٤/٧.

(٤) متى ١٣/٣.

(٥) متى ١٦/٣.

(٦) متى هنري ١/٤٦٦.

ثانياً [دعوة المسيح عليه السلام]

١ - [أصول الدعوة]

تجري دعوة المسيح عليه السلام في إتجاهين يصبان في هدف واحد، الإتجاه الأول: دعوة بني إسرائيل وتصحيح عقائدهم وإتجاهاتهم وسوقهم الى صراط الله العزيز الحميد، وهذا الإتجاه ينطلق من التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، والإتجاه الثاني: هو التبشير ببني الإسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، وهذا الإتجاه ينطلق من بشارات الأنبياء السابقين، ويبشر به المسيح عليه السلام وفقاً لسنة الاخبار بالغيب عن الله، وهي سنة جارية. فكل نبي يخبر بالذي يليه، ويمكن القول بأن دعوة المسيح عليه السلام دعوة تربط بين الدعوة الإلهية التي حملها بنو اسرائيل. وبين الدعوة الإلهية التي يبعث بها النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم، والدعوة الإلهية منذ ذراً الله ذرية آدم هي دعوة واحدة. ولا تدعو النبوة إلا الى دين واحد وهو التوحيد، وعلى هذا فإذا كذب الناس أحد الإنبياء فقد كذبوا كل الإنبياء في الحقيقة.

● وأصول دعوة المسيح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ

من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد»^(١).

فالذي حكاه تعالى عن عيسى عليه السلام ملخص دعوته، وقد أعلن أصل دعوته بقوله «أني رسول الله إليكم» فأشار إلى أنه لا شأن له إنه حامل رسالة من الله إليهم، ثم بين متن ما أرسل إليهم لأجل تبليغه في رسالته بقوله «مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول» الخ. فقوله «مصدقاً لما بين يدي من التوراة» بيان أن دعوته لا تغاير دين التوراة. ولا تناقض شريعته بل تصدقها ولم تنسخ من أحكامها إلا يسيراً، والنسخ بيان إنتهاء أمد الحكم وليس بإبطال. ولذا جمع عليه السلام بين تصديق التوراة ونسخ بعض أحكامها فيما حكاه الله تعالى من قوله ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾^(٢)، ولم يبين لهم إلا بعض ما يختلفون فيه، كما في قوله ﴿قد جئكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون﴾^(٣).

وبالجملة: فالمسيح يحمل رسالة من الله إلى بني إسرائيل، وهذه الرسالة لا تناقض التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، بل هو مصدقاً لما علمه الله من التوراة النازلة على موسى، وأنه عليه السلام جاء لنسخ بعض الأحكام المحرمة المكتوبة عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾^(٤). وما حرم عليهم أشار إليه قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾^(٥).

(١) سورة الصف آية ٦.

(٢) سورة آل عمران آية ٥٠.

(٣) سورة الزخرف آية ٦٣.

(٤) سورة آل عمران آية ٥٠.

(٥) سورة النساء آية ١٦٠.

● والأنجيل الحاضرة أشارت الى أن دعوة المسيح موجهة الى بني اسرائيل دون غيرهم. جاء في انجيل متى قول المسيح «لم أرسل إلا الى خراف بيت اسرائيل الضالة»^(١) وأشارت الى أن الدعوة لا تغاير دين التوراة ولا تناقض شريعتها بل تصدقها. وإنها تنسخ بعض الأحكام التي انتهى أمد حكمها. جاء في انجيل متى قول المسيح «لا تظنوا أنني جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء. ما جئت لألغي بل لأكمل»^(٢) ويقول متى هنري في تفسيره: إن المسيح في كل النواحي خضع للناموس وأكمّله. أكرم والديه وقدس السبت وصلى وأعطى صدقه. وأطاع طاعة كاملة^(٣).

● وكان المسيح عليه السلام يحمل المعجزات التي تؤيد صدق دعوته. ومنها النفخ في الطين فيكون طيراً بإذن الله. وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله. وينبأهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم. وكان عليه السلام يحمل معجزة العلم بالكتاب والحكمة. وهو قوله تعالى: ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾^(٤) وما جاء به المسيح عليه السلام. أصاب علماء بني اسرائيل بالدهشة. وعلى الرغم من هذا حاولوا قتله. جاء في انجيل يوحنا «صعد يسوع الى الهيكل وبدأ يعلم الناس. فدهش اليهود وتساءلوا: كيف يعرف هذا الكتاب وهو لم يتعلم. فأجابهم يسوع: ليس تعليمي من عندي بل من عند الذي أرسلني. ومن أراد أن يعمل بمشيئة الله يعرف ما اذا كان تعليمي من عند الله أو أنني أتكلم من عندي. من يتكلم من عنده يطلب المجد لنفسه. أما الذي يطلب المجد لمن أرسله فهو صادق لا إثم فيه. أما أعطاكم

(١) متى إصحاح ١٥/٢٥.

(٢) المصدر السابق ١٧/٥.

(٣) تفسير متى هنري ص ١/١٤٢.

(٤) سورة آل عمران آية ٤٨.

موسى الشريعة ولكن ما أحد منكم يعمل بالشريعة. لماذا تسعون الى قتلي؟^(١). وجاء في انجيل متى «بهت الجميع من تعاليمه لأنه يعلمهم كمن له سلطان»^(٢).

● كان هذا هو الشطر الأول من دعوته عليه السلام، أما الشطر الثاني فهو قوله «ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» ومن المعلوم أن البشرى هي الخبر الذي يسر المبشر ويفرحه. ولا يكون إلا بشيء من الخير يوافيه ويعود اليه، والخير المترقب من بعثة النبي أحمد ودعوته. هو إنفتاح باب من الرحمة الإلهية على الناس فيه سعادة دنياهم وعقباهم، من عقيدة حقة أو عمل صالح أو كليهما.

وقال صاحب الميزان: ويعود معنى كلامه «إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً...» الآية. الى: أني رسول الله اليكم أدعو الى شريعة التوراة ومنهاجها - ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم - وهي شريعة سيكملها الله ببعث نبي يأتي من بعدي اسمه أحمد، وهو كذلك. فإمعان التأمل في المعارف الإلهية التي يدعو اليها الإسلام، يعطي أنها أدق مما في غيره من الشرائع السماوية السابقة، وخاصة ما يندب اليه من التوحيد. الذي هو أصل الأصول الذي يبتني عليه كل حكم ويعود اليه كل من المعارف الحقيقية، وكذا الشرائع والقوانين العملية التي لم تدع شيئاً مما دق وجل من أعمال الإنسان الفردية والاجتماعية. إلا عدلته وحدت حدوده وقررتة على أساس التوحيد ووجهته الى غرض السعادة، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات

(١) يوحنا ٧/١٤ - ٢٠.

(٢) متى ٧/٢٩.

ويحرم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم»^(١).

وقوله «إسمه أحمد» دلالة السياق على تعبير عيسى عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله وسلم بأحمد، وعلى كونه إسماً له يعرف به عند الناس، كما كان يسمى بمحمد ظاهرة لا سترة عليها، ويدل عليه قوله حسان:

صلى الإله ومن يحفف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

ومن أشعار أبي طالب قوله:

وقولوا لأحمد أنت أمره خلوف اللسان ضعيف السبب
ألا إن أحمد قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب
وقوله مخاطباً للعباس وحمزة وجعفر وعلي بنصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

كونوا فدى لكم أمي وما ولدت في نصرة أحمد دون الناس أتراسا
ومن شعره فيه صلى الله عليه وآله وسلم وقد سماه بإسمه الآخر محمد:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خط في أول الكتب
ويستفاد من البيت أنهم عثروا على وجود البشارة به صلى الله عليه وآله وسلم. في الكتب السماوية التي كانت عند أهل الكتاب يومئذ ذاك، ويؤيده أيضاً إيمان جماعة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وفيهم قوم من علمائهم كعبد الله بن سلام وغيره، وقد كانوا يسمعون هذه الآيات القرآنية التي تذكر البشارة به صلى الله عليه وآله وسلم،

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧.

وذكره في التوراة والإنجيل. فتلقوه بالقبول ولم يكذبوه. ولا أظهروا فيه شيئاً من الشك والترديد^(١) واخلو الأناجيل الدائرة اليوم من بشارات عيسى عليه السلام بما فيها من الصراحة. فالقرآن الكريم في غنى عن تصديقها. لأنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو المعجزة الباقية، والبشارات بنبي الاسلام ﷺ لا يخلو الكتاب المقدس منها، وبعض هذه البشارات حرفت وغيّرت إما بتغيير لفظ أو محل. وإما بزيادة أو نقصان. أو غير ذلك.

● ولقد ذكر العهد القديم بشارات إذا تدبرها الباحث وجد أنها لا تستقيم إلا مع البعثة الخاتمة، وسنلقي ضوءاً على هذه البشارات في موضعها، أما العهد الجديد فلقد بشر بالنبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم في مواضع، وبشر بشريعته تحت عنوان «إقترب ملكوت السماوات»، وكان المسيح عليه السلام يقول لتلاميذه «أكرزوا قائلين: إنه إقترب ملكوت السماوات»^(٢)، ومعنى الملكوت الذي أشار إليه المسيح: السلطنة والحكم، ويشير إليه قول الله تعالى لرسوله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله. قل فأنا تسحرون. بل آتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون. ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون﴾^(٣)، وقال المفسرون: الملكوت هو الملك. بمعنى: السلطنة والحكم، وقد فسر تعالى ملكوته بقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فسبحانه الذي بيده ملكوت كل شيء﴾^(٤)، فكون ملكوت كل شيء بيده

(١) الميزان ١٩/٢٥٣.

(٢) متى ٧/١٠.

(٣) سورة المؤمنون آية ٨٨ - ٩١.

(٤) سورة يس آية ٨٣.

أن ملكه تعالى محيط بكل شيء ونفوذ أمره ومضي حكمه ثابت على كل شيء، والنظر في ملكوت الأشياء يهدي الإنسان الى التوحيد هداية قطعية، قال تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وإن عسى أن يكون قد إقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون﴾^(١).

● فالمسيح عليه السلام بشر بالنبي الخاتم الذي تحقق شريعته الإستكمال الإنساني، ويقوم دينه على التوحيد الذي لا يرى غير الله من يملك أي شيء، وينطلق في دعوته من ينبوع دين الله في فطرة الإنسان نفسه. الى صفحة الكون الواسع العريض التي تعلية على الوجود. إن الإيمان بالله أمر فطري ولا يحتاج الى معجزة لتثبته، فدعوته من الفطرة وإلى الفطرة، ويؤكد هذا المعنى أن المسيح عليه السلام أشار إلى الفطرة وهو يتحدث عن ملكوت الله، جاء في إنجيل متى «في تلك الساعة تقدم التلاميذ الى يسوع يسألونه: من هو الأعظم إذن في ملكوت السماوات؟ فدعا اليه بولد صغير وأوقفه وسطهم وقال: الحق أقول لكم إن كنتم لا تتحولون وتصيرون مثل الأولاد الصغار. فلن تدخلوا ملكوت السماوات أبداً»^(٢) ويقول متى هنري في تفسيره: قوله «إن لم ترجعوا» وحسب الترجمة الإنجليزية «يجب أن تتجددوا» أو «تغيروا» أي: يجب تجديد ذهنكم. يجب أن يكون لكم شكل آخر وطبع آخر وأفكار أخرى، سواء عن أنفسكم أو عن ملكوت السماوات، يجب أن ترجعوا الى أنفسكم، يجب أن تصيروا مثل الأولاد»^(٣).

لقد دعا المسيح عليه السلام الى طرح الإعتقادات الباطلة التي

(١) سورة الأعراف آية ١٨٥.

(٢) متى ١٨/١ - ٣.

(٣) متى هنري ١٠٦/٢.

أنتجتها المسيرة وعليها شبت الأجيال، وعلى ثقافتها سارعوا في الأرض فساداً طمعاً في نشر شباك التهويد والتوثين على الفطرة، وبين أن هناك الشباك ستكون عائقاً أمام صاحبها عندما يبعث نبي شريعة الملكوت، ولأجل هذا فلا بد من طرح الشباك لكي تستقبل الفطرة زادها، وشباك الإعتقادات الباطلة هذه، أشار إليها النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم. بقوله «ما من مولود إلا يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»^(١).

والمسيح عليه السلام كان يمهد الطريق أمام نبي الدعوة الخاتمة. وأقام الحجة على أصحاب شباك التعتيم في المسيرة الإسرائيلية. لكي يستقبلوا وتستقبل أجيالهم الدعوة التي ما زالت في بطن الغيب. على أرضية ذات شكل آخر وطبع آخر وأفكار أخرى، ولكي يزيل المسيح عليه السلام شباك التعتيم، كان يكلم الشعب بطريقة ضرب الأمثال لهم لعلهم يفقهون، جاء في إنجيل متى «فتقدم إليه التلاميذ وسألوه: لماذا تكلمهم بالأمثال؟ فأجاب: لأنه قد أعطى لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السماوات، أما أولئك فلم يعط لهم ذلك، فإن من عنده يعطي المزيد فيفيض. وأما من ليس عنده ينتزع منه، لهذا السبب اكلمهم بأمثال، فهم ينظرون دون أن يبصروا ويسمعوا دون أن يسمعوا أو يفهموا، ففيهم قد تمت نبوءة أشعيا حيث يقول: سمعا تسمعون ولا تفهمون، ونظراً تنظرون ولا تبصرون، لأن قلب هذا الشعب قد صار غليظاً. وصارت آذانهم ثقيلة السمع. وأغمضوا عيونهم. لئلا يبصروا بعيونهم. ويسمعوا بأذانهم. ويفهموا بقلوبهم. ويرجعوا إليّ فأشفيهم»^(٢) يقول متى هنرى: أجابهم المسيح أنه علّم بالأمثال، لأن بها تصبح الأمور أكثر وضوحاً

(١) رواه الامام مسلم ك القدر ب كل مولود يولد على الفطرة (الصحيح ٨/٥٢).

(٢) متى ١٣/١٠ - ١٥.

وسهولة، للذين يريدون أن يتعلموا. وفي نفس الوقت تصبح أكثر صعوبة وغموضاً للجهلاء بإرادتهم، إن للتلاميذ معرفة وأما الشعب فليس لهم معرفة، لأن قلب هذا الشعب قد ثقل، ولا غرابة لمن كان قلبه هكذا إذا ما صارت الأذان ثقيلة السمع، ولأنهم مصرين على أن لا يروا النور آتياً الى العالم حينما أشرق شمس البر، بل أغلقوا نوافذهم. لأنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور. إن النظر والسمع والفهم لازمه للرجوع والتجديد^(١).

وفي أوامر المسيح للتلاميذ «أكرزوا قائلين إنه إقترب ملكوت السماوات»^(٢) يقول متى هنري: هذا هو رأس الموضوع، ويجب أن يتوسعوا في شرحه، ليعرف الناس أن ملكوت المسيا^(٣) يجب أن يؤسس الآن حسبما جاء في الكتب، الأمر الذي يتطلب أنهم يجب أن يتوبوا عن خطاياهم. ويتركوها لكي يؤهلوا لإمتيازات هذا الملكوت، والتوبة تتفق مع تطبيق هذا التعليم الخاص بإقتراب الملكوت، لذلك يجب أن ينتظروا وأن يسمعوا عن هذا المسيا الذي طال إنتظاره. أكثر مما سمعوا. يجب أن يكونوا مستعدين لقبول تعاليمه والإيمان به والخضوع له، لقد كانت المناداة بهذا كنور الصباح الذي يبشر بقرب شروق الشمس^(٤).

● كانت هذه إشارات الى رسالة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم، يتبينها كل باحث عن الحقيقة. عند تدبره لأحداث المسيرة الإسرائيلية وما أنتجته من فتن وإختلافات، وعند تدبره لمنهج البعثة

(١) متى هنري ١/٤٣٣ وما بعدها.

(٢) متى ٧/١٠.

(٣) المسيا/ إشارة الى نبي الاسلام. راجع كتاب: المسيا المنتظر نبي الاسلام/ د. احمد حجازي السقا.

(٤) متى هنري ١/٣٢٣.

الخاتمة. وما قدمه للبشرية من زاد ودواء يشفى من كل داء. وسنقدم المزيد من هذه البشارات في موضعها.

والخلاصة: كان الشطر الأول من دعوة المسيح عليه السلام، يتعلق بإصلاح المسيرة الإسرائيلية. وإزالة ما تراكم عليها من غبار وأهواء بإقامة الحجة التي تهدي الى صراط الله، وكان الشطر الثاني من الدعوة هو تجهيز الماضي وحاضر الدعوة، لإستقبال دعوة جديدة في أرض جديدة، وعلى هذا فدعوة المسيح دعوة رابطة، تهدي مسيرة الى مسيرة، لينطلق الجنس البشري تحت سقف الإمتحان والابتلاء. لينظر الله كيف يعملون.

٢ - [الدعوة والمفاصلة]

بدأ المسيح عليه السلام في بث دعوته داخل بني اسرائيل. واختار عليه السلام اثني عشر رجلاً ليلازموه ويرسلهم ليبشروا بملكوت السماوات، ولم تكن مهمة المسيح مهمة سهلة داخل الحي اليهودي. لأن هذا الحي عج بالعديد من الفرق والمؤسسات التي تتجه نحو هدف واحد. حددته الأطروحات والثقافات التي تقول بشعب الله المختار. وتنتظر المسيح بن داود ليعيد الميراث الذي اعطاه الله لابراهيم، ولم تكن مهمة المسيح أن يأتي لهؤلاء بما تهوى أنفسهم، وإنما كانت مهمته أن يدعوهم الى عبادة الله عبادة خالصة، وأن يعيدهم الى الطريق الذي يخلو من جميع بصمات الأمم، ذكر انجيل مرقس أن المسيح سُئل «أية وصية هي أول الكل؟» وأجاب يسوع: «إن أول كل الوصايا هي: إسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد، وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى»^(١) وهذه الوصية أشار اليها القرآن الكريم. في قوله تعالى: ﴿ووصى بها

(١) مرقس ١٢/٢٨ - ٣٤.

إبراهيم بنيه ويعقوب. يا بني إن الله إصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا: نعبد الهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون^(١). وفي الآية إشارة إلى أن الدين هو الإسلام كما قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾^(٢).

● لم تكن المهمة سهلة في الحي اليهودي الذي أغلق الأبواب حتى لا تدخل الإستقامة. كما قال أشعيا: «قد إرتد الحق إلى الوراء والعدل يقف بعيداً. لأن الصدق سقط في الشارع والإستقامة لا تستطيع الدخول وصار الصدق معدوماً»^(٣) وعلى الرغم من هذا العسر وهذا الصد عن السبيل، حددت الدعوة للمسيح دائرة عمله، وهي قوله: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت اسرائيل الضالة»^(٤). ولهذا قال لتلاميذه «إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا. بل إذهبوا بالحرى إلى خراف بيت اسرائيل الضالة»^(٥).

● ولأن الحي اليهودي يزخر بالثقافات التي أنتجت العقائد الوثنية، ويزخر بالإنحرافات التي أنتجها التحريف والتأويل لنصوص الكتاب، كان لا بد من المفاصلة بين الحق وبين الباطل داخل الحي اليهودي، ليعرف الشعب أين تكون القدوة الصالحة وتقام عليه الحجة، فالساحة شربت من قديم ثقافة يشير إليها قول أشعيا «صارت القرية الآمنة زانية.. كان العدل يبيت فيها وأما الآن فالقاتلون» وقوله «رؤسائك متمردون ولغفاء اللصوص. كل واحد منهم يحب الرشوة

(١) سورة البقرة آية ١٣٣.

(٢) سورة آل عمران آية ١٩.

(٣) أشعيا ٥٩/١١.

(٤) متى ٢٥/١٥.

(٥) متى ١٠/٦.

ويتبع العطايا»^(١) وعندما بُعث المسيح تم الفصل بين ثقافة والتمرد والرشوة وقدوتها. وبين العقيدة التي تتميز بالزهد ويسهر عليها قدوة صالحة، ذكر الانجيل أن المسيح قال لتلاميذه «مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا. لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم. ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصاً»^(٢).

ونظراً لتعدد الفرق والمؤسسات داخل الحي اليهودي، ونظراً لوجود تعاليم تلبست بالدين وأصبحت خطراً على الفطرة. وتهدد المسيرة البشرية بالفتن المهلكة، فإن حركة المسيح لتصحيح المسار. تميزت من بدايتها بالمفاصلة بين الحق وبين الباطل حتى داخل البيت الواحد، ليهلك من هلك عن بينة، ذكر متى أن المسيح قال «لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً، فإنني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والإبنة ضد أمها. والكنة ضد حمايتها، وأعداء الإنسان أهل بيته، من أحب أباً وأماً أكثر مني فلا يستحقني. ومن أحب ابناً أو إبنة أكثر مني فلا يستحقني»^(٣)، ولأن الدعوة الإلهية دعوة واحدة. ولأن المفاصلة بين الحق وبين الباطل من الأمور الفطرية. فلقد روى أن النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم قال «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(٤).

ولما كانت المفاصلة تقتضي أن يكون القول موافق للعمل، أمر المسيح تلاميذه بأن لا يقتفوا أثر الكتبة الفريسيين وغيرهم من علماء

(١) انظر اشعيا ٢/١ - ٢٣.

(٢) متى ١١/٩ - ١١.

(٣) متى ١٠/٣٤ - ٣٨.

(٤) رواه مسلم ك الايمان (الصحيح ١/٤٩).

الشعب، وقال «لا تعملوا مثل ما يعملون. لأنهم يقولون ولا يفعلون. بل يحزمون أحمالاً ثقيلة لا تطاق ويضعونها على أكتاف الناس، ولكنهم هم لا يريدون أن يحركوها بطرف الإصبع، وكل ما يعملونه فإنما يعملونه لكي يلفتوا نظر الناس اليهم، فهم يعرضون عصائبهم ويطيّلون أطراف أثوابهم. ويحبون أماكن الصدارة في الولايم وصدور المجالس في المجمع، وأن تلقى عليهم التحيات في الساحات. وأن يدعوهم الناس: يا معلم يا معلم، أما أنتم فلا تقبلوا أن يدعوكم أحد: يا معلم لأن معلمكم واحد وأنتم جميعاً أخوة»^(١) فالطريق الأول إتبع الأهواء وفصل بها بين القول والعمل، وأنتج برامج وثقافات لا تتفق بصورة مع كرسي موسى وهارون عليهما السلام، فجاء الطريق الثاني بالمفاصلة التي عليها يسير كل طريق نحو هدفه.

٣ - [الدعوة وبرامج التحريف]

بدأ المسيح عليه السلام في بث دعوته داخل الحي اليهودي، وعندما أظهر المعجزات التي أيد الله تعالى بها دعوته كانوا يقولون: «فمن أين له هذه كلها»^(٢) وآمن يسوع كثيرون من اليهود عندما شاهدوا المعجزات^(٣) ولكن فرقة الفريسيين أصحاب التفسير الشفهي. الذي يهدف إلى انتظار المسيح ابن داوود ليعيد مملكة داوود، وقفوا من الدعوة ومعجزاتها في موقف الصد عن سبيل الله، يذكر متى أن الفريسيين قالوا: إن المسيح لا يطرد الشياطين إلا ببلعزبول رئيس الشياطين^(٤) وأمام حركات الصد عن سبيل الله. يذكر متى: أن المسيح

(١) متى ٢٣/٤ - ٩.

(٢) المصدر السابق ١٣/٥٧.

(٣) يوحنا ١١/٤٥.

(٤) متى ١٢/٢٤.

بدأ يوبخ المدن التي جرت فيها أكثر معجزاته . لكون أهلها لم يتوبوا^(١)

● وبدأ اليهود يتحدثون بالعقائد التي دونوها على إمتداد مسيرتهم وأظهروا تقاليد شيوخهم . فقال لهم المسيح : «أنتم بهذا تلغون ما أوصى به الله محافظة على تقاليدكم . أيها المراءؤون . أحسن أشعيا إذ تنبأ عنكم فقال : هذا شعب يكرمني بشفتيه أما قلبه فبعيد عني جداً ، إنما باطلاً يعبدونني وهم يُعلمون تعاليم ليست إلا وصايا الناس»^(٢) وبدأ علماء الشريعة يدلون بدلوهم للصد عن دعوة المسيح عليه السلام ، فقال لهم : «الويل أيضاً لكم يا علماء الشريعة . فإنكم تحملون الناس أحمالاً مرهقة وأنتم لا تمسونها بإصبع من أصابعكم ، الويل لكم . فإنكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم قتلوهم . فأنتم إذن تشهدون موافقين على أعمال آبائكم ، فهم قتلوا الأنبياء . وأنتم تبنون قبورهم ، لهذا السبب أيضاً قالت حكمة الله . سأرسل إليهم أنبياء ورسلاً فيقتلون منهم ويضطهدون ، حتى أن دماء جميع الأنبياء المكفولة منذ تأسيس العالم . يطالب بها هذا الجيل . من دم هابيل الى دم زكريا الذي قتل بين المذبح والمحراب ، أقول لكم . نعم إن تلك الدماء يطالب بها هذا الجيل ، الويل لكم يا علماء الشريعة ، فإنكم خطفتكم مفتاح المعرفة ، فلا أنتم دخلتم ولا تركتم الداخلين يدخلون»^(٣) وإذا كان المسيح قد الحق الجيل الذي لم يشاهد الأحداث . بالجيل الذي شارك في الأحداث وسفك فيها دماء الأنبياء . فإن النبي الخاتم ﷺ قال «إذا عملت الخطيئة في الأرض . كان من شهدها فكرها كمن غاب عنها . ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»^(٤) . وقال «لا تقتل نفساً ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل

(١) المصدر السابق ٢٠ / ١١ .

(٢) متى ١٤ / ٦ - ٩ .

(٣) لوقا ١١ / ٤٦ - ٥٢ .

(٤) رواه ابو داود حديث رقم ٤٣٤٥ .

من دمها لأنه أول من سن القتل»^(١) وقال تعالى في كتابه الكريم: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساداً في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾^(٢).

● كما بدأوا في طرح ثقافة أنهم الأحق بميراث إبراهيم. لأنهم أولاد إبراهيم، وكان يوحنا المعمدان قد رد قولهم من قبل وقال «يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فأثمروا ثمراً يليق بالتوبة ولا تغللوا أنفسكم قائلين: لنا إبراهيم أباً. فإني أقول لكم: إن الله قادر أن يطلع من هذه الحجارة أولاد إبراهيم»^(٣). ومن قبل يوحنا رد حزقيال عليهم قولهم وقال «قال الرب: إن الساكنين في هذه الخرب في أرض إسرائيل يتكلمون قائلين: إن إبراهيم كان واحداً وقد ورث الأرض. ونحن كثيرون لنا أعطيت الأرض ميراثاً، لذلك قل لهم: هكذا قال السيد الرب. تأكلون بالدم وترفعون أعينكم إلى أصنامكم وتسفكون الدم. أفترثون الأرض؟»^(٤) وفي عهد المسيح بدؤا بالصد عن سبيل الله بهذه الثقافة، يذكر يوحنا أن المسيح قال لمن آمن به من اليهود «إن ثبتم في كلمتي كنتم حقاً تلاميذي. وتعرفون الحق والحق يحرركم، فرد اليهود: نحن أحفاد إبراهيم ولم نكن عبيداً لأحد. كيف تقول لنا إنكم ستصيرون أحراراً»^(٥) فالقوم ليسوا في حاجة إلى الثبات على الإيمان الذي يعرفهم الحق ويحررهم من صدا المادة وبريق الأهواء، وإكتفوا بالوقوف في أروقة آبائهم الذين تاجروا بثياب إبراهيم، وذكر يوحنا أن

(١) رواه مسلم ك القسامة ب إثم من سن القتل (الصحيح ١٠٧/٥).

(٢) سورة المائدة آية ٣٢.

(٣) متى ٧/٣ - ١١.

(٤) حزقيال ٢٣/٢٣ - ٢٥.

(٥) يوحنا ٨/٣٠ - ٣٤.

المسيح قال لهم «أنا أعرف إنكم أحفاد إبراهيم . ولكنكم تسعون الى قتلي . لأن كلمتي لا تجد لها مكاناً في قلوبكم» وقال «لو كنتم أولاد إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم» وقال لهم «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تطيقون سماع كلمتي . أنتم أولاد أبيكم إبليس وشهوات أبيكم ترغبون في أن تعملوا، فهو من البدء كان قاتلاً للناس، ولم يثبت في الحق لأنه خال من الحق . لأنه كذاب وأبو الكذاب»^(١).

● وواجه المسيح فرقة الكتبة وفرقة الفريسيين الذين يسهرون على ثقافة شعب الله المختار الذي يرث إبراهيم من دون خلق الله، وفيهم يقول متى هنري في تفسيره: كان الكتبة والفريسيين قساة . . لم يصروا على دقائق الناموس ولم يكتفوا بالتشديد في مراعاتها، بل أضافوا اليه بعض الإضافات وفرضوا إختراعاتهم وتقاليدهم تحت أشد العقوبات، وتظاهروا كثيراً بالعظمة والرآسة وإفتخروا بذلك ايما إفتخار، وكانوا يحتلون المراكز الرئيسية التي تقدم اليهم على أساس أنهم أعظم الناس وأفضلهم، وأحبوا أن يحييهم الناس عند التقائهم بهم في الشوارع، ولقد سرهم جداً أن يشار إليهم بالبنان ويقال: قفوا بعيداً هذا فريسي قادم . وأن يحيوا بهذا اللقب الرفيع «سيدي . سيدي»^(٢) وجاء في إنجيل متى أن المسيح قال للكتبة والفريسيين «الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون، فإنكم تنظفون الكاس والصفحة من الخارج، ولكنهما من الداخل ممتلئتان . مما كسبتم بالتهب والطمع» «الويل لكم . . فإنكم كالقبور المطلية بالكلس تبدو جميلة من الخارج . ولكنها من الداخل ممتلئة بعظام الموتى وكل نجاسة، كذلك أنتم أيضاً تبدوون للناس أبرار ولكنكم من الداخل ممتلئون بالرياء والفسق»^(٣) الويل لكم أيها الكتبة

(١) يوحنا ٨/٣٧ - ٤٠ .

(٢) تفسير متى هنري ٢/٢٧٩ بتصرف .

(٣) متى ٢٣/٢٥ - ٢٨ .

والفريسيون المراءون، فإنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الأبرار وتقولون: لو عشنا زمن آبائنا لما شاركناهم في سفك دماء الأنبياء، فهذا تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قاتلي الأنبياء. أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تفلتون من عقاب جهنم^(١) «الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون، فإنكم تغلقون ملكوت السماوات في وجوه الناس فلا أنتم تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون»^(٢) «الويل لكم.. فإنكم تطوفون البحر لتكسبوا متهوداً واحداً. فإذا تهود جعلتموه أهلاً لجهنم ضعف ما أنتم عليه»^(٣) فمن هذه النصوص نتبين أن القوم شهدوا على أنفسهم بأنهم أبناء قتلة الأنبياء. وعلى الرغم من ذلك فإنهم يقفون تحت مظلة الميراث الذي كتبه الله للأنبياء! ومن تحت هذه المظلة صدوا عن سبيل الله زمن المسيح عليه السلام، ووضعوا العراقيل في وجه الدعوة الخاتمة التي تحمل شريعة ملكوت الله، ويقول متى هنري في تفسيره: أغلقوا ملكوت السموات. بتمسكهم بالناموس الطقسي وطمسهم النبوات.. وبتأثيرهم على عقول الشعب لرفض تعاليم المسيح. لقد كانوا ألد الأعداء لتجديد النفوس وكانوا في غاية النشاط لتضليل النفوس. وإنضمامها إلى زميرتهم. وكانوا يستخدمون كل حيلة. ويكتبون ويتكلمون ويعملون بلا كلل أو ملل. ويجعلون الدخيل تلميذاً لهم يتشبع بأرائهم، وهكذا يصنعونه إبناً لجهنم^(٤).

وكانت فرقة الفريسيين أنشط الفرق في الدعوة إلى ثقافة شعب الله المختار. وقد خصهم المسيح بقوله كما ذكر إنجيل لوقا «الويل لكم أيها الفريسيين. فإنكم تحبون تصدر المقاعد الأولى في المجامع وتلقي

(١) المصدر السابق ٢٣/٢٩ - ٢٣.

(٢) المصدر السابق ٢٣/١٣ - ١٤.

(٣) المصدر السابق ٢٣/١٥.

(٤) متى هنري ٢/٢٨٧ بتصرف.

التحيات في الساحات العامة، الويل لكم، فإنكم تشبهون القبور المخفية
يمشي الناس عليها وهم لا يعلمون»^(١).

● بالجملة: قال المسيح عليه السلام لليهود «يا أولاد الأفاعي .
كيف تقدرون وأنتم أشرار أن تتكلموا كلاماً صالحاً، لأن الفم يتكلم بما
يفيض به القلب، فالإنسان الصالح من الكنز الصالح في قلبه يطلع ما
هو صالح، والإنسان الشرير يطلع ما هو شرير»^(٢) ولقد سجل القرآن
الكريم قسوة قلوبهم في مواضع عديدة. منها قوله تعالى: ﴿فبما نقضهم
ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾^(٣). كما وصف المسيح رؤوس
الفرق وأتباعهم بقوله «فهم عميان يقودون عمياناً وإذا كان الأعمى يقود
أعمى يسقطان معاً في حفرة»^(٤) وحذر تلاميذه من هذه الفرق ومن
تعاليمهم التي وصفها بالخميرة، وذلك عندما كانوا يسرون معه ونسوا
أن يتزودوا بالخبز، يقول متى في إنجيله «ولما وصل تلاميذه إلى
الشاطئ الآخر كانوا قد نسوا أن يتزودوا خبزاً فقال لهم المسيح:
إنتهوا خذوا حذركم من خمير الفريسيين والصدوقيين، فبدأوا يحاجون
بعضهم بعضاً قائلين: هذا لأننا لم نتزود خبزاً» فقال لهم المسيح:
كيف لا تفهمون أنني لم أكن أعني الخبز حين قلت لكم خذوا حذركم
من خمير الفريسيين والصدوقيين، عندئذ أدرك التلاميذ أنه لم يكن
يحذرهم من خمير الخبز بل من تعاليم الفريسيين والصدوقيين»^(٥) يقول
متى هنري في تفسيره: أدرك التلاميذ أن المقصود بالخمير تعاليم
وطرق الفريسيين والصدوقيين الفاسدة والسيئة. التي دبروا أن تكون قابلة

(١) لوقا ١١/٤٣.

(٢) متى ١٢/٣٣ - ٣٦.

(٣) سورة المائدة آية ١٣.

(٤) متى ١٥/٤.

(٥) المصدر السابق ١٦/٥ - ١٢.

للإنتشار في عقول البشر كالخمير، لقد كان أصحاب هذه الفرقة قادة للشعب. وقد ذاع صيتهم جداً بين الناس. الأمر الذي جعل خطر عدواهم بأخطائهم أشد هولاً، ونحن نستطيع القول: أننا في عصرنا الحاضر يمكننا تشبيه موجة الكفر والألحاد وتسلط روح المادية بخمير الصدوقيين، والبدع والهرطقات بخمير الفريسيين^(١).

ورغم هذه التحذيرات، إنطلقت قافلة النصارى بعد ذلك وراء القديس بولس. الذي يعود اليه تأسيس المسيحية الحاضرة التي تنادي بحق اليهود في ميراث إبراهيم بصفتهم شعب الله المختار، وبولس في رسائله كان يقول «إنني كنت فريسياً. أي تابعاً للمذهب الأكثر تشدداً في ديانتنا»^(٢) وسيأتي الحديث عن ذلك في موضعه.

٤ - [التبشير بالانتقال]

على إمتداد المسيرة تاجرت القافلة الإسرائيلية بهيكل أورشاليم وميراث إبراهيم، ولم يأتهم نبي من الأنبياء إلا وتصدى لهذه المتاجرات، وبين لهم أن الله تعالى لا يصطفي أحداً بالاستخلاف أصطفاءً جزافاً ولا يكرم أحداً إكراماً مطلقاً من غير شرط وقيد، ومن هؤلاء (أرميا) فلقد قال لهم كما ورد في العهد القديم «قال الرب... إصلحوا طرقكم وأعمالكم فأسكنكم في هذا الموضع. لا تتكلوا على كلام الكذب قائلين: هيكل الرب هيكل الرب هو. لأنكم إن أصلحتم أصلاحاً طرقكم وأعمالكم. إن أجريتم عدلاً بين الإنسان وصاحبه. إن لم تظلموا الغريب واليتيم والأرملة ولم تسفكوا دماً زكياً في هذا الموضع، ولم تسيروا وراء آلهة أخرى لإذائكم. فإني أسكنكم في هذا

(١) متى هنري ٢/٤٩.

(٢) أعمال الرسل ٥/٢٦ - ٧.

الموضع في الأرض» وبعد أن بين أرميا شرط الإستخلاف بين أن مسيرتهم لم تكن في إتجاه شرط الله «أُتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً. وتنجزون للبعل وتسирون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها. ثم تأتون وتقفون أمامي في هذا البيت الذي دعي بإسمي عليه. وتقولون قد أنقذنا. حتى تعلموا كل هذه الرجاسات، هل صار هذا البيت الذي دعي بإسمي عليه مغارة لصوص في أعينكم»^(١).

وعندما بعث فيهم المسيح عليه السلام. منذ إدعاءاتهم وطردهم من الهيكل. يقول متى في إنجيله «ثم دخل يسوع الهيكل وطرد من ساحته جميع الذين كانوا يبيعون ويشتررون. وقلب موائد الصيارفة. ومقاعد باعة الحمام. وقال لهم: قد كتب أن بيتي بيتاً للصلاة يدعى، أما أنتم فقد جعلتموه مغارة لصوص»^(٢).

فالقوم تاجروا بالهيكل على إمتداد المسيرة. في الوقت الذي جعلوا فيه البيت مغارة لصوص. كما جاء على لسان أرميا في العهد القديم وعلى لسان المسيح في العهد الجديد، والقوم كانوا يعلمون أن سلوكهم في إتجاه عبادة المادة. يعني إنتقال القيادة إلى غيرهم. وأن أعلام الإستخلاف سيرفعها قوم آخريين. لينظر الله كيف يعملون تحت سقف الإمتحان والإبتلاء. ونصوص سلب أعلام الإستخلاف من أيديهم كثيرة. منها قول أرميا: قال الرب «ها أنذا أنساكم نسياناً وأرفضكم من أمام وجهي أنتم والمدينة التي أعطيتكم وآباءكم إياها. وأجعل عليكم عاراً أبدياً وخزياً أبدياً لا ينسى»^(٣).

فهذا النص يفيد رفض الله لهم وأبدية العار والخزي عليهم. فإفهم

(١) أرميا ٧/٤ - ١١.

(٢) متى ٢١/١٢ - ١٤.

(٣) أرميا ٢٣/٤٠.

ذلك. ثم يقول أرميا «وأجعلك تخدم أعداءك في أرض لم تعرفها. لأنكم أضرمتم ناراً بغضبي تتقد الى الأبد»^(١). وهذا النص يفيد غضب الله على القاسية قلوبهم إلى الأبد، وقبل أرميا قال أشعيا. قال الرب «هو ذا من أجل آثامكم بُعْثُمْ. ومن أجل ذنوبكم طلقت أمكم»^(٢).

والقوم كانوا يعرفون الى أين ستنتقل أعلام الإستخلاف، لكنهم عتموا على هذه البشارات بالتحريف أو بالتغيير. ولقد ذكر أشعيا وغيره هذه البشارات. وفيها رمز الى المكان الجديد بأسماء عديدة منها: العاقر التي لم تلد. وهذا الاسم يعود وفقاً للأوصاف التي ذكرت في أشعيا على بيت الله الحرام بمكة شرفها الله، يقول «ترنمي أيتها العاقر التي لم تلد. أشيدي بالترنم أيتها التي لم تمخض لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل، قال الرب: أوسعني مكان خيمتك ولتبسط شقق مساكنك. لا تمسكي. أطيلي أطنابك وشددي أوتارك لأنك تمدين الى اليمين وإلى اليسار. ويرث نسلك أمماً ويعمر مدناً خربة. لا تخافي لأنك لا تحزنين»^(٣). «قال وليك الرب: لأنه كمياه نوح هذه لي. كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض. هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك. فإن الجبال تزول والآكام تتزعزع. أما إحساني فلا يزول عنك. وعهد سلامي لا يتزعزع»^(٤).

فالنصوص تحدثت عن خراب أبدي داخل الحي اليهودي، وأخبرت عن سلام أبدي لأبناء العاقر التي لم يبدأ أنبيائها بعد في إقامة حجة الله على المسيرة البشرية، ثم يقول أشعيا في ندائه الذي يدعو فيه

(١) المصدر السابق ٢/١٧ - ٤.

(٢) أشعيا ١/٥٠.

(٣) أشعيا ١/٥٤ - ٤.

(٤) المصدر السابق ٧/٥٤ - ١٠.

المسيرة البشرية للتوجه إلى البناء الجديد، الذي بنى الله بالإثمد حجارتة. وأسسها بالياقوت الأزرق. وجعل كل تخومه حجارة كريمة^(١) فيقول: «أيها العطاشى جميعاً هلموا إلى الحياة. وبالذي ليس له فضة تعالوا إشتروا وكلوا. هلموا إشتروا بلا فضة وبلا ثمن»^(٢) ويقول أشعيا موجهاً حديثه إلى مسيرة الحي الإسرائيلى «أما أنتم الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسي»^(٣) فإنى أعينكم للسيف وتجتشون كلكم للذبح. لأنى دعوت فلم تجيبوا. تكلمت فلم تسمعوا. بل عملتم الشر فى عيني الرب وإخترتم ما لم أسر به. لذلك هكذا قال السيد الرب: هوذا عبيدى يأكلون وأنتم تجوعون. هوذا عبيدى يشربون وأنتم تعطشون. هوذا عبيدى يفرحون وأنتم تحزنون. هوذا عبيدى يترنمون من طيبة القلب وأنتم تصرخون من كآبة القلب. ومن إنكسار الروح تولولون. وتخلفون إسمكم لعنة لمختاري فيميتك السيد الرب. ويسمى عبيده إسماً آخر. فالذي يتبرك فى الأرض. يتبرك بإله الحق. والذي يحلف فى الأرض يحلف بإله الحق»^(٤).

● وبالجمله: لقد أخبرهم أشعيا بأن القيادة ستنتقل إلى أمة لا يزول إحسان الله عنها، وأخبرهم بأن قبلة هذه الأمة ليست فى جبل من جبال الحي اليهودي. وإنما ستكون على أرض جديدة وتحت سماء جديدة ولها إسم جديد، قال «ها أنذا خالق سماوات جديدة وأرضاً جديدة. فلا تذكر الأولى ولا تخطر على بال»^(٥) وهذه النصوص التى

(١) أشعيا ٥٤/١١ - ١٣.

(٢) المصدر السابق ١/٥٥ - ٢.

(٣) يشير إلى إختلافهم فى تحديد الجبل الذى توضع عليه البركة. أي الجبل الذى يحدد القبلة.

(٤) أشعيا ٦٥/١١ - ١٥.

(٥) المصدر السابق ٦٥/١٧.

ذكرها أشعيا في العهد القديم. فسرتها رؤيا يوحنا في العهد الجديد. ففي وصفه للبيت الجديد يقول يوحنا «لم أجد في المدينة هيكلًا»^(١). وقال عن البناء الجديد «رأيت سماءً جديدة وأرضاً جديدة لا بحر فيها، لأن السماء والأرض القديمتين قد زالتا، وأنا رأيت المدينة المقدسة أورشاليم الجديدة»^(٢). نازلة من عند الله مجهزة كأنها عروس مزينة لعريسها. وسمعت صوتاً هاتفاً من العرش «الآن صار بيت الله وسط الناس»^(٣)، ثم يقول يوحنا في رؤياه «وكانت أرض المدينة مربعة طولها يساوي عرضها»^(٤)، قال مفسرو الكتاب المقدس: أي مكعبة^(٥) ثم أخبر يوحنا أن أعلام الدعوة الجديدة بيد «الأمين الصادق»^(٦) وهذا الاسم يشير إلى النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم. وهو أيضاً مختصر لسيرته الشريفة قبل البعثة وبعدها، وجاء ذكر الأمين الصادق في رؤيا يوحنا مرتين. المرة الأولى يشير فيها إلى النبي ﷺ وإلى دعوته التي يقول فيها لأهل الكتاب وغيرهم. «نصيحتي إليك أن تشتري مني ذهباً نقياً صنفته النار فنفتني حقاً. وثياب بيضاء ترتديها فتستر عريك المعيب. وكحلاً لشفاء عينيك فيعود إليك البصر. إني أوبخ وأؤدب من أحبه. لذا كنا حاراً وتب»^(٧)، أما المرة الثانية التي ورد فيها اسم «الأمين الصادق» فقد جاءت عندما تحدث يوحنا عن معارك آخر الزمان، وورود الاسم في هذا الموضع يشير إلى المهدي المنتظر، ولقد روى عن النبي

(١) رؤيا يوحنا ٢١/٢٢.

(٢) إشارة إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة.

(٣) رؤيا ٢١/١ - ٤.

(٤) المصدر السابق ٢١/١٦.

(٥) انظر كتابنا المسيح الدجال ط دار الهادي بيروت، ط دار الفتح للإعلام العربي القاهرة.

(٦) الرؤيا ٣/١٤.

(٧) المصدر السابق ٣/١٨ - ٢٠.

صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»^(١) وقال «لا تقوم الساعة حتى يلي رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه إسمي»^(٢) وفي ذكر أحداث آخر الزمان يقول يوحنا في رؤياه «وإذا حصان أبيض يسمى راكبه «الأمين الصادق» الذي يقضي ويحارب بالعدل»^(٣) وفي الحديث الشريف قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلماً وجوراً وعدواناً. ثم يخرج من أهل بيتي من يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»^(٤) وسيأتي الحديث عن المهدي في موضعه.

فالقوم على إمتداد مسيرتهم كانوا على علم بأن الله سينزع الملك من أيديهم ويسلمه إلى أمة أخرى لينظر الله الى قافلته ماذا تفعل تحت سقف الإمتحان والابتلاء، وعندما بعث الله تعالى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام. كانت بعثته آخر ورقة أخرجها الله من الشجرة الإسرائيلية على أنبيائها ورسولها الصلاة والسلام، ولقد أخبرهم المسيح بهذا الإنتقال وبشرهم بالنبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم. وأخبرهم أن دعوة البعثة الخاتمة تقضي بوقوف الإستكمال الإنساني. فعدم نسخ الدين وثبات الشريعة. يستوجب أن الإستكمال الفردي والاجتماعي للإنسان هو هذا المقدار الذي إعتبره الدين الخاتم في بيانه وتشريعه. وباختصار شديد أخبرهم أن شريعة الرسالة الخاتمة هي حكم الله الذي

(١) رواه ابو داوود والحاكم بسندين صحيحين (التاج الجامع للأصول ٥/٣٤٣) (ابو داوود ٤/١٠٧) (كتر العمال ١٤/٢٦٤).

(٢) قال في الفتح الرباني. رواه الامام أحمد وأبو داوود والترمذي بمعناه ونحوه وقال حديث حسن صحيح وأررده الحاكم وصححه (الفتح ٢٤/٤٩).

(٣) رؤيا يوحنا ١٩/١١.

(٤) رواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (المستدرک ٤/٥٥٧).

له ملك السماوات والأرض وإليه مصير الأمور، فمن آمن بها وخضع لها إستظل بأمن صاحب الملكوت سبحانه وتعالى.

● وإخبار المسيح عليه السلام بانتقال القيادة من أمة إلى أمة، جاء في أكثر من موضع في الأناجيل الحاضرة، ومن ذلك. عندما سألته امرأة عن الاتجاه الحقيقي للقبلة بعد أن إختلف اليهود في تحديدها، فبينما تصرح التوراة العبرانية أن القبلة في جبل (عيبال) تصرح التوراة السامرية أن القبلة في جبل (جرزيم)، وكان لهذا الإختلاف أثراً عميقاً في المنازعات التي دارت بين يهود السامرة وبين يهود أورشاليم. على إمتداد المسيرة الإسرائيلية..

جاء في كتاب سيرة المسيح^(١): أن المسيح مر بالسامرة. فأرسل خبراً الى قرية السامرة قصد أن يبيت فيها مع تلاميذه، فهاج التعصب السامري لما سمعوا بقدومه ومعه جماعة من اليهود متجهين إلى أورشاليم ليؤدوا فيها فروض الدين، لأن السامريين يتمسكون بوجوب تأديتها في جبلهم المقدس^(٢)، وهياج التعصب سجله لوقا في إنجيله فقال «وأرسل (المسيح) أمام وجهه رسلاً. فذهبوا ودخلوا قرية للسامريين حتى يعدوا له، فلم يقبلوه لأن وجهه كان متجهاً نحو أورشاليم»^(٣) ويقول يوحنا في إنجيله أن امرأة سامرية قالت يومئذ للمسيح «يا سيدي. أرى إنك نبي. آباؤنا سجدوا في هذا الجبل. وأنتم تقولون إن في أورشاليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه، فأجابها يسوع: صدقيني يا امرأة. ستأتي الساعة التي فيها تعبدون الأب لا في

(١) سيرة المسيح ط- كنيسة قصر الدوبارة القاهرة.

(٢) المصدر السابق ص ٣٢٧.

(٣) لوقا ٩/٥١.

هذا الجبل ولا في أورشاليم»^(١)..

إن الخطوط العريضة لهذا النص تفيد إنتقال القبلية من مكان إلى مكان آخر. فوق أرض جديدة. وتحت سماء جديدة. تتحرك أعلامها لفتح الطريق أمام الفطرة. فيشتري الناس بلا فضة وبلا ثمن. ذهباً نقياً. وثياب بيضاء تستر العري المعيب. وكحللاً يشفي العين فيعود البصر من جديد.

● وبعد ذكر خبر إنتقال القبلية بشرهم المسيح عليه السلام بشريعة الله الذي له ملكوت كل شيء، وهي الشريعة التي كان يوحنا المعمدان يبشرهم بها من قبل، كما بشرهم المسيح عليه السلام بالنبى الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم، جاء في إنجيل متى. أن المسيح دخل هيكل أورشاليم «وفيما هو يمشي في الهيكل. أقبل إليه رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ وقالوا له: بأي سلطان تفعل ما تفعله؟ ومن منحك هذه السلطة؟ فأجابهم يسوع قائلاً: وأنا أيضاً أسألكم أمراً واحداً. فإن أجبتموني أقول لكم أنا كذلك بأي سلطة أفعل ما أفعله، من أين كانت معمودية يوحنا من السماء أم من الناس؟ فتشاوروا فيما بينهم قائلين: إن قلنا له أنها من السماء. يقول لنا فلماذا لم تصدقوه، وإن قلنا من الناس نخشى أن يثور علينا جمهور الشعب لأنهم كانوا يعتبرون يوحنا نبياً فأجابوه: لا ندري. فرد قائلاً: ولا أنا أقول لكم بأي سلطة أفعل ما أفعل»^(٢). يقول متى هنري في تفسيره: عندما عجزوا عن الاعتراف بالمعرفة. إترفوا بالجهل. ثم يلاحظ أيضاً أنهم كانوا كاذبين عندما قالوا: لا نعلم لأنهم كانوا يعرفون أن معمودية يوحنا (يحى) كانت من الله. لقد برهنوا على أنهم ليسوا جديرين بالتحدث معهم. لأن أناساً هذه

(١) يوحنا ٤/٢٢.

(٢) متى ٢١/٢٣ - ٢٨.

جالتهم لا يمكن إقتناعهم بالحق^(١) ثم أخبرهم المسيح عليه السلام بنبوءة فيما بين أيديهم من الكتاب فقال لهم كما جاء في إنجيل متى «ألم تقرأوا في الكتاب: الحجر الذي رفضه البناء هو نفسه صار حجر الزاوية الأساسي. من الرب كان هذا وهو عجيب في أنظارنا. لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله سينزع من أيديكم ويسلم إلى شعب يؤدي ثمره. فأَي من يقع على هذا الحجر يتكسر، ومن يقع الحجر عليه يسحقه سحقاً»^(٢).

والمسيح عليه السلام كان يشير بموضع الحجر الذي رفضه البناء إلى النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم. فلقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله. فجعل الناس يطيفون به يقولون: ما رأينا بنياناً أحسن من هذا ألا هذه اللبنة. فكننت أنا تلك اللبنة»^(٣) وعنه أنه قال «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي. كمثل رجل إبتنى بيوتاً فأحسنها وأجملها وأكملها. إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها. فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون: ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك. فكننت أنا اللبنة»^(٤) وفي رواية «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»^(٥) وفي رواية «فأنا موضع اللبنة. جئت فختمت الأنبياء»^(٦).

وموضع الحجر الذي ورد على لسان المسيح ولسان محمد عليهما الصلاة والسلام وهما يضربان الأمثال للناس. جاء ذكره أيضاً على لسان

(١) متى هنري ٢/٢٢١.

(٢) متى ٢١/٤٢ - ٤٥.

(٣) رواه مسلم (الصحيح ٧/٦٤).

(٤) رواه مسلم (الصحيح ٧/٦٤).

(٥) رواه مسلم (الصحيح ٧/٦٥).

(٦) رواه مسلم (الصحيح ٧/٦٥).

داوود عليه السلام في تسبيحة من تسبيحاته، جاء في العهد القديم أن داوود قال «أحمدك لأنك إستجبت لي وصرت لي خلاصاً. الحجر الذي رفضه البنائون قد صار رأس الزاوية... آه يا رب خلص! آه يا رب انقذ... مبارك الآتي بإسم الرب... الرب هو الله. وقد أنار لنا... الهي أنت. فأحمدك إلهي... إحمدوا الرب لأنه صالح. لأن إلى الأبد رحمته»^(١).

● لقد علم القوم بما في بطون الأيام. وذلك عندما بشرهم الأنبياء وهم يخبرون بالغيب عن ربهم جل وعلا، عرفوا ذلك من داوود بعد أن أقام مملكته. وعرفوه من أشعيا قبل سبي الأسباط العشرة^(٢). وعرفوه من دانيال وحزقيال أثناء سبي مملكة يهوذا^(٣)، وعرفوه من زكريا^(٤) ويوحنا (يحيى) الذي ورث زكريا وورث آل يعقوب. وعندما بعث فيهم المسيح آخر أبناء آل عمران وآخر وريث لآل يعقوب، قال لهم كما أخبر الله في كتابه ﴿وَإِذ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي إِسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾^(٥) فبين لهم ما إختلفوا فيه وأقام عليهم الحجة بالكتاب، ثم بشرهم بخاتم الأنبياء والمرسلين فأقام عليهم الحجة بالبلاغ وبما هو مسطور عندهم في الكتاب وشهد به الله تعالى في قوله ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(٦).

● وبعد أن أتم المسيح عليه السلام دعوته بشطريها. شطر دعوة

(١) مزامير ١١٨/٢٢.

(٢) أشعيا ١٦/٢٨.

(٣) دانيال ٢/٣٥.

(٤) زكريا ٧/٤.

(٥) سورة الصف آية ٦.

(٦) سورة الأعراف آية ١٥٧.

بني إسرائيل الى التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى . وتبينه لهم بعض ما يختلفون فيه ، وشرط التبشير بالنبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم ، وإخبارهم بأن ملكوت الله سينزع من أيديهم ويسلم إلى شعب يؤدي ثمره ، ورد في إنجيل مرقس أن أحد التلاميذ قال للمسيح وهو يغادر الهيكل الأورشاليمي «يا معلم أنظر . ما أجمل هذه الحجارة وهذه المباني العظيمة . فأجاب يسوع : لن يترك منها حجر فوق حجر إلا ويهدم»^(١) وتحققت نبوءة المسيح عليه السلام . فلقد حاصر تيطس الروماني أورشاليم سنة (٧٠ م) حتى سقطت في يده وهدم الهيكل وأشعل فيه النار فلم يبق فيه حجر على حجر لم ينقض . وفي عام (١٢٥ م) طرد الإمبراطور (هادريا) اليهود من أورشاليم . وفي عام (٤٣٥ ميلادية) ألغى الإمبراطور (تيودوسيوس) الحاخامية اليهودية ، وفي عام (٦١٤ م) تخلت فلسطين نهائياً عن زعامة اليهود . وفتحت الأبواب لشعب آخر ليقود المسيرة تحت سقف الإمتحان والابتلاء لينظر الله كيف يعملون . وسيأتي ذلك في موضعه .

(١) مرقس ١٣/٢ .

(ثالثاً) [الشك والتقدم إلى الخلف]

في زمن المسيح عليه السلام بلغت الأحداث ذروتها، عندما عزم اليهود على قتل المسيح لأنه لم يأت لهم بما تهوى أنفسهم. وفضح علمائهم الذين عكفوا على تقاليد آبائهم. وكشف مخططاتهم التي تسعى لتهويد الفطرة بما لم ينزل به الله سلطاناً، ولقد سجلت الأناجيل محاولات اليهود العديدة للفتك بالمسيح وكيف كان اليهود يخافون من تنفيذ محاولاتهم. نظراً لأن الجموع كانوا يعتبرون المسيح عليه السلام رسولاً نبياً مبعوثاً من الله تعالى، يقول متى في إنجيله «ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيين المثليين الذين ضربهما المسيح. أدركوا أنه كان يعنيه هم ومع أنهم كانوا يسعون إلى القبض عليه. فقد كانوا خائفين من الجموع لأنهم كانوا يعتبرونه نبياً»^(١). وسجلت الأناجيل أن المسيح عليه السلام كان يتخفى من اليهود. ولا يظهر لهم عندما يصل إلى علمه أنهم يبحثون عنه. ذكر يوحنا في إنجيله أن المسيح عليه السلام أمر تلاميذه بأن يشاركوا اليهود عيد الخيام «وبعدما ذهب أخوته إلى العيد. ذهب هو أيضاً كما لو كان متخفياً لا ظاهراً، وأخذ اليهود يبحثون عنه في العيد. ويسألون: أين ذاك الرجل. وثارَت بين الجموع مناقشات

(١) متى ٢١/٤٥.

كثيرة حوله فقال بعضهم: إنه صالح. وقال آخرون: لا بل إنه يضلل الشعب. ولكن لم يجرؤ أحد أن يتكلم عنه علناً خوفاً من اليهود^(١). وبالجمله: جاء في إنجيل يوحنا «بدأ يسوع ينتقل في منطقة الجليل متجنباً التجول في منطقة اليهود، لأن اليهود كانوا يسعون إلى قتله»^(٢).

● فالنصوص تفيد أن المسيح عليه السلام كان يتحرك بين الجموع. يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويأمر تلاميذه بمشاركة اليهود الأعياد التي سنّها أنبياء بني إسرائيل، وكان الجموع يعلمون أن المسيح نبياً ليس له من الأمر شيئاً إلا أنه يحمل رسالة الله إلى بني إسرائيل. وإنه عليه السلام كان يأخذ بالأسباب لدفع الضرر عنه، فكان يتخفى من اليهود ولا يدخل منطقتهم. إلا بعد أن يأخذ بالأسباب لتحقيق أمنه وأمن تلاميذه، وذكر الإنجيل كيف كان المسيح يضج من إستكبار القوم وصدّهم عن سبيل الله، رغم ما يقدمه اليهم من علم ومعجزة، وكان يقول «أيها الجيل غير المؤمن إلى متى أبقي معكم. إلى متى أحتملكُم»^(٣). وشأنه في هذا كشأن جميع إخوته الأنبياء. كانوا يشعرون بالحزن عندما لا يأخذ الناس بأسباب الحياة الكريمة التي تحقق لهم السعادة في الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، وكانوا يشكون حزنهم إلى الله تعالى.

ورغم حركة المسيح عليه السلام الواضحة كل الوضوح. إلا أن القوم أحاطوه بعد عهد البعثة بهالات تخرجه من دائرة البشرية إلى الألوهية، ووضعوا في الأناجيل نصوصاً رشحت بهذا المعنى، وعندما جاء بولس وقاد المسيرة أصبحت الوهية المسيح عموداً لدعوته، وبين

(١) يوحنا ٧/١٠ - ١٣.

(٢) يوحنا ٧/١.

(٣) يوحنا ٨/٤١.

النصوص التي تقول بنبوة المسيح وبين التي تقول بألوهيته تعددت الفرق والمذاهب، وكان هذا على حساب الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولما كان للدين الفطري شهود وأمناء على إمتداد المسيرة البشرية، ولما كانت النبوءة هي التي تفسر التاريخ وليس العكس، فإننا لكي نمسك بخيط الأحداث. لا بد أن نتبع الأحداث وفقاً لنصوص أصول النبوءة، فننظر الى الأحداث وحركتها في الأناجيل. ثم نضع ذلك تحت الضوء القرآني، فبهذا وحده نصل الى الحقيقة في مدونات أهل الكتاب، واضعين في الاعتبار أن الحق لا يخص بوجه وعلى أي تقدير، فهو بين السطور حجة على كل من قرأ وإن عتمت على السطور سحب التحريف والتأويل، وهو ظاهر في الكون الواسع وإن حاصرته أدوات الزينة والإغواء، وهو داخل النفس الإنسانية لأن الإنسان مجبول على قبول الحق والخضوع الباطني أمامه. وإن طوقت الأهواء النفس، فالحق واضح المعالم في كل مكان وزمان لأنه حجة بذاته، والحق ينتصر في الدنيا ظاهراً أو باطناً. لأن الله تعالى أوجب على نفسه أن يفنى الباطل بالحق.

ولما كان النصاري يؤمنون بألوهية المسيح. وأن أحد تلاميذه قد خانته وسلمه الى أعدائه. فجردوه من ثيابه. وبصقوا في وجهه. وضربوه على رأسه بعد أن أوسعوه سخرية، ثم ساقوه إلى الصليب. وصلبوا معه لصين. وكان اللسان يسخران منه^(١) ولما كان القرآن الكريم قد نفى ما إدعاه النصاري في حق المسيح، وقال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾^(٢) وقال ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾^(٣) وقال في قصة الصليب ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه

(١) انظر: متى ٢٧/٢٨ - ٤٤.

(٢) سورة المائدة آية ١٧.

(٣) سورة المائدة آية ٧٣.

لهم^(١) فإننا سنلقي ضوءاً على الأحداث كما ذكرت في الأصول. لتظهر الحقيقة من تحت السحب وتكون واضحة وضوح الشمس في كبد السماء، وأول ضوء نلقيه سيكون على التلاميذ. لقولهم أن أحدهم قد خان المسيح. فإذا لم يظهر الخائن تحت الضوء. تصبح الدعوى منهزمة من أساسها ولا يبقى إلا الحق.

١ - [أضواء على أقوال المسيح في تلاميذه]

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي. قَالُوا آمَنَّا وَإِشْهَد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢) قال المفسرون: المراد بهذا الوحي وحي إلهام. كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾^(٣). وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا...﴾^(٤) فالحواريين ألهموا الإيمان فإمتثلوا ما ألهموا. وقيل: ويحتمل أن يكون المراد. وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله. وإستجابوا لك وإنقادوا وتابَعوك فقالوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وعلى هذا فالحواريين ألهموا الإيمان أولاً وإستجابوا. فوهبهم الله تعالى للمسيح لبشروا بين يديه، والمسيح عليه السلام أخبر بهذه الهبة الإلهية له. فقال في آخر أيامه على الأرض وهو يدعو ربه «أظهرت إسمك للناس الذي وهبتهم لي من العالم. كانوا لك فوهبتهم لي، وقد عملوا بكلمتك وعرفوا الآن أن كل ما وهبته لي فهو منك، لأنني نقلت

(١) سورة النساء آية ١٥٧.

(٢) سورة المائدة آية ١١١.

(٣) سورة القصص آية ٧.

(٤) سورة النحل آية ٦٨.

إليهم الوصايا التي أوصيتني بها فقبلوها. . وآمنوا أنك أرسلتني، من أجل هؤلاء أصلي اليك، لست أصلي الآن من أجل العالم. بل من أجل الذين وهبتهم لي لأنهم لك»^(١). وفي آخر أيامه عليه السلام دعا ربه قائلاً: «أريد لهؤلاء الذين وهبتهم لي أن يكونوا معي حيث أكون أنا فليشهدوا مجدي الذي أعطيتني»^(٢).

● من النصوص السابقة علمنا أن القاعدة التي وقف عليها التلاميذ. هي قاعدة الإيمان بالله ورسوله. ولما كنا نبحث عن التلميذ الذي خان المسيح، فلا بد من الوقوف على عدد التلاميذ الذين وقفوا على قاعدة الإيمان من يومهم الأول وحتى يومهم الأخير، بمعنى أنهم إذا كانوا عند البداية إثنا عشر تلميذاً. فيجب أن يكونوا عند الخاتمة إحدى عشر تلميذاً. على اعتبار أن منهم خائن واحد.

جاء في إنجيل مرقس أن المسيح «عين إثني عشر ليلازموه ويرسلهم لبشروا. وتكون لهم سلطة على طرد الشياطين»^(٣) فعلى هذا يكون عند المقدمة إثني عشر تلميذاً، فإذا نظرنا عند الخاتمة يوم القيامة. نجد أنهم لم ينقصوا تلميذاً واحداً، جاء في إنجيل متى أن المسيح قال للتلاميذ «الحق أقول لكم. إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد. متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده. تجلسون أنتم أيضاً على إثني عشر كرسيًا. تدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر»^(٤). قال صاحب سيرة المسيح في تفسيره: أجاب المسيح بما يفيد أنهم ينالون

(١) إنجيل يوحنا ١٧/٦ - ١٠.

(٢) يوحنا ١٧/٢٤.

(٣) مرقس ٣/١٣ - ١٥.

(٤) متى ١٩/٢٧ - ٣٠.

التفاتاً خصوصياً من العناية الإلهية في هذه الدنيا، ثم في الدهر الآتي يرثون الحياة الأبدية^(١).

● فوفقاً لهذه الأصول لا يوجد خائن بين التلاميذ الذين آمنوا بالله ورسوله. وأشهدوا الله ورسوله بأنهم مسلمين كما جاء في القرآن، والذين عملوا بكلمات الله. وقبلوا ما أوصى الله به المسيح كما ذكرت الأناجيل، وبشهادة الإنجيل إنهم عند البداية كانوا إثنا عشر تلميذاً. وعند الخاتمة يدين الإثني عشر تلميذاً أسباط إسرائيل الإثني عشر. ويرثون مع المسيح الحياة الأبدية. فأين الخائن الذي وضعوا على عاتقه قصة الصلب وعلى الصلب نشأت المذاهب والفرق، هناك نص في إنجيل لوقا يقول: «ودخل الشيطان في يهوذا الملقب بالإسخريوطي وهو في عداد الإثني عشر»^(٢). ولكن هذا يعارضه ما جاء في إنجيل مرقس أن المسيح «عين إثني عشر ليلازموه ويرسلهم ليبشروا، وتكون لهم سلطة على طرد الشياطين»^(٣). فكيف تكون ليهوذا الإسخريوطي سلطة على طرد الشياطين أعطاها له المسيح، وبهذه السلطة مارس الدعوة والتبشير تحت رعاية المسيح، ثم يخترقه الشيطان بعد ذلك فيقوم بتسليم المسيح لأعدائه، فيجردوه من ثيابه ويسخرون منه ويبصقون عليه كما ذكر في الإنجيل، ورغم المقدمة التي فتحها يهوذا وما ترتب عليها من نتائج صدت عن سبيل الله. ومزقت أمة النصارى إلى فرق وأحزاب، تحدثنا نصوصاً أخرى بأن يهوذا (وهو ضمن الإثني عشر تلميذاً) دعا له المسيح دعاء ينال به التفاتة خصوصية من العناية الإلهية في هذه الدنيا، ويرث به الحياة الأبدية بعد أن يدين التلاميذ الإثني عشر أسباط إسرائيل الإثني عشر.

(١) سيرة المسيح / ط كنيسة قصر الدوبارة القاهرة ص ٤٠٢.

(٢) لوقا ٢٢/٤.

(٣) مرقس ٣/١٥.

من هذه النصوص نرى أن المقدمة لا تنسجم مع النتيجة، ونرى أن إختيار المسيح ليهودا وإعطائه السلطة على طرد الشياطين منذ البداية. ثم إختراق الشيطان ليهودا بعد ذلك، نرى أن هذا في حد ذاته يهدم قولهم بألوهية المسيح. لأن العلم ووضع الشيء في محله قد إهتز إهتزازاً كبيراً في دائرة يهودا الإسخريوطي في حياته الدنيا، وأن العدل قد إهتز إهتزازاً كبيراً في دائرته في الحياة الأبدية، ولا ندري كيف يجلس يهودا ضمن الإثني عشر تلميذاً ليدين أسباط إسرائيل الإثني عشر على إختلافهم وتفرقهم من بعد ما جاءهم العلم، في الوقت الذي فيه يهودا عموداً فقرياً لإختلاف النصارى وتفرقهم بعد أن جاءهم العلم.

● وإذا نظرنا في القرآن الكريم وتدبرنا آياته الكريمة، نجد أن الله تعالى امتدح الحواريون في أكثر من موضع، وإعتبر شهادتهم حجة على المسيرة الإسرائيلية. وحاذى سبحانه بين قاعدة الحواريين وبين قاعدة الذين آمنوا في الدعوة الخاتمة على نبيها الصلاة والسلام، وفي آيات أخرى، ربط الحواريين والذين آمنوا في الدعوة الخاتمة برباط واحد هو رباط الشهادة لله.

أما المحاذاة بين الحواريين وبين الذين آمنوا. ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ. قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾^(١). والمراد بنصرتهم لله. أن ينصر الذين آمنوا النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم. في سلوك السبيل الذي يسلكه الى الله على بصيرة، ثم جاءت محاذاة الحاضر بالماضي في الدعوة الإلهية. فقال تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ. قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ ومعنى أن الحواريين أنصار الله. أي أنهم أنصاراً لعيسى

(١) سورة الصف آية ١٤.

عليه السلام في سلوك سبيل الله وتوجهه إلى الله، وهو التوحيد وإخلاص العبادة لله .

وأما ربط الحواريين والذين آمنوا برباط واحد هو رباط الشهادة لله، ففي قوله تعالى: ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت وإتبعنا الرسول فإكتبنا مع الشاهدين﴾^(١) ابن كثير في تفسيره: أن الشاهدين هم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم^(٢) . والشاهدين ذكروا في أكثر من موضع بالأنجيل . وأفاض سفر الرؤيا في أوصافهم، وتفسيرات علماء أهل الكتاب كلها تشير إلى أنهم الأمة الخاتمة . ومنهج هذه الأمة بينه (الأمين الصادق) كما جاء في سفر الرؤيا . بأنه يقدم الذهب النقي الذي صفته النار، ويقدم الثياب البيضاء التي تستر العري المعيب . والكحل الذي يشفي العينين فيعود إليهما البصر من جديد .

● وبهذا تنسجم المقدمة مع النتيجة . تنسجم خاتمة دعوة إلهية الى بني إسرائيل مع مقدمة دعوة إلهية للبشرية جمعاء، وعلى هذا يمكن القول أن مقدمة التلميذ الخائن الذي وهبه الله للمسيح . ثم صد عن سبيل الله بعد ذلك . لا تنسجم مع النتيجة التي جاءت في النصوص الكتابية، وعلى هذا الضوء يسقط الإتهام الذي تم توجيهه الى قاعدة الحواريين .

٢ - [الوصايا الأخيرة]

سارت دعوة المسيح عليه السلام بين الصخور وبين القلوب القاسية لتقيم حجتها، وعلى إمتداد الطريق تعددت الأعداء، وتحالف

(١) سورة آل عمران آية ٥٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٦٥ .

اليهود مع خصومهم من الهيروودسيين أنصار الملك هيروودس. لكي
يمسكوا المسيح بكلمة تدينه أمام السلطة الرومانية، يقول إنجيل مرقس
«أرسلوا اليه بعضاً من الفريسيين ومحازبي هيروودس لكي يوقعوه بكلمة
يقولها. فجاءوا وقالوا له: يا معلم نحن نعلم أنك صادق ولا تبالي
بأحد لأنك لا تراعي مقامات الناس. بل تُعلم طريق الله بالحق. أيحل
أن تدفع الجزية للقيصر أم لا؟ أندفعها أم لا ندفع؟ ولكنه إذ علم ريائهم
قال لهم: لماذا تجربونني؟ إحضروا إلي ديناراً لأراه، فأحضروا اليه
ديناراً، فسألهم: لمن هذه الصيرة وهذا النقش؟ فقالوا له: للقيصر. فرد
عليهم قائلاً: إعطوا ما للقيصر للقيصر وما لله لله. فذهلوا منه»^(١).

فلقد تظاهر جنود الملك بالتدين ودخلوا مع الفريسيين أشد فرق
اليهود تعصباً في دائرة واحدة، وإنطلقوا الى المسيح عليه السلام
يحملون اليه سؤالاً يقوم عليه إقتصاد الدولة الرومانية، وكانوا بهذا
السؤال يريدون أن يوقعوا بالمسيح عليه السلام في شباكهم ليسلموه إلى
الحاكم. بحجة أنه يناهض النظام ويضرب إقتصاده في مقتل، ولكن
المسيح تفادى الصدام مع أصحاب القلوب القاسية بالإجابة التي
أذهلتهم.

وعلى هذا المنوال بدأت التحالفات بين اليهود وبين خصومهم
لإصطياد المسيح عليه السلام، وعندما ضاقت الحلقات، بدأ المسيح
عليه السلام يخبر بالغيب عن ربه جلا وعلا. فحدث اليهود بما
سيفعلوه للفتك به وكيف سينجيه الله من أيديهم، وحدث التلاميذ بأنه
سيبقى معهم وقتاً قليلاً وإنهم لن يقدرُوا أن يذهبوا معه إلى حيث
يذهب، وقال لهم إن عنده أمور كثيرة يريد أن يتحدث معهم فيها.
ولكن الوقت لن يسعفه لإتمام ذلك. وسوف يرسل الله اليهم. المحمد.

(١) مرقس ١٢/١٣ - ١٧.

أو المحمود. روح الحق الذي يرشد إلى الحق كله. لأنه لا يقول شيئاً من عنده. بل يخبر بما يسمعه. وتفصيل أقوال المسيح لليهود وللتلاميذ بين دفتي الأناجيل.

● فعندما إشتد صد اليهود عن سبيل الله. وبدأوا يعدون العدة للفتك بالمسيح. قال لهم المسيح «أنا باق معكم وقتاً قليلاً. ثم أعود إلى الذي أرسلني. عندئذ تسعون في طلبي ولا تجدونني. ولا تقدر أن تذهبوا إلى حيث أكون»^(١). ومن الطبيعي أن اليهود لا يستطيعون الصعود إلى السماء. وبعد أن أخبر المسيح عليه السلام اليهود بأمور مستقبلية. قال لتلاميذه «يا أولادي الصغار. سأبقي عندكم وقتاً قصيراً بعد. ثم تطلبونني. ولكني أقول لكم ما سبق أن قلته لليهود. إنكم لا تقدر أن تأتوا حيث أنا ذاهب. وصية جديدة أنا أعطيك. أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا. تحبون بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع إنكم تلاميذي إن كنتم تحبون بعضكم بعضاً. فسأله سمعان بطرس: يا سيد أين تذهب؟ أجابه يسوع: لا تقدر أن تتبعني الآن حيث أذهب ولكنك ستتبعني فيما بعد»^(٢) أي أنه لن يقدر أن يتبعه فيما ستسفر عنه الأحداث. حيث ينتهي الأمر بكف الله أيدي اليهود عن المسيح. ورفعهم إليه، وهذا معنى قوله «لا تقدر أن تتبعني الآن» ثم أخبره بأنه سيتبعه فيما بعد في الحياة الأبدية يوم القيامة. ولا يخلو النص من الإشادة بالإثني عشر. ومعنى أن المسيح يحبهم ويأمرهم بحب بعضهم بعضاً. أن طريق الخيانة مغلق على هذا الدرب.

● ويذكر القرآن الكريم. أن الله تعالى أخبر المسيح عليه السلام بعملية الرفع التي تحدث بها مع اليهود ومع التلاميذ فيما بعد، قال

(١) انجيل يوحنا ٧/٣٤.

(٢) انجيل يوحنا ١٣/٣٤ - ٣٦.

تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(١). قال المفسرون: المراد بالتوفي هنا النوم. كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾^(٢). وروى أن النبي ﷺ كان يقول إذا قام من النوم «الحمد لله الذي أحياناً بعد ما أماتنا»^(٣). والمراد بالرفع إلى الله: أي رفعه إلى السماء. إذ لا مكان لله من سنخ الأمكنة الجسمانية، والآية من قبيل قوله تعالى في ذيل الآية ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، فالمراد برفعه إليه: رفعه بروحه وجسده حياً إلى السماء لأنها محل نزول البركات وسكن الملائكة المكرمين، ومعنى قوله ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إبعاده من الكفار وصونه عن مخالطتهم والوقوع في مجتمعهم المتقذر بقذارة الكفر والجحود، ومعنى قوله ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فالمراد بإتباعه: هو الإتيان على الحق. الإتيان المرضي لله سبحانه، وعلى ذلك يكون الذين يتبعوه هم الحواريين والمستقيمين من النصارى قبل ظهور الإسلام، كما أن المسلمين بعد ظهور الإسلام أتباعه على الحق. قال في الميزان: ومحصل الآية. أن متبعيك من النصارى والمسلمين ستفوق حجتهم على حجة الكافرين بك من اليهود إلى يوم القيامة^(٤).

فبعد هذا البيان الوافي الشافي. بدأ المسيح عليه السلام يحدث الجميع بما ستنتهي إليه الأحداث. وأخبرهم بأنهم لن يقدرُوا أن يتبعوه حيث يذهب. وقال لتلاميذه أنهم سيتبعوه فيما بعد. سيتبعوه بالحجة الدامغة التي تفوق حجة الذين كفروا إلى يوم القيامة، ثم يتبعوه في

(١) سورة آل عمران آية ٥٥.

(٢) سورة الأنعام آية ٦٠.

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٦٦.

(٤) الميزان ٣/٢٠٨.

الحياة الأبدية بعد أن يفصل الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون .

● ولأن معجزة الرفع إلى السماء سيكفر بها البعض وسيأولها البعض الآخر ويضعها في غير موضعها . ولأنه على طريق هذه المعجزة فتن عديدة صنعها اليهود وتنتهي جميعاً الى الدجال . فإن من عدل الله ورحمته أنه أقام الحجة داخل الحي اليهودي . فجاءهم المسيح بالعلم الذي يبين بداية ونهاية المعجزة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة ، والله تعالى أوجب على نفسه فتح الطريق لعباده وهدايتهم اليه . وهو قوله تعالى : ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم﴾^(١) . ولما كان الحواريون في الصدارة من بعد المسيح . فلقد أخبرهم المسيح بأنهم سيشهدون معجزة الرفع ليحدثوا الذين آمنوا بالحقيقة عندما يرى الناس الشبيه على الصليب ، وجاء في إنجيل يوحنا أن المسيح قال للتلاميذ وهو يعدمهم للقيام بالدعوة «الحق الحق أقول لكم : إنكم سترون السماء مفتوحة . وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان»^(٢) فهذا النص يفيد أنهم كانوا في بعض الأوقات يشاهدون نزول الملائكة بالوحي على إمتداد البعثة ، ثم شاهدوا معجزة الرفع التي تنسجم مع طريق نزول الوحي على المسيح ، ليردوا الوحي والرفع الى قدرة الله تعالى وهم يبينون للناس حقيقة الأحداث التي تجري حولهم ، فلا يسقط في فتنها إلا الذين صنعوا الفتن من القاسية قلوبهم ومن شابههم .

● وذكر الأنجيل أن المسيح بشر قبل رفعه (بالمعزى) الذي سيرسله الله ليشهد الشهادة الحق . التي يشهدا التلاميذ للمسيح . لتفوق حجتهم على حجة الكافرين به إلى يوم القيامة ، ذكر يوحنا أن المسيح

(١) سورة التوبة آية ١١٥ .

(٢) انجيل يوحنا ١/٥١ .

قال: «وعندما يأتي المعزى... روح الحق»^(١) «فهو يؤدي إلى الشهادة وتؤدونها لي أنتم أيضاً. لأنكم معي من البداية، قلت لكم هذا لكي لا تتزعزعوا، ستطردون خارج المجامع. بل سيأتي وقت يظن فيه من يقتلكم أنه يؤدي خدمة لله»^(٢). «قلت لكم هذا حتى متى جاء وقت حدوثه تذكرون أنه سبق أن أخبرتكم به. ولم أقل لكم هذا منذ البداية لأنني كنت معكم. أما الآن فإني عائد إلى الذي أرسلني ولا أحد منكم يسألني: أين تذهب؟ عندما أخبرتكم بهذا ملأ الحزن قلوبكم. ولكني أقول لكم الحق: من الأفضل لكم أن أذهب. لأنني إن كنت لا أذهب. لا يأتيكم المعزى... وعندما يجيء يقدم للعالم البرهان على الخطيئة وعلى البر وعلى الدينونة»^(٣) «ما زال عندي أمور كثيرة أقولها لكم. ولكنكم الآن تعجزون عن إحتمالها. ولكن عندما يأتيكم روح الحق. يرشدكم إلى الحق كله. لأنه لا يقول شيئاً من عنده. بل يخبركم بما يسمعه. ويطلعكم على ما سوف يحدث»^(٤).

و(المعزى) الذي بشر به المسيح قبل رفعه إلى السماء، ترجمة للكلمة الإغريقية «البار قليط» ومعناها في قاموس اللغة اليونانية: «المعزى. المحامي. الشفيع. المحمد. المحمود» وورد إسم «بار قليط. فارقليط. باراكليط. والمعزى. والمحامي. والمؤيد» في تراجم إنجيل يوحنا. ويقول الدكتور/ حجازي السقا: والحق أن المسيح نطق لفظ «بير قليط» وهو يترجم: أحمد. ويقول النصارى أن المسيح نطق «باراقليط» وعلى ذلك فليس هو أحمد. أي أن الخلاف في الكسرة والفتحة. فعلى الكسرة يكون إسم أحمد. وعلى الفتحة لا يكون اسم

(١) المصدر السابق ٢٦/١٥.

(٢) المصدر السابق ١/١٦ - ٣.

(٣) المصدر السابق ١٦/٤ - ٩.

(٤) المصدر السابق ١٦/١٢.

أحمد. بل صفته هي المعزى. وهم يعتمدون رواية الفتحة. ثم قدم الدكتور حجازي السقا الدليل على أن بيريكليت إسم والإسم هو أحمد. فمن أراد الوقوف على هذا البحث فعليه بمصدره^(١).

● لقد بشرهم عيسى عليه السلام بالمعزى. أو بالمحامي الذي يدافع عن الفطرة ويشهد الشهادة الحق في أحداث يعجزون عن احتمالها. وعندما بعث النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم قال «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة»^(٢) وقال «أنا أولى الناس بابن مريم. الأنبياء أولاد علات. وليس بيني وبينه نبي»^(٣) وفي لسان العرب في معنى «أولاد علات» أي إنهم لأمهات مختلفة ودينهم واحد. وبنو العلات: بنو رجل واحد من أمهات شتى^(٤).

وبشرهم المسيح بالمعزى أو بأحمد أو بالمحمود أو بالشفيع روح الحق. الذي يرشدهم الى الحق كله. لأنه لا يقول شيئاً من عنده. فما من شفيع إلا بعد إذن الله تعالى. قال تعالى: ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه﴾^(٥). وقال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾^(٦). وقال: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾^(٧). وقال: ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً. وقالوا إتخذ الله ولداً. لقد جئتم شيئاً إدا. تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. ان دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ

(١) انظر كتاب نقد التوراة/ د. حجازي السقا ص ٢٠٧ وما بعدها.

(٢) رواه مسلم (الصحيح ٧/٩٦).

(٣) رواه مسلم (الصحيح ٧/٩٦).

(٤) لسان العرب مادة علل ص ٣٠٨٠.

(٥) سورة يونس آية ٣.

(٦) سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٧) سورة سبأ آية ٢٣.

ولدا. إن كل من في السماوات والأرض إلا أني الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتية يوم القيامة فرداً. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا. فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدا. وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا^(١).

● وبعد أن بشرهم المسيح عليه السلام. رفع عينيه نحو السماء وقال «أنا مجدتك على الأرض وأنجزت العمل الذي كلفتنى»^(٢) «أظهرت إسمك للناس الذين وهبتهم لي من العالم. كانوا لك فوهبتهم لي، وقد عملوا بكلمتك وعرفوا الآن أن كل ما وهبته لي فهو منك. لأنني نقلت اليهم الوصايا التي أوصيتني بها فقبلوها. . وآمنوا إنك أرسلتني من أجل هؤلاء أصلي إليك»^(٣).

● وبتحذير المسيح من الذين يدعون النبوة. وبتبشيريه بروح الحق الذي يرسله الله إلى العالم قبل يوم القيامة. تنتهي دعوة المسيح عليه السلام في بني إسرائيل. وإذا كان العهد القديم قد إنتهى بتبشير ملاخي «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قيل يوم الرب اليوم العظيم المخوف. فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا آتي وأخرب الأرض بلعن»^(٤) فإن العهد الجديد إنتهت آخر بشاراته بالمعزي فأخبرهم المسيح عليه السلام بأن المعزي سيطلعهم على ما سوف يحدث. وعندما بُعث النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم قال له تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَيْنَاهُ لِلنَّاسِ فِي

(١) سورة مريم آية ٨٧.

(٢) يوحنا ١٧ / ٥.

(٣) استثنى النص يهوذا. ولقد بينا أن الخائن لا وجود له في نصوص أخرى.

(٤) ملاخي ٤ / ٥ - ٦.

الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون^(١) وقال: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾^(٢). إلى آخر هذه الآيات التي ضرب الله فيها الكافرين والظالمين بلعن. بعد أن كفروا وكذبوا وإستكبروا ولم يؤمنوا بالبعثة الخاتمة. التي جعلها الله تعالى رحمة للعالمين، وروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة. يهودي أو نصراني. ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به. إلا كان من أصحاب النار»^(٣).

٣ - [الشك المريب]

بعد أن تكاثفت مؤسسات الباطل من أجل الصد عن سبيل الله، بلغت الأحداث ذروتها برفع المسيح عليه السلام، ليكون رفعه آية لا ينكرها المؤمنون بأن القوة جميعاً لله، ويكون في الرفع عقوبة للذين ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم جزاءاً بما قدموا. لتلقى بهم العقوبة في طريق الضنك حتى ينتهي بهم المقر. تحت أعلام المسيح الدجال آخر الزمان، ورفع المسيح عليه السلام جاء ذكره في مزامير داوود وهو يخبر بالغيب عن ربه. قال «لأنك قلت أنت يا رب ملجئي. لا يلاقيك الشر ولا تدنو ضربة من خيمتك. لأنه يوصي ملائكته بك ليحفظوك في كل طرقك. على الأيدي يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك»^(٤). وذكر تعالى في القرآن الكريم أنه حفظ المسيح عليه السلام

(١) سورة البقرة آية ١٥٩.

(٢) سورة النساء آية ٥١.

(٣) رواه مسلم (الصحيح ١/٩٣).

(٤) مزامير ٩/٩١ - ١٠.

على إمتداد دعوته . وذلك في قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ - الى قوله تعالى - ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾^(١) .

وقال تعالى في رفع المسيح عليه السلام ﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا . وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ . وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٢) .

ومن هذه الآيات نعلم (أولاً): أن المسيح عليه السلام لم يتوف بأيديهم لا صلباً ولا غير مصلوب، بل شبه لهم، أي أخذوا غير المسيح عليه السلام فقتلوه أو صلبوه (ثانياً) إن الذين إختلفوا في عيسى أو في قتله لفي شك منه . والشك نقيض اليقين (ثالثاً) إن ما قالوه ترجع أصوله الى الظن . أي الى التخمين .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي ما قتلوه قتل يقين . أو . ما قتلوه أخبرك خبر يقين «بل رفعه الله إليه» أي الى السماء «وكان الله عزيزاً حكيماً» ومعنى العزيز . أي الممتنع فلا يغلبه شيء . وقيل : هو القوي الغالب كل شيء . ومعنى حكيماً : أي الذي يحكم الأشياء ويتقنها . فهو تعالى حكيم في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم .

(١) سورة المائدة آية ١١٠ .

(٢) سورة النساء آية ١٥٥ - ١٥٨ .

● ولما كان الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة. فإنه أقام الحجة على الذين شاهدوا شبيه المسيح على الصليب حتى لا يلتبس عليهم الأمر. ويعتقدوا بأن الشبيه هو المسيح، فلقد أوجب تعالى على تفسير أن يبين لعباده ما يتقون. قال تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾^(١). والمسيح عليه السلام وتلاميذه من بعده أقاموا الحجة على المسيرة أثناء الدعوة وعند ذروة الأحداث وبعدها. ثم بعث النبي الخاتم ﷺ وبين للناس الذي هم فيه مختلفون.

● ومن بين فرق النصارى يوجد من يعتقد بأن المسيح عليه السلام لم يصلب وإنما صلب رجل آخر شبه به. يقول بتراندراسل «كانت طائفة الدوسيين قد ذهبوا إلى أن المسيح لم يكن هو الذي صلب. بل بديل أشبه به. وقد ظهر رأي مماثل لذلك في الإسلام»^(٢).

● وعند البحث عن القاعدة التي ينتسب إليها الشبيه الذي ألقى عليه شبه المسيح عليه السلام، لا نجد إلا قاعدتين لا ثالث لهما. إما أن يكون من الفريق الذي صد عن سبيل الله، وإما أن يكون من التلاميذ الذين أقروا بنصرتهم للمسيح وسلكوا السبيل الذي يسلكه إلى الله، فإذا افترضنا أن الشبيه ينتمي إلى الفريق الكافر بالدعوة. نجد أن هذا الافتراض يؤدي إلى هدم الدعوة من رأس، وذلك لأن الشبيه في هذه الحالة سيعلم على الذين أشرفوا على محاكمته وعلى الجموع بعد ذلك. أنه ليس المسيح حتى يحاكموه ثم يصلبوه، وقد يستغل شيوخ اليهود هذا الإقرار. فيدمرون دعوة المسيح ويغرسون أعمدة دعوتهم على لسان الشبيه، ويترتب على ذلك فتنة الذين آمنوا بالمسيح وانتصار الباطل على الحق وهذا محال. لأن الرفع كان بقدرة العزيز الحكيم الذي له الحكمة

(١) سورة التوبة آية ١١٥.

(٢) حكمة الغرب/ بتراندراسل ص ٢٤٢.

البالغة والحجة الرافعة. الحكيم في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور.

وبالجملة: لم يعلن الشبيه عن إسمه ولم يذكر في أي موطن من المواطن أنه ليس المسيح. كما جاء في الأناجيل. وعلى هذا فلا بد أن يكون الشبيه من القاعدة الثانية. قاعدة التلاميذ. الذين قالوا «نحن أنصار الله» وقالوا ﴿ربنا آمنا بما أنزلت وإتبعنا الرسول فأكتبنا مع الشاهدين﴾^(١) ويؤكد ذلك الأحاديث التي وردت في كتب التفسير. ومنها ما روي أن المسيح عليه السلام قال لتلاميذه «يا معشر الحواريين. أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة حتى يشبه للقوم في صورتني فيقتلوه. فقام شاب من أحدثهم سناً فقال: أنا. فقال له المسيح: هو أنت ذاك. فألقى عليه شبه عيسى. ورفع عيسى من روزنة البيت إلى السماء» وفي رواية «وألقى عليه شبه عيسى حتى كأنه هو. وفتحت روزنة من سقف البيت. وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم فرفع إلى السماء»^(٢).

فإلقاء الشبه على واحد من التلاميذ فيه حفظ للدعوة. لأن حركته على إمتداد المحنة هي حركة التلميذ الذي إمتحن الله قلبه بالإيمان. فلن يتكلم ولن يتحرك إلا وفقاً لتعاليم المسيح. ووفقاً لتوصياته التي تخص هذه المحنة بالذات. لينجو الذين آمنوا ويسقط الذين كفروا في الفتنة.

● ويمكن أن يصل الباحث إلى أن الذي صُلب لم يكن المسيح عليه السلام. إذا تدبر في الأحداث ودقق النظر في أقوال الشبيه. ونحن سنلقي الضوء على حركة الرجل الذي صلب كما جاءت في الأناجيل. وإذا كانت الأناجيل قد قدمتها على أساس أنها حركة المسيح. فإن على الباحث إن يقرأها ويتدبرها على أساس أنها صادرة من الشبيه. وفي

(١) سورة آل عمران آية ٥٢.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير وتفسير البغوي وتفسير ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾.

خاتمة المطاف سيقف الباحث على حقيقة مفادها أن الحركة كانت للشبيه ولم تكن للمسيح. ومن العجيب أن الأحداث على إمتداد المحنة. حملت سؤالاً واحداً. توجه به مجلس الشيوخ المؤلف من رؤساء الكهنة والكتبة وتوجه به الحاكم بيلاطس إلى الرجل الذي صلب. وكان هذا السؤال يحمل صيغة واحدة هي: هل أنت المسيح؟ ومن الأعجب أن رؤساء الكهنة والكتبة. كانوا يعرفون المسيح. فلقد شاهدوه في الهيكل وهو يلقي بمواعظه. وتحدث اليهم وتحدثوا اليه في أكثر من مكان. كما ذكرت الأناجيل^(١). كما أن جنود الدولة كانوا يعرفونه أيضاً. وقد ذهبوا اليه ومعهم بعض اليهود يسألونه عن الجزية. هل يعطونها للدولة أم لا. وكانوا يريدون من وراء ذلك أن يوقعوه تحت عقوبة مناهضة السلطة الرومانية، ولقد أجابهم المسيح يومئذ بقوله «ما لقيصر لقيصر وما لله لله» كما ذكرت الأناجيل^(٢).

● وتبدأ الأحداث أن رؤساء الكهنة والفريسيون بعد أن عقدوا العزم على القبض على المسيح عليه السلام، بعثوا اليه بمجموعة وأوكلوا اليها هذا العمل. وذكرت الأناجيل أن يهوذا الخائن كان معهم، ويذكر إنجيل يوحنا أنهم عندما إقتربوا من المسيح «تقدم نحوهم وقال: من تريدون؟ أجابه: يسوع الناصري. فقال لهم: أنا هو» «فلما قال أنا هو. تراجعوا وسقطوا على الأرض»^(٣) من هذا النص نعلم أن رؤساء الكهنة بعثوا بمجموعة للقبض على المسيح لم يكن فيها أحداً يعرف

(١) انظر: دخول المسيح الى اورشليم (متى ٢١/١ - ١٧)، وتوبيخه للفريسيين وعلماء الشريعة (لوقا ١١/٣٧ - ٥٤) ومحاولة اليهود رجم المسيح (يوحنا ١٠/٢٢ - ٣٩)، طرد الباعة من الهيكل (متى ٢١/١٢ - ١٧، مرقس ١١/١٥ - ١٨، لوقا ١٩/٤٥).

(٢) انظر (متى ٢٢/١٥ - ١٢، مرقس ١٣/١٢ - ١٧، لوقا ٢٠/٢٠ - ٢٦).

(٣) يوحنا ١٨/٤ - ٧.

المسيح وهو الذي ذاع صيته في الآفاق، وشاهده الخاص والعام وهو يحاضر في الهيكل أو وهو يقدم معجزاته، ولم يكن بين المجموعة من يعرف المسيح سوى تلميذه الخائن يهوذا، ولكن النص لم يكشف السبب الذي أدى الى تراجعهم وسقوطهم على الأرض، وإذا تدبرنا ما حدث لهم نجد إما أن يكون المسيح عليه السلام قد رفع في هذه اللحظة فأصابتهم الدهشة وتراجعوا وسقطوا على الأرض. وإما أن يكون شبيه المسيح هو الذي تقدم نحوهم وقال لهم: من تريدون؟ وبين قولهم: يسوع الناصري. وقوله: أنا هو. بدأت تتغير ملامحه لتشبه ملامح المسيح، فتراجعوا وسقطوا على الأرض من هول المفاجأة. في الوقت الذي كان المسيح عليه السلام قد رفع فعلاً. وبالجملية: إما أنهم شاهدوا عملية الرفع وأعقبها مباشرة وجدوا أنفسهم أمام الشبيه. وعلى هذا ظل الشك رداءً لهم على إمتداد الأحداث، وإما أن شاهدوا التلميذ أولاً ثم شاهدوا تغيير ملامحه بعد ذلك، فلبسهم الشك على إمتداد الأحداث، وفي كل من الصورتين تقام الحجة عليهم وعلى من خلفهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة.

● عقب القبض على شبيه المسيح. كان الشك عنواناً رئيسياً في كل محاكمة وقف أمامها الشبيه. جاء في إنجيل متى «وانعقد المجلس اليهودي الأعلى بحضور رؤساء الكهنة والشيوخ كلهم. وبحثوا عن شهادة زور على المسيح ليحكموا عليه بالموت. ولكنهم لم يجدوا.. أخيراً تقدم إثنان وقالوا: هذا قال: إني أقدر أن أهدم هيكل الله وأبنيه في ثلاثة أيام. فوقف رئيس الكهنة وسأله: أما تجيب بشيء على ما يشهد به هذان عليك؟ ولكن يسوع ظل صامتاً فعاد رئيس الكهنة يسأله قال: أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا: هل أنت المسيح؟! فأجابه يسوع: أنت قلت. وأقول لكم أيضاً إنكم منذ الآن سوف ترون ابن الإنسان

جالساً عن يمين القدرة. ثم آتيا على سحب السماء»^(١). وقوله جالساً عن يمين القدرة فيه إشارة الى رفع المسيح بقدرة الله الى السماء. وقوله «ثم آتيا على سحب السماء» فيه إشارة إلى نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان. وروى أن النبي الخاتم ﷺ قال وهو يبين قتال آخر الزمان بين جند الحق وبين جند الباطل «... فيقول بعض المؤمنين لبعض: ما تنتظرون أن تلحقوا بإخوانكم في مرضاة ربكم. من كان عنده فضل طعام فليعد به على أخيه. وصلوا حتى ينفجر الفجر وعجلوا الصلاة ثم أقبلوا على عدوكم. ثم تأخذهم ظلمة لا يبصر أحدهم كفه. فينزل ابن مريم. فيحسر عن أبصارهم وبين أظهرهم رجل عليه لأمة»^(٢). فيقولون من أنت؟ فيقول: أنا عبد الله وكلمته عيسى...»^(٣) وروى أن المسيح سينزل واضعاً كفيه على أجنحة ملكين^(٤).

ومن الدليل أن الشبيه كان يتنبأ بنزول عيسى عليه السلام أنه عندما أخبرهم بمجيء المسيح على سحب السماء. يذكر إنجيل متى. أنهم ضربوه ولطمه بعضهم قائلين «تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك»^(٥).

● وظل الشك رداءً للقوم على امتداد الليل. ويقول لوقا في إنجيله «ولما طلع النهار. اجتمع مجلس شيوخ الشعب المؤلف من رؤساء الكهنة والكتبة وقالوا: إن كنت أنت المسيح فقل لنا!! فقال لهم: إن قلت لكم لا تصدقون. وإن سألتكم لا تجيبوني. إلا إن ابن الإنسان من الآن سيكون جالساً عن يمين قدرة الله»^(٦).

(١) متى ٢٦/٦٠ - ٦٤.

(٢) لأمة/أي درع. ويقال سلاح.

(٣) رواه الطبراني وابن عساكر (تواتر أحاديث نزول المسيح ص ٢٥٣).

(٤) رواه الطبراني وابن عساكر (التواتر ص ١٦٤) (تفسير ابن كثير ١/٥٨٣).

(٥) متى ٢٦/٦٨.

(٦) لوقا ٢٢/٦٦ - ٧٠.

وفي هذا النص سألوه: إن كنت أنت المسيح فقل لنا. فكان رده «إن قلت لكم لا تصدقون» والشبيه على إمتداد محاكمته لم يقل أنه المسيح. فكانوا إذا سألوه هل أنت المسيح؟ قال لمن سأله «أنت قلت» لكنه هنا يقول لهم: إن قلت لكم لا تصدقون.

● ثم إنتقلوا به من الحي اليهودي الى مقر الحاكم بيلاطس. يقول إنجيل متى «ووقف يسوع أمام الحاكم فسأله الحاكم: أنت ملك اليهود؟ أجابه: أنت قلت. وكان رؤساء الكهنة والشيوخ يوجهون ضده الاتهامات وهو صامت لا يرد. فقال له بيلاطس: أما تسمع ما يشهدون به عليك. لكن يسوع لم يجب الحاكم ولو بكلمة حتى تعجب الحاكم كثيراً»^(١).

وعندما علم بيلاطس أن المسيح تابع وفقاً لتقسيم الدولة لسلطة هيرودس. أحاله اليه. وكان هيرودس في أورشليم وقتئذ. وذكر إنجيل لوقا بأنه كان في اشتياق لرؤية المسيح لي شاهد معجزاته. وقال «من هو هذا الذي اسمع عنه مثل هذه الأمور. وكان يرغب في أن يراه»^(٢) وعندما وقف الشبيه في حضرة هيرودس طلب منه أن يرى آية ما تجري على يديه. ولكن الشبيه لا يستطيع أن يقدم معجزة لأنه تلميذاً للمسيح عليه السلام. والمسيح وحده هو الذي يحيي الموتى بإذن الله ويشفي المرضى بإذن الله. يذكر إنجيل لوقا «ولما رأى هيرودس يسوع فرح جداً لأنه كان يتمنى من زمان طويل أن يراه بسبب سماعه الكثير عنه. ويرجو أن يرى آية ما تجري على يديه. فسأله في قضايا كثيرة. أما هو فلم يجبه عن شيء. ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يتهمونه بعنف. فإحتقره

(١) متى ١١/٢٧ - ١٤.

(٢) لوقا ٩/٩.

هيرودس وجنوده وسخر منه»^(١).

وفي هذا النص كفاية على أن الذي تحدث معه هيرودس لم يكن المسيح عليه السلام، وإنما كان شبيهه، فهيرودس كان يتمنى أن يرى المسيح. ويرجو أن يرى آية، والله تعالى أيد المسيح عليه السلام بأكثر من آية، وكان عليه السلام تجري معجزاته في المدن ويوبخ الذين شاهدوها ولم يتوبوا. يقول متى في إنجيله «ثم بدأ يسوع يوبخ المدن التي جرت فيها أكثر معجزاته لكون أهلها لم يتوبوا»^(٢) وهيرودس سأل آية. ومن تعاليم المسيح قوله كما جاء في إنجيل مرقس «ليس الأصحاء هم المحتاجين الى طبيب بل المرضى. ما جئت لأدعو أبراراً بل خاطئين»^(٣) وكان يقول كما جاء في إنجيل متى «ما رأيكم في إنسان قد جاء لكي يخلص الهالكين. ما رأيكم في إنسان كان عنده مئة خروف فضل واحد منها. أفلا يترك التسعة والتسعين في الجبال. ويذهب يبحث عن الضال. الحق أقول لكم: إنه إذا وجدته فإنه يفرح به أكثر من فرحه بالتسعة والتسعين التي لم تضل»^(٤) فوفقاً لهذه النصوص لا يوجد مانع يحول بين هيرودس وبين ما يرجو أن يراه على أيدي المسيح عليه السلام. والدعوة الإلهية في عصر النبوة تفتح للآيات طرقاً عديدة ليؤمن الناس بما وراء المعجزة. ولكن ما حدث في وجود هيرودس وجليسه يدعو إلى العجب. فهيرودس الذي قال عن المسيح يوماً «من هو هذا الذي أسمع عنه هذه الأمور. وكان يرغب في أن يراه»^(٥).

وعندما رآه فرح جداً لأنه كان يرجو أن يرى آية ما تجري على

(١) لوقا ٢٣/٨ - ١٢.

(٢) متى ٢٠/١١.

(٣) مرقس ١٧/٢.

(٤) متى ١٨/١١ - ١٤.

(٥) لوقا ٩/٩.

يديه، وقد علم أن المسيح لن يحول بينه وبين طلبه، لأنه جاء ليدعو الخطائين ويبحث عن الضالين ويقدم المعجزات ويوبخ الذين لم يؤمنوا مهما كان شأنهم، لأنه صادق ولا يبالي بأحد لأنه لا يراعي مقامات الناس. لأنه يُعلم طريق الله بالحق، ولكن النصوص أوردت نتيجة إجتماع هيرودس بالمسيح بما لا تستقيم مع المقدمة، فهيرودس سأله في قضايا كثيرة. أما هو فلم يجبه عن شيء، ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يتهمونه بعنف. وإحتقره هيرودس وجنوده وسخر منه، وهذا الموقف الذي دثره الصمت. لا يمكن أن يفهم إلا على أرضية شبيه المسيح، لأن الشبيه لا يملك أن يقدم آية. فالآيات لله يؤيد بها رسله وهم يقيمون الحجة على الناس، والمسيح عليه السلام أقام حجته ورفعته الله إلى السماء، وبعد المسيح عليه السلام إختبر الله تعالى القافلة الإسرائيلية الإختبار الذي يليق بخاتمة المسيرة، بعد أن إبتلعت العديد من الفتن على إمتداد الطريق.

لقد جلس شبيه المسيح في دائرة الصمت الذي لا يضر، دائرة الصمت فيها والكلام محسوبان بدقة بالغة، حتى لا تنهار الدعوة من رأس. ولكن تفوق حجة الذين آمنوا على حجة الكافرين الى يوم القيامة، وكان عزاء الشبيه وهو يتلقى من الناس الأذى والسخرية، أنه ينصر دين الله، ومن حوله صدى صوت المسيح عليه السلام عندما قال وهو يخاطب التلاميذ «طوبى لكم متى أهانكم الناس وإضطهدوكم وقالوا فيكم من أجلي كل سوء كاذبين. إفرحوا وتهللوا فإن مكافأتكم في السماوات عظيمة. فإنهم هكذا إضطهدوا الأنبياء من قبلكم»^(١). والشبيه كان تحت جميع الضربات التي تم توجيهها اليه. متعلقاً بالثواب الذي سيناله في الآخرة، فقد قال أمام الحاكم بيلاطس «ليست مملكتي من

(١) متى ١١/٥ - ١٣.

هذا العالم»^(١). وهو بهذا يشير الى قول المسيح عليه السلام لتلاميذه «متى جلس ابن الانسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على إثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر»^(٢).

فالشبيه في دائرة الصمت هو في حقيقة الأمر في دائرة المنتصر. وهو في هذه الدائرة يؤدي فريضة الصوم في أسمى معانيها. وقد سئل المسيح عليه السلام يوماً «لماذا يصوم تلاميذ يوحنا وتلاميذ الفريسيين وأما تلاميذك فلا يصومون؟ فأجابهم: هل يقدر أهل العرس أن يصوموا والعريس بينهم. ما دام العريس بينهم لا يقدر أن يصوموا. ولكن ستأتي أيام يكون العريس فيها قد رفع من بينهم. فيومذاك يصومون»^(٣).

إن للصوم معاني وللصوم مراتب بعد رفع المسيح. والشبيه في دائرة الصمت كان يؤدي فريضة. تحفظ للدعوة مكانها في عالم تقدر بقذارة الكفر والطغيان، وفي مصادر الإسلام كان الشبيه يعلم أنه سيقتل لا محالة حين يشبه للقوم في صورة عيسى عليه السلام^(٤). وفي مصادر النصارى كان التلاميذ يعلمون أن في إتباع المسيح مشقة لا يتحملها إلا مؤمن، ومن هذه المشاق عقوبة الصلب لكل من يلعنه المجتمع، ورغم قسوة هذه العقوبة. إلا أن المسيح عليه السلام قال «إن أراد أحد أن يسير ورائي فلينكر نفسه. ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني»^(٥). وحمل الشبيه صليبه. وفي نهاية المطاف نكس رأسه وأسلم الروح.

● وإصابات الفتنة المهلكة الذين يسارعون في الأرض الفساد. ففي

(١) يوحنا ١٨/٣٦.

(٢) متى ١٩/٢٧ - ٣٠.

(٣) مرقس ١٩/٢.

(٤) انظر تفسير ابن كثير لدى قوله تعالى: ﴿وما قتلوه...﴾.

(٥) لوقا ٩/٢٣.

البداية لم يتدبروا الأحداث وسخروا من المصلوب «وسخر منه أيضاً رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ قائلين: خلص غيره أما نفسه فلا يقدر أن يخلص. أهو ملك إسرائيل. فليُنزل الآن عن الصليب فنؤمن به»^(١)، «وعلق بيلاطس لافتة على الصليب مكتوب عليها: يسوع الناصري ملك اليهود، فقرأ اللافتة كثيرون من اليهود.. فقال رؤساء كهنة اليهود لبيلاطس: لا تكتب ملك اليهود. بل إن هذا الإنسان قال أنا ملك اليهود..»^(٢) وفي النهاية إنطلق اليهود نحو طريق طويل. يعملون فيه من أجل ملك اليهود الذي يأتي آخر الزمان وتطرح له الأرض فطيراً وملابس من الصوف وقمحاً حبه بقدر كلاوي الثيران الكبيرة. كما ذكر التلمود، وعندما بعث النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم، تلى على أسماع الجميع حقيقة الأحداث. ومنه قوله تعالى: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله. وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم. وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا إتباع الظن وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً. وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته. ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾^(٣). قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قيل: أي قبل موت عيسى عليه السلام إذا نزل لقتل المسيح الدجال. وقيل: كل كتابي لا يموت إلا وعند احتضاره يتجلى له ما كان جاهلاً به فيؤمن به. لكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له. لقوله تعالى في أول السورة: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾^(٤).

(١) متى ٢٧/٤٣.

(٢) يوحنا ١٩/١٩.

(٣) سورة النساء آية ١٥٧.

(٤) سورة النساء آية ١٨.

فقبل ساعة الموت لا بد من الأخذ بأسباب البحث عن الحقيقة، ولا بد أن تكون فاتحة هذا البحث مستندة على مساند الفطرة. لأنه كما تكون البداية تكون النهاية. والله تعالى ينظر الى عباده كيف يعملون.

٤ - [التقدم إلى الخلف]

أخبر المسيح عليه السلام تلاميذه بأنهم سيضطهدون وسيطردون خارج المجامع. وإنه سيأتي وقت يظن فيه من يقتلهم أنه يؤدي خدمة لله^(١) وفي آخر الدعوة قال المسيح لتلاميذه «حين أرسلتكم بلا صرة مال ولا كيس زاد ولا حذاء. هل إحتجتم إلى شيء. فقالوا: لا فقال لهم: أما الآن فمن عنده صرة مال فليأخذها وكذلك من عنده حقيبة زاد. ومن ليس عنده فليبيع رداءه ويشتري سيفاً»^(٢) لقد كان عليه السلام يعدهم للدفاع عن أنفسهم. وكما نزل الستار على أبناء هارون من بعد موسى وهارون. وهم الذين عينتهم الدعوة الإلهية لتفسير الشريعة، وكما ضاعت أصواتهم في ساحات الضوضاء والغوغاء فلم ترى معالمهم في السطور التي احتوتها الأصول، كذلك نزل الستار على تلاميذ المسيح عليه السلام من بعد رفع المسيح، وضاعت أصواتهم على موائد المجامع. ولم تكن لهم معالم في سطور القرارات التي أصدرتها المجامع عبر تاريخها. ولم يعرف من سيرة تلاميذ المسيح عليه السلام إلا ما أخبرت به الدعوة الإلهية الخاتمة. روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «كونوا كأصحاب عيسى. نصبوا على الخشب ونشروا بالمناشير. موت في طاعة خير من حياة في معصية»^(٣) وبعد إضطهاد الأصحاب جاء العصر الذي اضطهد فيه الأتباع

(١) انظر: يوحنا ١٦/١ - ٣.

(٢) لوقا ٢٢/٣٥ - ٣٧.

(٣) رواه ابن عساكر بن ابن مسعود. والطبراني عن معاذ (كتر العمال ١/٢١٦).

والذين على أثر المسيح. قال تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد...﴾^(١). قال المفسرون: قيل: كان الأخدود بنجران. وكان بها بقايا قوم على دين عيسى بن مريم، وأراد ملك من ملوك حمير كان قد تهود أن يحملهم على اليهودية ويدخلهم فيها، فجمع من كان بنجران على دين المسيح ثم عرض عليهم دين اليهودية، فأبوا عليه وإختاروا القتل. فأتخذ لهم أخدوداً وجمع فيه الحطب وأشعل فيه النيران. فممنهم من أحرق بالنار ومنهم من قتل بالسيف، وقوله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله...﴾ أي ما كرهوا من أولئك المؤمنين إلا إيمانهم بالله. فأحرقوهم لأجل إيمانهم. وقيل: أن لأصحاب الأخدود وقائع متعددة وقعت بالحبشة واليمن والعجم والإشارة في الآية الى جميعها. وذكر ابن كثير أنه في زمن قسطنطين. ألقى النصارى الذين كانوا على دين المسيح عليه السلام في أخدود وقتلوا جميعاً بالنار^(٢). ومن الثابت أن قسطنطين هو الذي دعا إلى مؤتمر نيقية عام ٣٢٥ م. وهو الذي إعتد قانون الإيمان النصراني الذي يقول بألوهية المسيح. كما سنبين في موضعه.

وبالجملة: تم إضطهاد وقتل الذين سلكوا سبيل عيسى عليه السلام. ونزل عليهم الستار كما نزل من قبل على أبناء هارون في صدر المسيرة الإسرائيلية. ورغم نزول الستار إلا أن آثار أقدامهم واضحة على إمتداد الطريق. لأنها أصل من أصول الدعوة يقام به الحجة على كل من يتدبر في الأصول. وهذا الأصل يقود الى الدعوة الخاتمة التي جعلها الله حجة على البشرية جمعاء.

(١) سورة البروج آية ٤ - ٨.

(٢) ابن كثير في تفسيره ٤/٤٩٥.

● بعد حرق الذين آمنوا بالله العزيز الحميد. ظهرت أول رسائل في اللاهوت المسيحي. جاء في تاريخ الكنيسة «إن أقدم رسالة في اللاهوت المسيحي مصدرها بولس»^(١) وهذا يعني أن العمود الفقري للنصرانية التي تقول بلاهوت المسيح يعود وضع خميرته ورعاية أعمدته الى بولس، ويعني أيضاً أن المسيرة النصرانية إنطلقت منذ ذلك الحين بوقود بولس. بعد أن أقيمت عليهم الحجة على إمتداد المسيرة الإسرائيلية وحتى زمن المسيح عليه السلام. بأنه لا إله الا الله، وإنه سبحانه الأول والآخر والظاهر والباطن، وله وحده ميراث السماوات والأرض وجميع موجودات العالم تنتهي في وجودها وآثارها اليه جل شأنه.

ولما كان بولس تعود اليه الخميرة الأولى للمسيرة المسيحية الحاضرة، فإن البحث يقضي بضرورة إلقاء بعض الضوء عليه وعلى إجهاداته. فيما يتعلق بالعمل بالشرعة الموسوية والتبشير بالنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، على إعتبار أن دعوة المسيح عليه السلام كانت تقوم على هذين الإتجاهين.

● أولاً - «من هو بولس»؟:

يقول بولس عن نفسه «إن اليهود جميعاً يعرفون نشأتي من البداية. فقد عشت بين شعبي في أورشاليم منذ صغري. وما داموا يعرفونني من البداية فلو أرادوا لشهدوا. ليشهدوا إنني كنت فريسياً أي تابعاً للمذهب الأكثر تشدداً في ديانتنا»^(٢) ويقول «كنت متفوقاً في الديانة اليهودية على كثيرين من

(١) تاريخ الكنيسة/ لويرم ص ٨٣.

(٢) أعمال الرسل ٢٦/ ٥ - ٧.

أبناء جيلي في أمتي . لكوني غيوراً أكثر منهم جداً على تقاليد آبائي»^(١).

ولقد علمنا فيما سبق أن المسيح عليه السلام حذر من الفريسيين ومن خميرهم . أي من تعاليمهم^(٢) . ولقد كان الفريسيون من أشد الناس خطراً على دعوة المسيح على إمتداد بعثته وبعدها، وبولس نفسه يشهد بذلك . قال «كنت أعتقد أنه يجب أن أبذل غاية جهدي لأقاوم إسم يسوع الناصري، وقد عملت على تنفيذ خطتي في أورشاليم . بتفويض خاص من رؤساء الكهنة، فألقيت من السجن عدداً كبيراً من القديسين، وكنت أعطي صوتي بالموافقة عندما كان المجلس يحكم بإعدامهم، وكم عذبتهم في المجمامع كلها لأجبرهم على التجديف . وقد بلغ حقدي عليهم درجة جعلتني أطاردهم في المدن في خارج البلاد»^(٣) وقال «كنت أضطهد كنيسة الله متطرفاً إلى أقصى حد . ساعياً إلى تخريبها»^(٤).

● ثانياً - «كيفية إعتناق بولس للنصرانية»:

بما أن بولس كان متفوقاً في الديانة اليهودية كما ذكر . فإنه كان يعلم بمنزلة هارون وبنيه في الشريعة اليهودية، والراصد لحركة بولس في إتجاه النصرانية . يجد أنه إدعى لنفسه منزلة هارون لتكون مدخله إلى الحي النصراني، وبعد الدخول إدعى لنفسه أن منهجه لم يتسلمه من إنسان بل من الله، وإنه إطلع على السر الذي لم يطلع عليه بنو البشر في الأجيال الماضية، وقال إن النعمة الموهوبة اليه لم تكن عبثاً . لأنه عمل جاهداً أكثر من الرسل الآخرين، ومن تحت هذا السقف خرجت عقيدة

(١) غلاطية ١/١٤ .

(٢) انظر: متى ٢٢/١٢ - ٣٧ ، متى ٥/١٦ - ١٢ ، مرقس ٨/١٤ - ٢١ ، لوقا ١١/٣٧ - ٥٤ .

(٣) أعمال الرسل ٢٦/١٠ - ١٢ .

(٤) غلاطية ١/١٣ .

بولس. لتعمل من أجل ميراث بني إسرائيل الذي لم تفارق ثقافته فرقة الفريسيين أصحاب التفسير الشفهي (التلمود) على امتداد المسيرة، وبولس نفسه يثبت، هذا الهدف بعد دخوله إلى الحي النصراني. قال «لي رجاء بأنه يحقق الله ما وعد به آبائنا وما زالت أسباط شعبنا الإثني عشر تواظب على العبادة ليل نهار راجية تحقيقه»^(١).

● ومنزلة هارون جاءت على لسان بولس عندما قال «إن الكاهن الأعلى كان يؤخذ من بين الناس، ويعين للقيام بمهمته نيابة عنهم في ما يخص علاقتهم بالله، وذلك لكي يرفع إلى الله التقدمة والذبائح... ولم يكن أحد يتخذ لنفسه هذه الوظيفة الشريفة متى أراد، بل كان يتخذها من دعاء الله إليها كما دعا هارون»^(٢) وعلى هذه الخلفية. ذكر بولس أنه كان في طريقه إلى دمشق لإنجاز مهمة كلف بها. وهي القبض على بعض أتباع المسيح وسوقهم مقيدون إلى أورشليم، وقال «وفيما هو منطلق إلى دمشق وقد أقرب منها. لمع حوله فجأة نور من السماء فوق على الأرض. وسمع صوتاً يقول له: شاول. شاول. لماذا تضطهذي؟ فسأل: من أنت يا سيد؟ فجاءه الجواب: أنا يسوع الذي أنت تضطهده. والآن قم وأدخل المدينة فيقال لك ما يجب أن تفعله»^(٣).

وإذا كان بولس قد ذكر هنا أن المسيح أمره بدخول المدينة ليتلقى الأوامر. فإنه ذكر في موضع آخر أن المسيح عينه خادماً له وحمله رسالة إلى الأمم. قال «فسألت: من أنت يا سيد؟ فأجاب: أنا يسوع الذي أنت تضطهده، أنهض وقف على قدميتك فقد ظهرت لك لأعينك

(١) أعمال الرسل ٢٦/٥ - ٧.

(٢) عبرانيين ١/٥ - ٥.

(٣) أعمال الرسل ٩/٣ - ٧.

خادماً لي، وشاهداً بهذه الرؤيا التي تراني فيها الآن. وبالرؤى التي ستراني فيها بعد اليوم. وسأنقذك من شعبك ومن الأمم التي أرسلتك إليها الآن...»^(١) وعلى خلفية منزلة هارون ومشاهدته نور من السماء لمع حوله فجأة، كتب بولس رسائله «من بولس. وهو رسول لا من قبل الناس ولا بسلطة إنسان، بل بسلطة يسوع المسيح»^(٢) وقال «أيها الأخوة. إن الإنجيل الذي بشرتكم به ليس إنجيلاً بشرياً، فلا أنا تسلمته من إنسان ولا تلقنته تلقيناً، بل جائي باعلان من يسوع المسيح»^(٣)، وقال «أن المسيح قد أرسلني لا لأعبد. بل لأبشر بالإنجيل»^(٤). وقال «ونعمته الموهوبة لي لم تكن عبثاً، إذ عملت جاهداً أكثر من الرسل الآخرين جميعاً، إلا أنني لم أكن أنا العامل بل نعمة الله التي كانت معي»^(٥).

● ثالثاً - «بولس والشرية»:

على إمتداد عهد المسيح عليه السلام. كان يقول «لا تظنوا أنني جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء. ما جئت لألغي بل لأكمل»^(٦)، وعندما جاء بولس وقاد المسيرة ألغى الشريعة. قال «كانت الشريعة هي مؤدبنا حتى مجيء المسيح لكي تبرر على أساس الإيمان، ولكن بعد ما جاء الإيمان تحررنا من سلطة المؤدب، فإنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، لأنكم جميع الذين تعمدتم في المسيح قد لبستم

(١) أعمال الرسل ٢٦/١٥ - ١٧.

(٢) غلاطية ١/١.

(٣) غلاطية ١/١١.

(٤) كورنثوس ١/١٧.

(٥) كور ١/١٠.

(٦) متى ١٧/٥.

المسيح»^(١)، وقال «أثبت الله لنا محبته. إذ ونحن ما زلنا خاطئين مات المسيح عوضاً عنا، وما دمنا الآن قد تبررنا بدمه. فكم بالأحرى نخلص من الغضب الآتي، فإن كنا ونحن أعداء قد تصالحنا مع الله بموت إبنه. فكم بالأحرى نخلص بحياته ونحن مصلحون»^(٢). وقال «يا إخواني. فإنكم بواسطة جسد المسيح الذي مات. قد صرتم أمواتاً بالنسبة للشرعية لكي تصيروا الى آخر. إلى المسيح نفسه»^(٣). وقال «إن المسيح حررنا بالفداء من لعنة الشرية. إذ صار لعنة عوضاً عنا. لأنه قد كتب: ملعون كل من علق على خشبة»^(٤).

وعلى هذا الأساس الذي وضعه بولس. ألغيت الشرية التي جاء أنبياء بني اسرائيل ليبينوها للناس. وليحذرونهم من المخالفة والانحراف الذي يترتب عليه لعنهم إلى يوم القيامة، وبولس ألغى الشرية تحت عنوان: أن المسيح مات عن العصاة في الوقت المعين. وما دام قد مات عوضاً عن الجميع وصار لعنة لأجلهم. فمعنى ذلك أن الجميع قد ماتوا بالنسبة للشرية. وعندما قام المسيح من بين الأموات صاروا اليه ولبسوا فيه. وما دام الأمر كذلك فلا فائدة ترجى من الشرية. لأن الأحياء لا يعيشون بالشرية وإنما بالذي مات عوضاً عنهم ثم قام^(٥)!! ولم يكتفي بولس بإلغاء الشرية. بل هدد العاملين بها. ولا ندري أي إيمان يكون بغير الكتب السماوية وتصديق الأنبياء. وهل عرفنا الإيمان إلا بالناموس الذي هو من أوامر الله.

(١) غلا ٢٣/٣ - ٢٩.

(٢) روما ٧/٥ - ١١.

(٣) روما ٧/٤ - ٥.

(٤) غلا ٣/١٣.

(٥) انظر: كور ١٦/٥، غلا ٢٣/٣ - ٢٩، روما ٧/٥ - ١١.

● رابعاً - «بولس والتبشير بالنبي الخاتم ﷺ»:

بعد أن ألغى بولس الشريعة. ودفع بالقافلة إلى حيث لا ضابط لها فيما تفعل أولاً تفعل. وترتب على هذا ظهور الكثير من الأحمبار والرهبان ليشرعوا للناس ويأكلوا أموال الناس بالباطل. وظهور الكثير من الفرق التي إتخذت عقيدة أرض الميعاد وثقافتها وقوداً لها. وكان الحي النصراني هو الأرض الخصبة لهذه الفرق. نظراً لوجود الحي اليهودي مع الحي النصراني تحت سقف واحد ينتمي إلى بني اسرائيل بالإسم.

● وبولس قام بالتعظيم على نبوة الرسالة الخاتمة. من خلال تصويره لعقيدة ميراث بني إسرائيل. بمعنى أنه تتبع الميراث من عند بدايته. ومن عند البداية ضرب الخط الذي يبعث الله منه النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم. والوعد جاء ذكره في التوراة على النحو التالي «في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لتلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»^(١).

ويقول بولس في هذا الوعد «فإنه قد كتب ان إبراهيم كان له إبنان. أحدهما من الجارية. والآخر من الحرة. أما إبن الجارية فقد ولد حسب الجسد. وأما ابن الحرة فإتماماً للوعد»^(٢) وإبن الجارية الذي يقصده بولس. هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وأمه هاجر عليها السلام. ومن ذريته بعث النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم. أما إبن الحرة الذي يقصده بولس. فهو إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام. وأمه سارة عليها السلام، ومن أبنائه يعقوب ومن ذريته بعث الله أنبياء بني اسرائيل عليهم السلام.

(١) تكوين ١٨/١٥ - ٢٠.

(٢) غلا ٤/٢٢ - ٢٤.

● وبولس وهو يصيغ منهجه للتعتيم على النبوة الخاتمة، راعى أن يكون الحي النصراني خادماً للحي اليهودي، بمعنى أنه قام بتحويل الدعوة المسيحية من السير الى الأمام الى السير نحو الخلف بلا سراج ينير، حتى تقف المسيرة عند الوراء أمام لوحة ميراث بني إسرائيل، ولا تملك المسيرة إلا أن تكون خادمة لهذا العنوان، وعلى إمتداد هذه الخدمة يتم صحن كل شيء في خدمة الحي اليهودي بما في ذلك آيات التبشير بالنبوة الخاتمة.

لقد جرد بولس الحي النصراني من الشريعة التي يتمسك بها الحي اليهودي، وعلى هذا يصبح لا معنى وراء إعتناق اليهودي للنصرانية التي حررها بولس من الشريعة، ولأن النصرانية التي أسسها بولس تعمل تحت سقف الحي اليهودي. فإن وجود النصارى تحت هذا السقف يكون له معنى بأي صورة من الصور، وبولس نفسه يقول «لي رجاء بأن يحقق الله ما وعد به آبائنا. وما زالت أسباط شعبنا الإثني عشر تواظب على العبادة ليل نهار راجية تحقيقه»^(١). وقد علمنا من قبل أن الأسباط الإثني عشر تخص الحي اليهودي، وأن التلاميذ الإثني عشر يخصصوا دعوة المسيح فإنهم ذلك.

● ودفع القافلة النصرانية لخدمة الأهداف اليهودية. نراها في أصول بولس التي تتحدث عن الميراث وتضرب من خلاله آيات التبشير بالنبوة الخاتمة. ومن ذلك قوله «قد سمعتم بتدبير نعمة الله الموهوبة لي لأجلكم. كيف كشف لي السر عن طريق الوحي. كما كتبت قبلاً بإيجاز. ويمكنكم حينما تقرأون ما كتبت أن تدركوا إطلاعي العميق على سر المسيح. ذلك السر الذي لم يطلع عليه بنو البشر في الأجيال الماضية مثلما أعلن اللآت بوحي الروح لرسله القديسين وأنبيائه، وهو:

(١) أعمال الرسل ٢٦/٦ - ٨.

أن الأمم هم شركاء اليهود في الميراث وأعضاء في الجسد معهم. ولهم أيضاً حق الاستفادة من الوعد. وذلك في المسيح يسوع. وبفضل الإنجيل الذي صرت أنا خادماً له^(١).

فالسّر العميق بإيجاز شديد. هو أن الأمم الذين هم بلا شريعة. يمكن أن يكون لهم نصيباً في الميراث إذا وقفوا مع النصارى وهم أيضاً بلا شريعة. تحت سقف المسيح الذي حرر الناس من لعنة الشريعة إذ صار لعنه عوضاً عنهم. لأنه قد كتب: ملعون كل من علق على خشبة. فلكي تصل بركة إبراهيم إلى الأمم. لا بد أن يكون ذلك عن طريق قبول المسيح^(٢). وقبول المسيح من شروطه قبول الإنجيل الذي صار بولس خادماً له. ومن المعلوم أن بولس لم يصاحب المسيح عليه السلام ولم يشر في رسائله أنه رآه أو تحدث معه أو شاهد معجزاته على عهد الدعوة.

ولما كان اليهود على إمتداد مسيرتهم يتمسكون بعقيدة الشعب المختار أي الشعب ذو الدماء النقية الذي يرث الأرض التي كتبها الله لإبراهيم، فإن بولس ألحق النصارى بنسل إبراهيم ولكن عن طريق آخر هو طريق الروح، فقال «وقد وجهت الوعود لإبراهيم ونسله. ولا يقول «وللأنسال» كأنه يشير إلى كثيرين، بل يشير إلى واحد، إذ يقول «ولنسلك» يعني المسيح^(٣) ثم يقول لإتباعه وهو يلحقهم بنسل المسيح «وأما أنتم أيها الأخوة، فأولاد الوعد على أمثال إسحاق، ولكن لما كان في الماضي المولود بحسب الجسد يضطهد المولود بحسب الروح، فكذلك أيضاً يحدث الآن، إنما ماذا يقول الكتاب؟، إطرد الجارية

(١) إفسوس ٣/٣ - ٧.

(٢) غلا ٣/١٣ - ١٤.

(٣) غلا ٣/١٥ - ١٧.

ولبنها. لأن ابن الجارية لا يرث مع ابن الحرة. إذن أيها الأخوة نحن
لسنا أولاد الجارية بل أولاد الحرة»^(١).

ولقد خلط بولس بين الأوراق عندما قال: «ولفظه هاجر. تطلق
على جبل سيناء في بلاد العرب، وتمثل أورشاليم الحالية فإنها مع بنيتها
في العبودية، وأما الثاني. فرمزه الحرة التي تمثل أورشاليم السماوية.
التي هي أمناء»^(٢).

فمنهج بولس فيما يختص بالميراث، أثبت لليهود الحق فيه،
لأنهم أولاد يعقوب بن إسحاق، وهم أصحاب شريعة موسى والأنبياء،
والحي النصراني له الحق في الوعد على أمثال إسحاق. لأنه ينتسب إلى
المسيح بالروح. كما يقول الإنجيل الذي صار بولس خادماً له، والحي
اليهودي مع الحي النصراني في عقيدة بولس. لا يمثلان أورشاليم التي
يتجول فيها بولس وجميع فرق بني إسرائيل. فأورشاليم التي لعن الله
أهلها الذين قتلوا الأنبياء وجعلوا بيته فيها مغارة لصوص، وجاءتها
البعوث من كل مكان لتدمر ما فيها وتسبي أهلها. بعد أن عبدوا البعل
وأقاموا المرتفعات للآلهة المتعددة، أورشاليم هذه لا تخص إلا هاجر
وولدها إسماعيل وذريته العربية كما تقول عقيدة بولس، أما ما يخص
بولس وأتباعه فهي أورشاليم السماوية. أورشاليم الجديدة التي جاء
ذكرها في أسفار الأنبياء كما ذكرنا. ومن أوصافها «أرضها مربعة طولها
يساوي عرضها. وهي متساوية الطول والعرض والارتفاع»^(٣). وقال
مفسرو العهد الجديد: هي مكعبة، «ولن يدخلها شيء نجس ولا ما

(١) غلا ٤/١٨ - ٣١.

(٢) غلا ٤/٢٥ - ٢٦.

(٣) رؤيا ٢١/١٦.

يصنع رجاسة أو كذب»^(١). وأرضها أرض جديدة لا بحر فيها»^(٢).
«ويطل عليها جبل ضخيم عال»^(٣). «ولا يوجد بها هيكلًا»^(٤). «وبنزول
أورشاليم من عند الله يكتب الله عليها إسمه الجديد»^(٥). «ويصير بيت الله
وسط الناس»^(٦). وذكر سفر الرؤيا أن المبعوث إلى أورشاليم الجديدة
هو الشاهد «الأمين الصادق»^(٧).

ففي عقيدة بولس أن أورشاليم هذه لا تخص هاجر وولدها. وإنما
تخص بولس وأتباعه(!!). ونتيجة لخلط الأوراق حدث الضلال على
إمتداد المسيرة، ولم يجني الحي النصراني إلا السراب الذي لا يروي
ظماً ولا يسمن ولا يغني من جوع، وبتأمل أحداث آخر الزمان نجد أن
المسيرة النصرانية التي زودها بولس بوقوده لتكون في خدمة الأهداف
اليهودية، ستكون معلقة في الهواء. حيث لا أرض طالت ولا سماء،
بينما يكون اليهود في هذا الوقت تحت قيادة أمير السلام ابن داوود
ينعمون بما لديهم من مادة وميراث كما يعتقدون، ويقول بولس عن
مكان النصاري في أحداث آخر الزمان «إننا نحن الباقين أحياء إلى حين
عودة الرب لن نسبق الراقدين. لأن الرب نفسه سينزل من السماء حالما
يُدوي أمر الجميع. وينادي رئيس ملائكة ويبوق في بوق إلهي، عندئذ
يقوم الأموات في المسيح أولاً، ثم إننا نحن الباقين أحياء نختطف
جميعاً في السحب للإجتماع بالرب في الهواء، وهكذا نبقي مع الرب

(١) رؤيا ٢١/٢٧.

(٢) رؤيا ٢١/١.

(٣) رؤيا ٢١/١٠.

(٤) رؤيا ٢١/٢٢.

(٥) رؤيا ٣/٣.

(٦) رؤيا ٢١/٣.

(٧) رؤيا ٣/٣ - ٢٠.

على الدوام. لذلك عزوا بعضكم بعضاً بهذا الكلام»^(١). وبهذا الكلام ينتهي الأمر بفوز اليهود بالميراث الذي كان بولس يرجو من الله أن يحققه. بعد أن وعد به آباءه من بني إسرائيل. وظلت أسباط الشعب الإثني عشر تواظب على العبادة ليل نهار. راجية تحقيقه. وينتهي الأمر أيضاً بالحي النصراني وسط السحاب في الهواء، ليملاً كفيه بالسحاب أو بالهواء.

وبعد إلقاء بعض الضوء على أطروحة بولس داخل الحي النصراني، نسجل هنا أقوال بعض علماء مقارنة الأديان، يقول يواكيم برنز «لقد كان بولس سباقاً إلى قبول فكرة انفصال المسيحية عن اليهودية. ومهد بإنشاء العقيدة المناسبة»^(٢)، ويقول د. جوستاف لوبون «إن بولس أسس بإسم يسوع ديناً لا يفقهه يسوع لو كان حياً، ولو قيل للحواريين الإثني عشر إن الله تجسد في يسوع ما أدركوا هذه الفضيحة ولرفعوا أصواتهم محتجين»^(٣)، ويقول د. شارل جنيبر رئيس قسم الأديان بجامعة باريس «لقد تجاهل بولس فكرة عيسى الناصري ولم يتجه إلا إلى عيسى المصلوب، فتصوره شخصية إلهية تسبق العالم نفسه في الوجود. رجل سماوي احتفظ الله به إلى جانبه، أمداً طويلاً، حتى نزل إلى الأرض لينشئ فيها حقاً لبشرية جديدة يكون هو دمها، وهذه العقيدة تنتهي إذا سمح لنا باستخدام هذا التعبير. إلى ثمرة تبعث كثيراً على الإستغراب. هي أن عيسى يصور لنا إبناً لله. ولكن فكرة الله بالنسبة لبولس تدخل ضمن ميراثه من العقيدة اليهودية، فكيف إذن يتأتى تصور أن يكون لله إبن. وهذا لا يمت بصلة إلى العقيدة اليهودية»^(٤)، ويقول

(١) تسالونيكي ١٦/٤.

(٢) باباوات من الحي اليهودي/ يواكيم برنز ص ٧٤.

(٣) حياة الحقائق/ جوستاف لوبون ص ١٨٧.

(٤) المسيحية ونشأتها وتطورها/ شارل جنيبر ص ١٠٥.

الكردنال دانيلو: «إن المسيحيين المخلصين يعتبرون بولس خائناً، وتصفه وثائق مسيحية بالعدو، وتتهمه بالتواطىء التكتيكي»^(١).

● خامساً - «فرض العقيدة البوليسية»:

وضع بولس الذي كان ينتمي الى طائفة الفريسيين خميرته داخل الحي النصراني الذي يقف تحت السقف اليهودي، ولم تكن خميرة بولس ضارة باليهود وإنما كانت في خدمتهم، ثم إتسعت الخميرة بعد ذلك بفضل المراكز الثقافية التي كانت فرقة الفريسيون تشرف عليها، وهذه المراكز قامت أعمدتها على تعاليم الماسونية، وكان بولس يتردد على هذه المراكز^(٢)، وكان يصدر أوامر صارمة الى تلاميذه بأن يقتدوا به، وأن يعتزلوا كل من يخالفهم وأن يتبھوا إلى مثيري الإنقسامات حول تعاليمه.

وذكر المحققون أن بولس كان نشيطاً دائماً الحركة ذا قوى لا تكل وذا نفس لا تمل، وكان شديد الذكاء بارع الحيلة قوي الفكر، يدبر الأمور لما يريد، ويسدد السهام لغاياته ومآربه فيصيبها، إستطاع أن يحمل أكثر الناس على نسيان ماضيه وأن يندمجوا في شخصه حتى يصير هو كل شيء. وهم لا يستطيعون رد قوله، ولقد خطى بولس خطواته الواسعة مستفيداً من حداثة عهد الناس بالمسيحية. وبعلاقته بالكهنة والحكام وأصحاب السلطة، وأخذ بولس في التطواف في الأقاليم. يقوم بالدعاية ويلقي الخطب. ويكتب الرسائل. حتى أن رسائله كانت هي الرسائل التعليمية بما اشتملت عليه من مبادئ في الإعتقاد وبعض

(١) حقيقة التبشير/ أحمد عبد الوهاب ص ٥٩.

(٢) انظر: كتابنا عقيدة الدجال ط دار الهادي بيروت.

الشرائع العملية^(١).

وبالنظر في رسائل بولس لمعرفة منهجه في نشر دعوته نجده يقول في رسالة «كونوا جميعاً أيها الأخوة مقتدين بي. ولاحظوا الذين يسلكون بحسب القدرة التي ترونها فينا. فإن كثيرين ممن يسلكون بينكم. وقد ذكرتهم بكم مراراً. واذكرهم الآن أيضاً، إنما هي إعداء لصليب المسيح»^(٢) ويقول في رسالة أخرى وقد ضج من الذين تصدوا لتعاليمه «أتوسل اليكم أيها الأخوة. أن تنتبهوا الى مشى الإنقسامات والعثرات خلافاً للتعليم الذي تعلمتم. وأن تبتعدوا عنهم»^(٣) وفي رسالة يقول «أوصيكم أيها الأخوة باسم ربنا يسوع المسيح. ان تعتزلوا عن كل أخ يسلك سلوكاً فوضوياً لا يوافق التعليم الذي تلقيتهم منا»^(٤) ويبدو أن المعارضين لتعاليمه قد تصدوا لهذه التعاليم في بداية الأمر. مما أدى الى أن يلوح لهم بولس بقبضته الحديدية مهدداً لهم بالعقاب. يقول في رسالة من رسائله «لي ثقة بكم في الرب. إنكم لن تعتنقوا رأياً آخر. وكل من يشير البلبلة بينكم سيتلقى عقاب ذلك كائناً من كان»^(٥).

وإستغل بولس علاقته للملوك وأصحاب السلطة في ضرب المعارضة، فأمر أتباعه بالدخول تحت سقف السلطة وذلك بالدعاء للحكام والخضوع لقانونهم، في الوقت الذي كان اليهود يخضعون فيه لقانونهم المستمد من الشريعة تحت رعاية الكهنة والشيوخ، قال بولس في رسائله «ذكر المؤمنين أن يخضعوا للحكام والسلطات ويطيعوا

(١) المقارنات/ د. محمد الصادقي ص ٦٤.

(٢) فليبي ١٧/٣ - ١٨.

(٣) روما ١٧/١٦.

(٤) تسالونيكي ٦/٣ - ٨.

(٥) غلاطية ١٠/٥.

القانون»^(١) وقال «أطلب قبل كل شيء. أن تقيموا الطلبات الحارة والصلوات والتضرعات والتشكرات لأجل جميع الناس، ولأجل الملوك وأصحاب السلطة لكي نعيش حياة مطمئنة هادئة»^(٢).

● سادساً - «الطريق إلى الأمم»:

وضع بولس منهجه وسط ساحة زمنية تربط بين دعوتين إلهيتين. الدعوة الإلهية إلى بني إسرائيل والدعوة الإلهية الخاتمة إلى البشرية كافة، وبولس في منهجه أعطى للمسيح صفة الديمومة. أي صفة الألوهية. وربط أتباعه بهذه الصفة. . . ومعنى هذا أنه أغلق باب التوبة. بمعنى: إذا كانوا مع المسيح والمسيح فيهم. فما الجدوى من وراء التوبة؟ وترتب على ذلك عدم إلتفات أتباعه إلى آية تدعو إلى الرجوع إلى الله.

وبولس عندما جرد مسيرته من الشريعة الموسوية. ألقى داخل ساحات الأمم حيث الشرائع المتعددة للعقائد المتعددة. التي يشرف عليها كهنة الوثنية والملوك الذين أقاموا ملكهم على ثقافة تقول: أن في عروقهم تجري دماء الآلهة، ودخول بولس إلى ساحة الأمم كان معولاً آخر ضرب به تعاليم المسيح عليه السلام، وكان المسيح قد حدد ساحة بني إسرائيل دون غيرها لدعوته. وجاء في إنجيل متى أن امرأة كنعانية طلبت من المسيح أن يشفي ابنتها المجنونة، لكنه لم يجيبها بكلمة، وعندما قال له التلاميذ «إصرفها لأنها تصيح وراءنا. أجابهم: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»^(٣)، وقال متى هنري في تفسيره أي

(١) تيطس ١/٣.

(٢) ثيموثاوس ٢/٢ - ٣.

(٣) متى ٢٥/١٥.

أنتم تعلمون أنني لم أرسل إلا لهذه الغاية . وهذه المرأة ليست من خراف بيت اسرائيل . فهل ترضون بأن أتعدى حدود إرساليتي»^(١).

وترتب على دخول بولس الى الساحة الأممية . أن الحي النصراني الذي يشرف عليه بولس . إمتص كثيراً من العقائد والثقافات الوثنية، ومع هذه الأحوال رتعت الأهواء التي تلبست بالدين وأغلقت باب التوبة، فلم يقف على أبواب التوبة من هضم الوثنية ومن إعتقد بأن المسيح حرره من لعنة الناموس وأن المسيح عندما قام من بين الأموات صار اليه ولبس فيه، وفي إمتصاص المسيحية للوثنية يقول ديورانت في قصة الحضارة: «إن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها»^(٢) بعد أن هضمت تقاليد العقل الوثني فكرة المسيح الإله^(٣) وقصارى القول: أن المسيحية كانت آخر شيء إبتدعه العالم الوثني القديم^(٤).

● وعلى الساحة الوثنية تعددت الآراء لعدم إستقرار الفطرة على ما فطرها الله عليه، وإنعقدت المجمع المسيحية للبحث عن ثوب يخفي العرى المعيب، فكان مجمع نيقية (٣٢٥ م) وتصدى المجتمعون فيه إلى عقيدة الوجدانية التي قال بها آريوس، وأقر المجمع عقيدة المسيح الإله، ثم جاء مجمع القسطنطينية (٣٨١ م) ليقر الوهية الروح القدس، ثم مجمع أفسس (٤٣١ م) وأقر أن المسيح له طبيعة واحدة ومشية واحدة، ثم مجمع خلقيدونية (٤٥١ م) وأقر أن المسيح له طبيعتان ومشيتان، وتوالت المجمع لتزيل الإشكال، فما يلبث الإشكال حتى يصير الف إشكال.

(١) متى هنري ١/٢٧ .

(٢) قصة الحضارة/ ديورانت مجلد ١١، ب ٢٧، ف ٢، ص ٢٧٦ .

(٣) المصدر السابق مجلد ١١، ف ٥، ب ٢٨، ص ٣٢٠ .

(٤) المصدر السابق مجلد ١١، ف ٢، ب ٢٧، ص ٢٧٦ .

● لقد كانت فتنة . إجمعت أطرافها عند عنوان : أرض الميعاد ، وروى أن النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم قال «وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال»^(١).

● سابعاً - «الخاتمة»:

أقام الله حجته على بني إسرائيل بإرساله الأنبياء والرسل اليهم ، وقام الأنبياء والرسل بإرشاد القافلة الإسرائيلية الى ما فيه سعادتهم وأخبروهم بما يستقبلهم من أحداث في بطن الغيب وهم يخبرون بالغيب عن الله تعالى ، وحذروهم من مقدمات يترتب عليها فتن تقودهم إلى نتيجة لعن الله أتباعها الى يوم القيامة ، وبشروهم بأبواب يفتحها الله لطف منه تعالى بعباده ، وعلى الأبواب هداه عينهم الله وحدد أوصافهم ، وأخبروهم أن من أخذ بالأسباب للوقوف على هذه الأبواب وإتبع الذين عينهم الله وحددهم وعمل صالحاً فقد نجا .

● وعلى إمتداد المسيرة الإسرائيلية صار الصالح والطالح تحت سقف الإمتحان والابتلاء . لينظر الله الى عباده كيف يعملون ، وإنقسمت المسيرة على نفسها ، وإنتهى الاختلاف والافتراق بعد العلم إلى عبادة البعل وأقامت المرتفعات لآلهة الأمم المتعددة ، وعلى هذه الرقعة إقتتلوا فيما بينهم على الملك ، ونتيجة لظلمهم بعث الله عليهم البعوث ، وتم سبي مملكة إسرائيل بواسطة آشور . وسبي مملكة يهوذا بواسطة بابل ، وبعد السبي الأول وقع اليهود تحت حكم خمسة دول : فارس (٥٣٨ - ٣٣٣ ق.م) اليونان (٣٣٣ - ٣٢٣ ق.م) مصر (٣٢٣ - ٢٠٤ ق.م) سوريا (٢٠٤ - ١٦٧ ق.م) فترة المكابيين - وهي فترة إستقل فيها اليهود من

(١) رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٢٤/٦٩).

الناحية العملية (١٦٧- ٦٣ ق.م) روما (٦٣ - ق.م - ٦٣٣م) وأثناء حكمها جاء الفتح الإسلامي.

● وفي خاتمة الدعوة الإلهية الى بني إسرائيل. بعث الله اليهم المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، وعلى إمتداد دعوته قامت الفرق اليهودية التي وقعت في فتنة الميراث وملحقاتها بالصد عن سبيل الله، وصدع المسيح عليه السلام بالحق فبين لهم ما إختلفوا فيه وبشرهم بالنبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم. وهو يخبرهم بأن ملكوت الله سينزع من أيديهم ويسلم إلى شعب آخر، وتكاثفت المجامع اليهودية من أجل القضاء على المسيح ودعوته، ولكن الله كف أيديهم عنه ورفعهم اليه، وبعد رفع المسيح اضطهد اليهود تلاميذه وكان قد أخبرهم بهذا الاضطهاد والقتل، وفي هذه الآونة ظهر بولس على الساحة. وكان من أشد أعداء الدعوة، وبولس ينتمي الى طائفة الفريسيين وهي طائفة متطرفة حذر المسيح تلاميذه من تعاليمها، وعندما بدأ بولس يمارس الدعوة باسم المسيح «حاول أن ينضم الى التلاميذ فخافوا منه. إذ لم يصدقوا أنه صار تلميذ»^(١)، وبدأ بولس مهمته التي غير فيها دين المسيح، وصارت المسيحية الحاضرة مطبوعة بطابعة منسوبة اليه.

● وعلى إمتداد المسيرة الإسرائيلية. دمر هيكل سليمان في عهد نبوخذ ناصر (٥٨٦ ق.م) ثم دمر الهيكل الذي أعاده عزراً ونحميا (١٣٥ ق.م) وبعد أن أعيد بناؤه تم تدميره بواسطة الإمبراطور تيطس (٧٠م) وقام الإمبراطور هادريان بطرد اليهود من أورشاليم (١٣٥ م) وألغى الإمبراطور ثيودوسيوس الحاخامية اليهودية (٤٣٥ م).

● وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الدعوة الخاتمة على نبيها وآله الصلاة واذكى السلام. ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره

(١) أعمال الرسل ٩/٢٦.

ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»^(١).

وبعد رفع المسيح عليه السلام. لم يُعرف إلا التزر اليسير عن تلاميذه، وكان عليه السلام قد أخبرهم بأنهم سيضطهدون ويقتلون، وفي هذه الآونة ظهر بولس على الساحة، وكان من أشد الناس على الدعوة، وكان يعمل بكل ما في وسعه لإعتقال المؤمنين بها، وبولس ينتمي الى طائفة الفريسيين. وهي طائفة تقوم ثقافتها على التفسير الشفهي للناموس (التلمود). وقد حذر المسيح عليه السلام تلاميذه من تعاليم هذه الطائفة، ودخل بولس إلى النصرانية بحجة أنه رأى المسيح على طريق دمشق، وأن المسيح عينه تلميذاً له، وعندما ذهب بولس إلى أورشليم إتجه نحو التلاميذ لينال منهم شرعية الدعوة أمام الجموع، وجاء في سفر أعمال الرسل «أنه حاول أن ينضم إلى التلاميذ. فخافوا منه. إذ لم يصدقوا أنه صار تلميذاً»^(٢)، ولكن بولس مارس الدعوة بما له من ذكاء. وما له من جاه. عند شيوخ اليهود وملوك وحكام الأقاليم، وبدأ بولس في تنفيذ برنامجه. فألغى الشريعة داخل الحي النصراني. وشكك في أحقية إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام في الميراث، وعلى هذا الأصل صد عن سبيل النبي الخاتم وبشاراته في التوراة والإنجيل، ثم توجه بقافلته نحو الأمم، وهو ما لم يفعله المسيح عليه السلام، ودخول بولس بدعوته الى ساحة الأمم يعطي: كرهه لتعاليم المسيح أولاً، وإنشاء قاعدة تكون في خدمة أهدافه القريبة وأهداف اليهود البعيدة ثانياً، والصد عن سبيل الدعوة الخاتمة ثالثاً، وذلك لأن المسيح لم يتقدم الى الساحة الأممية لأن منهجه يخاطب بني اسرائيل، وكان

(١) سورة الصف آية ٨ - ٩.

(٢) أعمال الرسل ٩/٢٦.

المسيح يبشر في نفس الوقت بالنبي الأمي وأمه الأمية، وهذا يعطي أن الدعوة الخاتمة دعوة عامة. متوجهة إلى البشرية كافة، وبولس بصفته كان متفوقاً في الديانة اليهودية كما قال عن نفسه، كان يعلم أن الرسالة الخاتمة ستخاطب الأمم، لهذا تقدم نحو الأمم ليضع وقوده الذي يُسير القافلة نحو أهداف محددة، ويكون عائقاً أمام دعوة محددة. وبعد جهد متواصل، أصبح بولس عنواناً للمسيحية، وصارت المسيحية الحاضرة مطبوعة بطابعه منسوبة إليه، ومما يذكر أن الشواهد الكتابية لهذه المسيرة هي: أناجيل: متى ما مرقس، لوقا، يوحنا، أعمال الرسل، الرؤيا.

● وبالجملية: بعد سبي اليهود. حكم فلسطين خمسة دول هي: فارس (٥٣٨ - ٣٣٣ ق.م) واليونان (٣٣٣ - ٣٢٣ ق.م) ومصر (٣٢٣ - ٢٠٤ ق.م) وسوريا (٢٠٤ - ١٦٧ ق.م) ثم فترة المكابيين^(١) (١٦٧ - ٦٣ ق.م) وروما (٦٣ ق.م - ٦٣٣ ميلادية).

● وأهم الأحداث التي وقعت في الحي اليهودي: تدمير هيكل سليمان في عهد نبوخذ ناصر (٥٨٦ ق.م) وتدمير الهيكل الذي أعاده عزراً ونحميا (١٣٥ ق.م) وبعد إعادة بناء الهيكل. دمره الإمبراطور تيطس (٧٠ ميلادية) وقام الإمبراطور هادريان بطرد اليهود من أورشليم (عام ١٣٥ ميلادية) وألغى الإمبراطور ثيودوسيوس الحاخامية اليهودية عام (٤٣٥ ميلادية).

● وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الدعوة الخاتمة ليقم الله بها حجته على العالمين. ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾^(٢)

(١) هي فترة استقل اليهود فيها من الناحية العملية.

(٢) سورة الصف آية ٨ - ٩.

... وجاء الحق

● وجاء الحق

أولاً - [الدعوة الخاتمة وأهل الكتاب]

على أعتاب الدعوة الإلهية الخاتمة كانت الساحة الإنسانية ترتع فيها أعلام المادية. التي لا يريد أصحابها إلا الحياة الدنيا وزينتها. ولا يرجون بعثاً ولا نشوراً. ولا يعبأون بشيء من الفضائل المعنوية والروحية، وفي مقابل أصحاب المادة. رفع دعاة الروح أعلامهم. وإنطلقوا في مسيرة يرفضون فيها الكمالات الجسمية التي أظهرها الله تعالى في مظاهر النشأة المادية. لتكون ذريعة كاملة إلى نيل ما خلق لأجله الإنسان، وسارت القافلة البشرية تحت هذه الأعلام التي لا تحقق السعادة في الدنيا، لأن حملة الأعلام المادية أبطلوا النتيجة بالوقوف على سببها والجمود عليه، وحملة أعلام الروح أبطلوا النتيجة بإبطال سببها.

كانت المسيرة البشرية في حاجة وسط يقف بين الطرفين. ويقودهما إلى الهدف الذي من أجله خلق الله الإنسان، وسط لا إلى هذا الطرف ولا إلى ذاك الطرف. وإنما يقف بين الجانبين جانب الجسم

وجانب الروح، وبه يقاس ويوزن كل من طرفي الإفراط والتفريط، ليكون شهيداً على سائر الناس الواقعة في الأطراف.

ومن لطف الله تعالى ورحمته بالعباد، بعث سبحانه النبي الخاتم، النبي الأمي العربي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ليقود أمة تحمل للبشرية ديناً يهدي الناس إلى وسط الطرفين. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

- [دعوة أهل الكتاب]

أولاً - (الدعوة إلى التوحيد الحق):

توجهت الدعوة الإلهية الخاتمة إلى البشرية كافة، وأن أهل الكتاب بينهم من يعرفون الحق ومعارف الدين، وفيهم رهبان وزهاد يعرفون عظمة ربهم ولا يستكبرون، وفيهم الباحث عن الحقيقة، توجهت الدعوة إليهم من طرق عديدة لتحيطهم بالحجة من كل مكان. وبين الله تعالى لهم أن رسوله الخاتم ﷺ هو النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من إتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾^(١)، والمعنى: أن الرسول يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه وإفترخوا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروا ولا فائدة في بيانه، وأن دعوته تدعو إلى الصراط المستقيم المهين على الطرق كلها.

(١) سورة المائدة آية ١٥.

ونظراً لأن مسيرة اليهود رشحت عليها عقائد الأمم الوثنية، وحمل التوحيد على إمتداد مسيرتهم بصمات الألهة المتعددة، حتى صار الإله في نهاية المطاف إلهاً خاصاً ببني اسرائيل دون غيرهم من الأمم، ونظراً لأن الأحرار والرهبان بدلوا الدين الذي بعث به عيسى عليه السلام، ونسبوا الى المسيح ما لا يجوز وقالوا بالوهيته، وأطاعتهم القافلة النصرانية من غير قيد وشرط، فإن الدعوة الخاتمة صححت هذه المفاهيم في أكثر من آية، ومنها قوله تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا إِشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١)، والمعنى: تعالوا إلى كلمة عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسر هذه الكلمة بقوله «أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً»، لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة كل الرسل منذ ذرأ الله ذرية آدم، ثم قال ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي لا يسجد بعضنا لبعض، أو يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، أو نحرم الحلال ونحل الحرام، فنحن وأنتم ما أمرنا إلا لنعبد الله وحده، الذي إذا حرم شيء فهو الحرام. وما حله فهو الحلال. وما شرعه إتبع. وما حكم به نفذ. تعالى الله سبحانه وتقدس وتنزه عن الشركاء. والنظراء. والأعوان. والأضداد. لا اله الا هو ولا رب سواه، فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة، فإشهدوا أنتم على إستمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.

(١) سورة آل عمران آية ٦٤.

ثانياً - (الدعوة الى إتباع قبلة الرسالة الخاتمة):

عندما بعث النبي الخاتم ﷺ، كان الاختلاف بين اليهود على تحديد القبلة إختلاف ثابتاً لا شك فيه، ونسيانهم للجبل المقدس الذي يجب أن يتوجهوا إليه. نسيان مسطور فيما بين أيديهم من كتاب، قال أشعيا وهو يحذرهم بأن الرب قال لهم «أما أنتم الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسي فأني إعينكم للسيف»^(١). وهذا النسيان ترى معالمه على التوراتين: السامرية والعبرية، فبينما تقول التوراة السامرية أن القبلة في إتجاه جبل «جرزيم»، تقول التوراة العبرانية إنها في إتجاه جبل «عيبال»، والمسيح عليه السلام شهد بوجود هذا الاختلاف في عهد بعثته، وبشرهم بأن العبادة لن تكون في المستقبل لا في إتجاه هذا الجبل ولا في إتجاه أورشاليم، وذلك لأن الله سيتزع من أيديهم القيادة ويسلمها الى شعب آخر^(٢). وما ذكره المسيح عليه السلام بخصوص القبلة، جاء عندما كان متوجهاً الى أورشاليم، فقالت له امرأة سامرية «يا سيدي أرى إنك نبي، آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون أن في أورشاليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه، فأجابها يسوع: صدقيني يا امرأة ستأتي الساعة التي فيها تعبدون الآب لا في هذا الجبل ولا في أورشاليم»^(٣). وقبل البعثة الخاتمة. لم يكن في أورشاليم هيكلًا. بعد أن دمر الإمبراطور تيطس آخر هيكل عام ٧٠ ميلادية، ولم يكن في أورشاليم حاخامية لليهود. بعد أن ألغى الإمبراطور ثيودوسيوس الحاخامية عام ٤٣٥ ميلادية وترتب على ذلك تفرق اليهود في الأرض.

● ولما كانت الدعوة الإلهية المتوجهة إلى بني إسرائيل قد نزل

(١) أشعيا ٦٥/١١.

(٢) متى ٢١/٤٢ - ٤٥.

(٣) يوحنا ٤/٢٢.

عليها الستار بعد بعثة عيسى عليه السلام، لأنه آخر أنبياء بنو إسرائيل عليهم السلام، ولما كان عيسى عليه السلام يسجد لله في إتجاه أورشاليم، ولما كانت الدعوة الإلهية اللاحقة تبدأ من حيث إنتهت الدعوة الإلهية التي سبقتها، بإعتبار أن الدعوة الإلهية للناس منذ ذراً الله ذرية آدم دعوة واحدة، صراطها واحد وغاياتها واحدة، فتبدأ دعوة اللاحق من الرسل من حيث إنتهت دعوة السابق من الرسل، ثم يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، ويكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء، لأنه تعالى له الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، ولما كان أهل الكتاب يعلمون من كتب أنبيائهم أن الدعوة الخاتمة لها صفات خاصة بها، وأنها ستبين لهم ولغيرهم الإتجاه الذي يجب أن يسجد نحوه الناس لله، فإن الله تعالى عندما بعث رسوله الخاتم ﷺ. أمره بالتوجه إلى قبلة بيت المقدس، والمعنى الذي يستشف من هذا الحدث هو أن الدعوة الإلهية دعوة واحدة. وأن الحلقات فيها ترتبط بعضها ببعض، وتحت هذا السقف تقام الحجة على الذين إختلفوا في الدين والذين جعلوا الدين ديناً خاص بهم، وتحت هذا السقف ينظر الله إلى عباده كيف يعملون. ومن يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.

● وعندما كانت القبلة في إتجاه بيت المقدس، تدبر في الأحداث الذين يعرفون الحق ومعارف الدين والزهاد من أهل الكتاب وأصغوا لصوت الحق، وتكاتم البعض ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً، وإنطلقوا يصدون عن سبيل الله، وبعد أن أقامت الدعوة حجتها على بني إسرائيل في هذا الأمر، أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يولي وجهه شطر المسجد الحرام بمكة، وأخبره بأن أهل الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم، قال تعالى: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها. قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم. وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول

عليكم شهيدا. وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴿ إلى قوله تعالى: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها. فول وجهك شطر المسجد الحرام. وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره. وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون. ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلة بعض ﴾^(١) قال المفسرون. والمعنى: إنما شرعنا لك يا محمد أولاً التوجه إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنه إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت. ممن ينقلب على عقبيه، وإن كان صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة لأمرأ عظيماً في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم. فأيقنوا بتصديق الرسول. وبأن كل ما جاء به هو الحق الذي لا مرية فيه. وبأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وله تعالى أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء. وهذا بخلاف ما يقوله الذين في قلوبهم مرض. فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً، ثم أخبره تعالى بأن صلاتهم إلى بيت المقدس لن يضيع ثوابها عند الله، وأمره تعالى بأن يولي وجهه شطر المسجد الحرام، وأخبره أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون أن الله سيوجهه إلى هذه القبلة: مما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسوله الخاتم ﷺ. وما خضه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاثمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً، وأخبر تعالى أن الرسول لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به، لما إتبعوا قبلته كفراً وعناداً، وإنه لن يتبع قبلتهم لأن ذلك عن أمر الله تعالى. له الحكمة التامة والحجة البالغة، ثم أشار تعالى إلى إختلافهم فيما بينهم في تحديد قبلتهم

(١) سورة البقرة آية ١٤٢ - ١٤٥.

القديمة، وهو قوله «وما بعضهم بتابع قبلة بعض»، وأمره تعالى أن يستمسك بأمر الله ولا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، وقال جل شأنه ﴿ولئن إتبعتم أهواءهم بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾^(١)، والمعنى: أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاء به الرسول، ومن ذلك توجهه شطر المسجد الحرام، كما يعرف أحدهم ولده.

وبالجملة كان التوجه إلى بيت المقدس، ثم صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، إمتحان لأهل الكتاب الذين علموا من أبنائهم أن قيادة الدعوة الإلهية ستنتقل من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل. وأن عنوان هذه الدعوة ورسولها هو النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكان إمتحان أيضاً للذين إتبعوا النبي ﷺ من العرب وغيرهم، لأن صرف التوجه عن بيت المقدس سيثير شكوك البعض، وسيغذي أهل الكتاب والذين في قلوبهم مرض هذه الشكوك وهم يصدون عن سبيل الله، وتحت سقف هذا الإمتحان ينظر الله إلى عباده كيف يعملون.

ثالثاً - [إتباع إبراهيم عليه السلام]

بعد عهد السبي تاجر اليهود بالميراث الذي كتبه الله لإبراهيم، وإنطلقوا في إتجاه هذا الهدف بالعمل على إقامة مملكة داوود وعاصمتها أورشاليم، بعد أن تبنا عقيدة تقول أن مملكة داوود هي وعاء للعهد الإبراهيمي، وعلى إمتداد مسيرتهم وبخهم الأنبياء على هذا الاعتقاد، فقال لهم حزقيال تقولون «إن إبراهيم كان واحداً وقد ورث الأرض. ونحن كثيرون لنا أعطيت الأرض ميراثاً... تأكلون بالدم وترفعون

(١) سورة البقرة آية ١٤٦.

أعينكم إلى أصنامكم وتسفكون الدم. أفترثون الأرض؟^(١) وقال لهم يوحنا (يحيى) تقولون «لنا إبراهيم أبا. فإني أقول لكم إن الله قادر أن يطلع من هذه الحجارة أولاد إبراهيم»^(٢) وقال لهم المسيح عليه السلام «لو كنتم أولاد إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم» وقال «أنتم أولاد أبيكم إبليس. وشهوات أبيكم ترغبون في أن تعملوا. فهو من البدء كان قاتلاً للناس»^(٣).

● وعندما بعث النبي الخاتم ﷺ، تحدث أهل الكتاب بعقيدتهم الخاصة بالميراث، وعملوا على نشر الثقافة التي تصب في وعاء هذه العقيدة، واليهود في مصادر الإسلام أعلنوا أنهم في انتظار المسيح الذي يملكون به الأرض، والنصارى تحدثوا بما وضعه بولس في عقولهم. وهو أن الأمم شركاء لليهود في الميراث، ووفقاً لهذا الاعتقاد بدؤوا في التحرك لوقف تحرك الدعوة الخاتمة في إتجاه الأمم، وشيد اليهود والنصارى صروحهم على إبراهيم عليه السلام، فبينما زعم الحي اليهودي أن إبراهيم كان يهودياً، زعم الحي النصراني أن إبراهيم كان نصرانياً، وفي زحمة هذه الثقافات. قالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء، وهذه الأقوال والإعتقادات شهد بها القرآن الكريم ورد عليها وأقام على هؤلاء هؤلاء الحجة الدامغة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه. قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق. يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾^(٤) والمعنى: لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباؤه. فلم أعددت لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وإفترائكم «بل

(١) حزقيال ٣٣/٢٣ - ٢٥.

(٢) متى ٣/٧ - ١١.

(٣) يوحنا ٨/٣٧.

(٤) سورة المائدة آية ١٨.

أنتم بشر ممن خلق» أي لكم إسوة بأمثالكم من بني آدم وهو سبحانه الحاكم في جميع عبادته. فعال لما يريد لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا. قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ عِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾^(١) وقبل هذه الآيات بين تعالى أن الدين الحق الذي كان عليه أولاد إبراهيم من إسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده، كان هو الإسلام الذي كان عليه إبراهيم حنيفاً، ويستنتج من ذلك أن أهل الكتاب على عهد البعثة الخاتمة، كانوا قد إنتهى بهم المطاف إلى أرضية الاختلافات والإنشعابات. التي أفرزتها إختراعاتهم وهوساتهم. بعد أن صبغوا دين الله بصبغة الأهواء والأغراض والمطامع، وروى أن اليهودي عبد الله بن صوريا قال للرسول ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه فإتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك^(٢). فقال الله لرسوله ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: قل بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً. فإنها الملة الواحدة التي كان عليها جميع أنبيائكم. وما كان صاحب هذه الملة وهو إبراهيم من المشركين.

ثم ذكر لهم أن الدعوة الخاتمة تؤمن بالله وما أنزل إليها وهو القرآن وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ثم ذكر ما أوتي موسى وعيسى وخصهما بالذكر لأن المخاطبة مع اليهود

(١) سورة البقرة آية ١٣٥.

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٨٦.

والنصارى، ثم ذكر ما أوتي النبيون من ربهم لتشمل الشهادة جميع الأنبياء فيستقيم قوله بعد ذلك «لا نفرق بين أحد منهم». ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أي. فإن آمنوا بما آمنتم به من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه.

● من الآيات السابقة يمكن أن نستشف الثقافة التي كان اليهود والنصارى يبثونها على عهد الرسالة الخاتمة. فلقد إدعوا بأنهم أبناء الله وأحبائه، وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، ويبدو أن القرآن عندما ضرب العمود الفقري لثقافتهم هذه، قرروا بأن يعمل كل حي من أحيائهم على إنفراد، ويمكن أن نستشف ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾^(١) قال المفسرون: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وهذا القول يقتضي أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلة للفساد بالفساد^(٢)، وبالجمله: قد كان أوائل اليهود والنصارى على شيء، وهذا لا تخلو منهم كتبهم لإقامة الحجة عليهم على إمتداد المسيرة، ثم إبتدع الذين من بعدهم وتفرقوا، ثم جاء العلماء الذين وضعوا التفسير الشفهي للتوراة (التلمود) وعنده إنقسم اليهود إلى فرق وأحزاب، وإنتهى الأمر بأن وقف الحي اليهودي داخل دائرة حدها

(١) سورة البقرة آية ١١٣.

(٢) ابن كثير ١/١٥٥.

الأخبار، ووقف الحي النصراني داخل دائرة حدودها بولس لخدمة أصحاب الدائرة الأولى، فالثقافة التي تخرج من مدونات خدمة النصارى لليهود تقول بأن اليهود والنصارى أبناء الله وأحباؤه، أما الثقافة التي يقول كل منهم أن الآخر ليس على شيء، فهي نتيجة لحجة البعثة الخاتمة ومواجهتها للأطراف مجتمعين، فالدعوة الخاتمة أرشدتهم إلى الحق ليتفكروا ويتدبروا، وبدلاً من أن يرجعوا إلى كتبهم التي لا تخلو من حق ويعرضونها على منهج البعثة الخاتمة، إنطلقوا من التفسير الشفهي وهذا التفسير لا يقيم حقاً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لأنه مقابلة للفساد بالفساد.

● وفي مجال عمل كل حي منفرداً عن الآخر. قام كل منهما بوضع جميع الأنبياء داخل الحي الخاص به، ورد القرآن عليهم قولهم، قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١)، والمعنى: قال كل من الفريقين إن إبراهيم ومن ذكر بعده منهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾، أي فإن الله أخبرنا وأخبركم في الكتاب أن موسى وعيسى وكتابهما بعد إبراهيم. فإذا كان تشريع اليهودية أو النصرانية بعد إبراهيم ومن ذكر معه، فكيف يكون إبراهيم والذين ذكروا معه هوداً أو نصارى؟ وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا

(١) سورة البقرة آية ١٤٠.

والله ولي المؤمنين، ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم. وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون، يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون^(١).

لقد أنكر الله عليهم قولهم ذلك، وأمرهم برد ما لا علم لهم به الى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها، وشهد سبحانه بأن إبراهيم كان متحنفاً عن الشرك قاصداً إلى الايمان وما كان من المشركين، وأخبر سبحانه بأن أحق الناس بمتابعة إبراهيم. الذين إتبعوه على دينه، وهذا النبي. يعني محمداً ﷺ والذين آمنوا. لأنهم على الإسلام الذي إصطفى الله به إبراهيم، وكذا كل من إتبعه دون أن يكفر بآيات الله ويلبس الحق بالباطل، ثم أخبر تعالى بأن طائفة من أهل الكتاب تود أن تضل الذين آمنوا بإلقاء الشبهات بينهم، وإنهم يضلون أنفسهم أولاً. لأن الإنسان لا يفعل شيئاً من خير أو شر إلا لنفسه كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾^(٢)، ثم قال سبحانه ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ وأهل الكتاب لا ينكرون أن للعالم إلهاً، وإنما ينكرون أموراً من الحقائق بينها لهم الكتب السماوية المنزلة عليهم وعلى غيرهم، كنسوة النبي ﷺ، وكون عيسى عبداً لله ورسولاً منه، وأن إبراهيم ليس بيهودي ولا نصراني، وإن يد الله مبسوطة، وإن الله غنى، وإن الدجال فتنة فيه تصب جميع الفتن، الى غير ذلك. وقوله تعالى: ﴿وأنتم تشهدون﴾ والشهادة هو الحضور والعلم عن حس، دلالة على أن المراد بكفرهم بآيات الله. إنكارهم كون النبي ﷺ هو النبي الموعود الذي بشر

(١) سورة آل عمران آية ٦٥ - ٧١.

(٢) السجدة آية ٤٦.

به التوراة والإنجيل، مع مشاهدتهم إنطباق الآيات والعلائم المذكورة فيهما عليه، وأيضاً إنكارهم ما بينه لهم النبي الخاتم ﷺ من آيات ربهم التي تنطق بها كتبهم. التي بين أيديهم ويشهد القرآن بها، ثم قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ والمعنى لم تظهرون الحق في صورة الباطل؟ وقوله: ﴿وأنتم تعلمون﴾ دلالة أو تلويح على أن المراد باللبس والكتمان ما هو في المعارف الدينية، غير ما يشاهد من الآيات التي حرفوها أو كتموها أو فسروها بغير ما يراد منها.

● ولما كان الله تعالى قد أنكر عليهم كفرهم بآيات الله وهم يشهدون، فإنه تعالى بين في آية أخرى من آيات القرآن الكريم، أن جدالهم في آيات الله بغير سلطان أتاهاهم، رغبة منهم في إدحاض الحق الصريح بهذا الجدل، قد أوقعهم في فتنة المسيح الدجال، ففي قوله تعالى: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾^(١)، أخرج ابن أبي حاتم عن كعب. أن هذه الآية نزلت في اليهود فيما ينتظرونه من أمر الدجال، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: قال اليهود. يكون منا ملك آخر الزمان. البحر الى ركبتيه. والسحاب دون رأسه. يأخذ الطير بين السماء والأرض. معه جبل خبز ونهر، وقال ابو العالية: نزلت هذه الآية في اليهود. وذلك إنهم إدعوا أن المسيح (الدجال) منهم وإنهم يملكون به الأرض، فقال الله لنبيه ﷺ آمراً له: أن يستعذ من فتنة الدجال^(٢).

● وبالجمله بينت الدعوة الإلهية الخاتمة. أن الرقعة التي يقف

(١) سورة غافر آية ٥٦.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/٨٤، تفسير الميزان ١٧/٣٤٨.

عليها أهل الكتاب ويطالبون من فوقها الميراث الذي كتبه الله لإبراهيم، رقعة لا علاقة لها بإبراهيم ولا بالأنبياء الذين جاؤوا من بعده، لأنها رقعة أوجدها الاختلافات والإنشعابات، وهذا لا يستقيم مع الدين الإلهي، لأن الدين واحد كما أن الإله المعبود بالدين واحد وهو دين إبراهيم عليه السلام، وهذا الدين هو الذي تتمسك به الدعوة الإلهية الخاتمة، ولما كان القوم لا علاقة لهم بإبراهيم، وشهد بذلك حزقيال وأشعيا ويوحنا والمسيح عليه السلام، وشهد بذلك القرآن الكريم الذي أنزل على محمد ﷺ، فالنتيجة هي أن القوم لا علاقة لهم بميراث إبراهيم في الدنيا والآخرة، ولما كان القوم ما زالوا يعتقدون بأن القدر يخبئ لهم أمير سيخرج آخر الزمان يمتلكون به الأرض. فأن الدعوة الخاتمة أخبرت بأن المسيح الدجال سيخرج آخر الزمان، وأنه سيرفع شعار أرض الميعاد، وأن أكثر أتباعه من اليهود، ويلحق بهم الذين أخذوا بذيول اليهود، ثم الذين إتبعوا سنن أهل الكتاب شبراً بشبر وذراعاً بذراع..

رابعاً - [البيان والإنذار]:

أقامت الدعوة الإلهية الخاتمة حجتها على أهل الكتاب، وبينت لهم أن الله تعالى منذ بعث نوح عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم عليه السلام لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل سبحانه رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾^(١) وبينت الدعوة الخاتمة أن جميع الأنبياء يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

(١) سورة الحديد آية ٢١.

رسول إلا نوحى إليه إنه لا إله إلا أنا فاعبدون^(١). وإن إبراهيم عليه السلام لم يدع مع الله غيره ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، ومن ترك طريقة إبراهيم عليه السلام يكون قد ظلم نفسه بسفاهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، وبينت الدعوة أن إبراهيم عليه السلام وصى بنيه بالإسلام وبنيه وصوا أبناءهم به من بعدهم، قال تعالى: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون^(٢)﴾.

وبينت الدعوة الخاتمة بأنها تؤمن بكل نبي أرسل، وأخبرت أن كل من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، قال تعالى لرسول ﷺ ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين^(٣)﴾، وأعلنت الدعوة من يومها الأول أنها على ملة إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن إتبع ملة إبراهيم حنيفاً^(٤)﴾، وقال جل شأنه لرسول ﷺ ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين^(٥)﴾.

(١) سورة الأنبياء آية ٢٥.

(٢) سورة البقرة آية ١٣١.

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٢.

(٤) سورة النحل آية ١٢٣.

(٥) سورة الأنعام آية ١٦٢.

● لقد بينت الدعوة الإلهية الخاتمة للبشرية العقيدة الحققة، وأقامت الحجة على أهل الكتاب ليتفكروا وليتدبروا. ليعلموا أن دين إبراهيم برىء من جميع العقائد التي عليها بصمات العجول وآلهة الأمم المتعددة، وأن دين إبراهيم لا علاقة له بعقائد التثليث والوهية المسيح، ولم تكن مهمة إبراهيم عليه السلام في يوم من الأيام هي البحث عن الميراث من النيل إلى الفرات، وإنما كان عليه السلام إماماً للناس، يقتدون به ويتبعونه في أقواله وأفعاله، وهذه الإمامة لا ينالها ظالم من ولده، لأن الله لا يجعل الظالمين أئمة ولا يعطي الإمامة لعدوه. لأن هؤلاء يأتون كنتيجة لأعمال الظالمين من الناس، والله تعالى رؤوف بالعباد، والناس تحت مظلة الإختبار يمتحنون، فمن سلك طريقاً على ذروته إماماً للرحمة والعدل. وصل الى غايته، ومن سلك طريقاً على ذروته إمامٌ يدعو الى النار، دخل فيها.

● وعلى إمتداد عهد البعثة الخاتمة، بين الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أن شريعته تنهى عن الفحشاء والمنكر وتأمّر بالمعروف، وتحذر من البغي والإستكبار والإختلاف، وتنادي بالعدل والإحسان والإستقامة، وتدعو الى العمل الصالح والتفكر والتدبر والإصلاح والإخلاص، وإن منهج الدعوة عموده الفقري هو التوحيد، وشجرته الأخلاق الفاضلة، الى غير ذلك من الأوامر والنواهي.

وعلم أهل الكتاب وغيرهم أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١)، ولقد أختبر الله تعالى الفرع الإسرائيلي من الشجرة الإبراهيمية. وبعث فيهم الأنبياء والرسل لينظر سبحانه كيف تعمل القافلة، وعلم أهل الكتاب كيف سارت القافلة. وبماذا حكم الله عليها.

(١) سورة الأعراف آية ١٢٨.

وهذا الحكم يقرؤه فيما بين أيديهم من التوراة الحاضرة، ومنه قول الرب لهم «ها أنذا أنساكم وأرفضكم من أمام وجهي أنتم والمدينة التي أعطيتكم وآبائكم إياها. وأجعل عليكم عاراً أبدياً وخزياً أبدياً لا ينسى»^(١)، وقال: «هوذا من أجل آثامكم بُعتم. ومن أجل ذنوبكم طلقت أمكم»^(٢)، وبين هذا الحكم وبين البعثة الخاتمة. قتلوا الأنبياء الذين بعثهم الله لإقامة الحجّة على الأجيال المتعاقبة، وعندما جفت المسيرة من الماء. بعث النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم ليختبر الله تعالى بمنهج أمة جديدة في مقدمة عالم حديد.

وببعثة النبي الخاتم. حكمت الدعوة الإلهية حكمها الفصل على قصة الميراث. التي سهر عليها بني إسرائيل ليلاً طويلاً، وذلك ببسط الدعوة يدها على المسجد الحرام والمسجد الأقصى في رحلة واحدة في ليلة واحدة، قال تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾^(٣)، فالميراث بدأت حدوده من موضع سجود. وإنتهت إلى موضع سجود، وهو ممتد إلى كل موضع سجود، وليس معنى هذا أن الدعوة الخاتمة تبحث عن الأرض والطين، وإنما معناه أنها ترعى التقوى في أي مكان وتعمل من أجل الإصلاح في كل مكان، ترعى التقوى لأن العاقبة للمتقين، وتعمل من أجل الإصلاح حتى يرث الصالحون، قال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾^(٤).

● ولأن الدعوة تقوم على التوحيد، ولأن التوحيد هو الحصن

(١) أرميا ٢٣ / ٤٠.

(٢) أرميا ١٧ / ٢ - ٤.

(٣) سورة الإسراء آية ١.

(٤) سورة الأنبياء آية ١٠٥.

الحصين الذي يحفظ الإنسان من الزلل، قال رسول الله ﷺ «والذي نفس محمد بيده. لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به. إلا كان من أصحاب النار»^(١)، وروى أنه ﷺ ذهب إلى يهود. وقال لهم «يا معشر يهود اسلموا تسلموا» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم. فقال «اسلموا تسلموا» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم فقال «ذلك أريد» (أي: أريد أن تعرفوا أنني بلغت) ثم قال لهم «إعلموا إنما الأرض لله ولرسوله، وإنني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فإعلموا أن الأرض لله ورسوله»^(٢) فالرسول ﷺ بلغ بالإسلام، ولكن القوم كانت عيونهم على الأرض والطين، لأنهم من أجل هذا الميراث يعملون، فوقفوا بما يعتقدون أمام القول الفصل وهو «إعلموا أن الأرض لله ورسوله». ولم يكن الجلاء من جزيرة العرب عقاباً وحيداً للذين يصدون عن سبيل الله، وإنما أنذرهم الله بعقاب اليم في الحياة الدنيا والآخرة، قال علي: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما أنزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً على أدبارها. أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمراً مفعولاً﴾^(٣). قال في الميزان: دعاهم الله تعالى إلى الإيمان بالكتاب الذي نزله مصداقاً لما معهم، وأوعدهم بالسخط الذي يلحقهم لو تمردوا واستكبروا من طمس أو لعن يتبعانهم إتباعاً لا ريب فيه، وطمس الوجوه محو هذه الوجوه التي يتوجه بها البشر نحو مقاصدهم الحيوية مما فيه سعادة الإنسان المرتقبة والمرجوة، وهذا المحو ليس هو المحو الذي يوجب فناء الوجوه وزوالها، بل محو يوجب إرتداد تلك الوجوه على أدبارها، فإذا كانت الوجوه تقصد مقاصدها على الفطرة التي فطر الله

(١) رواه مسلم (الصحيح ١/٩٣).

(٢) رواه مسلم (الصحيح ٥/١٥٩).

(٣) سورة النساء آية ٤٧.

الناس عليها، فإن الوجوه المظموسة لا تقصد إلا ما خلفته وراءها ولا تمشي إليه إلا القهقري، وهذا الإنسان الذي يسير في غير إتجاه الفطرة كلما توجه إلى ما يراه خيراً لنفسه وصلاًحاً لدينه ودنياه لم ينل إلا شراً وفساداً، وكلما بالغ في التقدم زاد في التأخر وليس بفالح أبداً، وقوله تعالى: ﴿نطمس وجوهاً﴾ فيه أنه تعالى أتى بالجمع المنكر، ولو كان المراد الجميع لم ينكر، ولتنكير الوجوه وعدم تعيينها هدف من وراءه حكمة، هي أن المقام لما كان مقام الإبعاد والتهديد وهو إبعاد للجماعة بشر لا يلحق إلا ببعضهم، كان إبهام الأفراد الذين يقع عليهم السخط الإلهي أوقع في الإنذار والتخويف، لأن وصفهم على إبهامه يقبل الانطباق على كل واحد من القوم، فلا يأمن أحدهم أن يمسه هذا العذاب^(١).

خامساً - [العنكبوت والدعوة]:

حذرت الدعوة الخاتمة من سلوك الذين كفروا من أهل الكتاب، لأن الدعوة تقيم وجهها للدين وتتجه بالبشرية الى الأمام. وتمدها على إمتداد الطريق بالزاد الفطري الذي يحقق السعادة في الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، بينما تتقدم قافلة الذين كفروا إلى الخلف بزيادة عذاب الطمس الذي ضربه الله عليهم بما كسبت أيديهم، وعلى إمتداد هذا الطريق. كلما بالغ أصحابه في التقدم زادوا في التأخر ولن يحصلوا على السعادة الحقيقية أبداً.

ومن الآيات التي حذر فيها الله من الذين كفروا من أهل الكتاب قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء

(١) الميزان ٣٦٧ / ٤ .

بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم^(١). قال في الميزان: نهى عن مودتهم الموجهة الى تجاذب الأرواح والنفوس، لأن ذلك يقلب حال المجتمع من السيرة الدينية المبنية على سعادة إتباع الحق. إلى سيرة الكفر المبنية على إتباع الهوى وعبادة الشيطان والخروج عن صراط الحياة الفطرية، وقوله تعالى: ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي لتضارب نفوسهم وتجاذب أرواحهم. المستوجب لإجتماع آرائهم على إتباع الهوى والإستكبار عن الحق وقبوله، وإتحادهم على إطفاء نور الله سبحانه، وتناصرهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، كأنهم نفس واحدة ذات ملة واحدة وليسوا على وحدة المليّة، لكن يبعث القوم على الإتفاق ويجعلهم يداً واحدة على المسلمين أن الإسلام يدعوهم إلى الحق. ويخالف أعز المقاصد عندهم وهو إتباع الهوى والإسترسال في مشتبهات النفس وملاذ الدنيا، فهذا هو الذي جعل الطائفتين اليهود والنصارى على ما بينهما من الشقاق والعداوة مجتمعاً واحداً، يقترب بعضه من بعض ويرتد بعضه الى بعض، يتولى اليهود النصارى وبالعكس. ويتولى بعض اليهود بعضاً وبعض النصارى بعضاً، وبالجملة: لا تتخذوهم أولياء لأنهم على تفرقهم وشقاقهم فيما بينهم يداً واحدة عليكم. لا نفع لكم في الإقتراب منهم بالمودّة والمحبة، وربما أمكن أن يستفاد من قوله «بعضهم أولياء بعض» معنى آخر وهو: أن لا تتخذوهم أولياء لأنكم إنما تتخذونهم أولياء لتتصروا ببعضهم الذين هم أولياؤكم على البعض الآخر، ولا ينفعكم ذلك. فإن بعضهم أولياء بعض فليسوا ينصرونكم على أنفسهم^(٢).

ومن آيات التحذير أيضاً قوله تعالى: ﴿ألم تر الى الذين أوتوا

(١) سورة المائدة آية ٥١.

(٢) تفسير الميزان ٥/٣٧٣.

نصيياً من الكتاب يشتررون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً^(١) قال في الميزان: أي أنك ترى اليهود الذين أوتوا نصيياً من الكتاب. أي حظاً منه لا جميعه كما يدعون لأنفسهم، يشتررون الضلالة وتختارونها على الهدى ويريدون أن تضلوا السبيل، فإنهم وإن لقوكم ببشر الوجه. وظهروا لكم في زي الصلاح. وإتصلوا بكم إتصال الأولياء الناصرين. فذكروا لكم ما ربما إستحسنه طباعكم وإستصوبته قلوبكم، لكنهم ما يريدون إلا ضلالكم عن السبيل كما إختاروا لأنفسهم الضلالة، والله أعلم منكم بأعدائكم. وهم أعداؤكم، فلا يغرنكم ظاهر ما تشاهدون من حالهم، فإياكم أن تطيعوا أمرهم أو تصغوا إلى أقوالهم المزوقة وإلقاءاتهم المزخرفة وأنتم تقدررون أنهم أولياءكم وأنصاركم، فأنتم لا تحتاجون إلى ولايتهم الكاذبة ونصرتهم المرجوة، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً، فأى حاجة مع ولايته ونصرتة إلى ولايتهم ونصرتهم^(٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾. قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك عن الله من ولي ولا نصير^(٣)، قال في الميزان: أي. إن هؤلاء ليسوا براضين عنك حتى تتبع ملتهم التي إبتدعوها بأهوائهم ونظموها بأرائهم، ثم أمر الله رسوله بالرد عليهم بقوله «قل إن هدى الله هو الهدى» أي إن الإلتباع إنما هو لفرض الهدى ولا هدى إلا هدى الله، أما غيره وهو ملتكم ليس بالهدى، فهي أهوائكم ألبيتموها لباس الدين وسميتموها بإسم الملة^(٤)، وقال ابن كثير: وقوله تعالى:

(١) سورة النساء آية ٤٥.

(٢) الميزان ٤/٣٦٣.

(٣) سورة البقرة آية ١٢٠.

(٤) الميزان ١/٢٦٥.

﴿ولئن إتبعتم أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم... الآية﴾ فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن إتباع طريق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنة، والخطاب مع الرسول والأمر لأمته، وقد إستدل كثير من الفقهاء بقوله «حتى تتبع ملتهم» حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة^(١).

● وبالجملـة: حذر الله تعالى الأمة من تنظيـمات أهل الكتاب. التي لها أهداف قريبة وأهداف بعيدة، والتي يحمل أعلامها الفرق المختلفة والطوائف المختلفة، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾^(٢) قال المفسرون: يحذر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا فريقاً من أهل الكتاب. الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، كما قال تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾^(٣)، وهكذا قال ههنا ﴿إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾^(٤).

وباختصار: فالقاعدة العريضة منهم ودوا لو يردون الذين آمنوا من بعد إيمانكم كفاراً، وهناك فرق حملت أعلام هذه القاعدة وإنطلقت رجاء تنفيذ هذا الهدف، وهناك طائفة من أهل الكتاب مهمتها إطفاء الأنوار رغبة منها في أن تضل قافلة الذين آمنوا عن الطريق، والمعنى: أن الطائفة في خدمة الفريق والفريق في خدمة القاعدة. وليس معنى

(١) ابن كثير في التفسير ١/١٦٣.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٠.

(٣) سورة البقرة آية ١٠٩.

(٤) سورة آل عمران آية ٦٩.

هذا إن قاعدة أهل الكتاب خالية من العلماء الذين يبحثون عن الحقيقة .
فهؤلاء أثر أقدامهم على الطريق . والإسلام لم يغلق أبوابه أمام الذين
يريدون الاستبصار منهم في الدين ، وقد أمر الله تعالى بمجادلتهم بالتي
هي أحسن . فقال تعالى في آية محكمة ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا
بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾^(١) وقوله : ﴿إلا الذين ظلموا
منهم﴾ يعني أهل الحرب ، وذكر تعالى في كتابه . إن الذين قالوا أنهم من
أتباع عيسى عليه السلام وعلى منهاج إنجيله ، فيهم مودة للإسلام وأهله ،
وما ذاك إلا لما في قلوبهم من الرقة والرحمة ، ويوجد فيهم قسيسون وهم
خطباؤهم وعلمائهم ورهباناً ، من صفتهم بأن فيهم العلم والعبادة
والتواضع والإنقياد للحق وإتباعه والإنصاف ، وإذا سمعوا ما أنزل الرسول
الخاتم ﷺ . ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، قال
تعالى : ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك
بأن منهم قسيسين ورهباناً وإنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى
الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . يقولون ربنا
آمنا فآكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق
ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾^(٢) ، فهذا الصنف من
النصارى كان أول ظهوره بالحشة في النجاشي وأصحابه ، وهم
المذكورين في قوله تعالى : ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما
أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾^(٣) ، وهم الذين قال الله فيهم
﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا
به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾^(٤) ، ومنذ أيام النجاشي

(١) سورة العنكبوت آية ٤٦ .

(٢) سورة المائدة آية ٨٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٩٩ .

(٤) سورة القصص آية ٥٢ .

وعلى إمتداد المسيرة الإسلامية، لم تغلق الدعوة أبوابها في وجوه الذين يريدون الإستبصار في الدين، لأن الله تعالى أمر رسوله الخاتم ﷺ. أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة. والموعظة الحسنة ليحذروا بأس الله تعالى، وأمره تعالى أن من إحتاج من الناس الى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب.

فمن هذه النصوص ومن غيرها نعلم أن الدعوة الإلهية الخاتمة حذرت من إتباع أي مشروع تقدمه الطوائف أو الفرق التي تهدف من وراء برامجها الصد عن سبيل الله، وفي نفس الوقت فتحت الدعوة أبوابها للباحثين عن الحقيقة من أهل الكتاب لتقيم الحجة عليهم وعلى غيرهم في كل مكان وزمان. .

ثانياً - [من وصايا الدعوة الخاتمة]

١ - [ظل المنزلة الممدود]

على إمتداد المسيرة الاسرائيلية كان لشجرة الأنبياء فيها علامات وبصمات، وفي التوراة الحاضرة يمكن للباحث أن يتبين نبوة هارون ومنزلته هو وبنيه من موسى عليه السلام، فالتوراة تنص على وحي الله تعالى لهارون. وهنا تكون النبوة، ولما كان موسى عليه السلام هو رسول الله الى بني إسرائيل وعليه أنزلت التوراة، فإن نبوة هارون. أو. وحي الله تعالى لهارون. كان يتعلق بتفسير الشريعة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، بمعنى: أن التوراة أنزلها الله تعالى على موسى، وأن تفسير الشريعة أوحى الله تعالى بها إلى هارون عليه السلام، فكان هارون مشاركاً لموسى عليه السلام في تفسير الشريعة، وموسى عليه السلام منفرداً على هارون بتلقي التوراة من الله سبحانه وتعالى، وهو قول الله تعالى في القرآن حاكياً عن موسى قوله ﴿وَجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي﴾ هارون أخي إشدد به أزري واشركه في أمري^(١)، فالنص القرآني يقول أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يجعل له وزيراً من أهله، وأن يكون هذا الوزير هارون أخاه، وسأله أن يشركه في أمره، والوزير في

(١) سورة طه آية ٢٩ - ٣٢.

لغة العرب: الذي يحمل ثقل الملك، وقيل: هو الذي يلتجئ إليه الملك في آرائه وأحكامه، وقيل: هو الذي يعين الملك ويقويه^(١)، وفي التوراة الحاضرة. كان هارون الكاهن الأكبر الذي يفسر الشريعة، والكاهن في لسان العرب: هو من يقوم بأمر الرجل ويسعى في حاجته. وقال: والعرب تسمى كل من يتعاطى علماً دقيقاً كاهناً^(٢).

وسؤال موسى عليه السلام ربه جل وعلا أن يشرك هارون في أمره، أي في أمر يخص موسى. وهو تبليغ ما بلغه من ربه، فهذا هو الأمر الذي يخصه، وسأل ربه أن لا يشاركه فيه أحد سوى هارون، وقال ابن كثير في تفسيره. في قوله تعالى: ﴿وَجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي... الآية﴾ وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له، وقوله «أشدد به أزري» أي ظهري وقوله «وأشركه في أمري» أي في مشاورتي^(٣).

هذا ما يتعلق بوزارة هارون ومساعدته موسى في تبليغ الدين أو شيء من أجزائه، وموسى عليه السلام سأل ربه ذلك. لأن الأمر كثير الجوانب متباعد الأطراف، فهو كان يخاف التكذيب مع ما معه من ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان، وكان على علم بفرعون وقومه وما هم عليه من الشوكة والقوة، وكان على علم بالإنحطاط الفكري وجهل وضعف بني اسرائيل، لهذا سأل ربه بعض الأمور التي كان يحتاجها في رسالته لا في نبوته، ومنها طلب الوزير، أما فيما يتعلق بخلافة هارون لموسى عليه السلام في قومه. فجاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ

(١) انظر: لسان العرب مادة وزر ص ٤٨٢٤.

(٢) انظر: لسان العرب مادة كهن ص ٣٩٥٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/١٤٧.

المفسدين^(١) قال ابن كثير: إستخلف موسى على بني اسرائيل أخاه هارون. ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله له وجاهه وجلاله صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء^(٢)، والإستخلاف لا يكون إلا في غيبة، وكانت غيبة موسى عن بني اسرائيل حين كان يفارقهم للميقات، وقوله لأخيه «ولا تتبع سبيل المفسدين». فيه أنه كان في قومه يومئذ جمع من المفسدين يفسدون ويقلبون عليه الأمور، ويتدربون به الدوائر، فنهى موسى أخاه أن يتبع سبيلهم فيشوشوا عليه الأمر. ويكيدوا ويمكروا به. فيتفرق جمع بني اسرائيل ويتشتت شملهم. بعد تلك المحن التي كابد هارون في إحياء كلمة الإتحاد بينهم.

وبالجملة: كان هارون عليه السلام وزيراً لموسى عليه السلام. وكان يساعده في تبليغ الدين أو شيء من أجزائه، وكان يخلف موسى عليه السلام في غيبته. ويحافظ على سبيل موسى عليه السلام من الذين يتربصون به، ليكون السبيل حجة على بني اسرائيل وهم تحت سقف الإمتحان والابتلاء، ويكون شاهداً على المفسدين على إمتداد المسيرة كي يتبين الباحث عن الحقيقة خطاهم، وسبيل الأنبياء فقد ذراً الله ذرية آدم. لا يضره من خالفه أو من خذله أو من عاداه.

● أما فيما يتعلق بأبناء هارون عليه السلام، فلقد ذكرت التوراة الحاضرة، أن الله تعالى إصطفى أبناء هارون من بعده ليفسروا الشريعة لبني اسرائيل، وعلى إمتداد المسيرة الإسرائيلية بُعث منهم الأنبياء والربانيين، وآخر الأنبياء الذين بعثوا من ذرية هارون. كان المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، ولقد بينا ذلك فيما سبق، ولقد قلب بنو

(١) سورة الأعراف آية ١٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٣.

اسرائيل الأمر على أنبيائهم . وقتلوا بعضهم وكذبوا البعض الآخر ، عندما جاؤوهم بما لا تهوى أنفسهم .

● والدعوة الإلهية الخاتمة على نبيها الصلاة والسلام ، إمتد ظلها من حيث إنتهت ظلال أنبياء بني اسرائيل ، بمعنى : في بداية الدعوة جعل الله قياس النبي ﷺ الى موسى عليه السلام ، وجعل قياس أمة النبي ﷺ الى فرعون وقومه ، قال تعالى : ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذنا أخذاً وبيلاً﴾^(١) ، فيتدبر الآية . نجد أن دائرة النبي ﷺ يقابلها دائرة موسى عليه السلام ، ودائرة الأمة يقابلها دائرة فرعون ، والقرآن عبر عن موسى بالرسول ، وفي هذا إشارة إلى أن السبب الموجب لأخذ فرعون مخالفته أمر رسالة موسى لا نفس موسى بما أنه موسى ، وإذا كان السبب هو مخالفة الرسالة ، فيقابله تحذير الأمة من مخالفة رسالة محمد ﷺ ، لأن المخالفة تؤدي إلى عذاب الأخذ الوبيل . قال ابن كثير في تفسيره إحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر^(٢) .

● كما جعل الله تعالى قياس أذى النبي ﷺ إلى أذى موسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين اذوا موسى فبرأه الله مما قالوا﴾^(٣) ، قال ابن كثير : وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ . أو يوصلوا اليه أذى ، وقال تعالى مخبراً عن رسوله موسى عليه السلام أنه قال لقومه ﴿لم تؤذونني وقد تعلمون أنني رسول الله اليكم . فلما زاغوا أزع الله قلوبهم والله لا يهدي القوم

(١) سورة المزمل آية ١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٣٨ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٦٩ .

الفاسقين»^(١)، ولما كانت عقوبة الذين أذوا موسى عليه السلام وعدلوا عن الحق مع علمهم به. أن الله أزاغ قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، فإن الله تعالى توعد الذين يؤذون النبي ﷺ. باللعن في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٢). قال ابن كثير: والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء. ومن آذاه فقد آذى الله كما أن من أطاعه فقد أطاع الله.

● ولما كان الناس يختبرون على إمتداد المسيرة البشرية لينظر الله إلى عباده كيف يعملون، فإننا نجد موسى عليه السلام يبين معالم هذا الاختبار لبني إسرائيل فيما أخبر الله تعالى أنه قال لقومه ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾^(٣)، وهذه المعالم بينها الله تعالى لرسوله الخاتم في قوله ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات. وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين. ثم جعلناكم في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾^(٤).

● فالدعوة الإلهية ظلالها ممتدة ودوائر الهدى فيها تشبه بعضها بعضاً، والعذاب الذي توعد الله به الظالمين هناك من جنس العذاب الذي ينتظر الظالمين هنا، وعلى إمتداد الدعوة الإلهية. أمر الله عباده بأن لا يزكوا أنفسهم لأنه سبحانه أعلم بمن إتقى وله سبحانه أنه يزكي من يشاء، وتحت سقف التزكية يختبر العباد، قال تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم

(١) سورة الصف آية ٥.

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٧.

(٣) سورة الأعراف آية ١٢٩.

(٤) سورة يونس آية ١٤.

لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً^(١) قال في الميزان: أي إنا جعلنا بعض الناس لبعض فتنة يمتحنون بها، فالرسل فتنة لسائر الناس يمتحنون بهم، فيتميز بهم أهل الريب من أهل الإيمان. والمتبعون للأهواء من طلاب الحق، وقوله تعالى: ﴿وكان ربك بصيراً﴾ أي عالماً بالصواب في الأمور، فيضع كل أمر في الموضع المناسب له ويجري بذلك أتم النظام، فهدف النظام الإنساني كمال كل فرد بقطعه السعادة أو الشقاوة على حسب ما يستعد له ويستحقه، ولازم ذلك بسط نظام الإمتحان بينهم، ولازمه إرتفاع التمايز بين الرسل وغيرهم^(٢)، وقال ابن كثير في تفسيره في معنى الآية: أي إختبرنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصي، ولهذا قال ﴿أتصبرون﴾ وكان ربك بصيراً^(٣) أي بمن يستحق أن يوحى إليه. كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾. ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك. وقال ابن اسحاق في قوله «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة» أي لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم وأبتليكم بهم^(٣).

ولما كان الناس يختبرون بالأنبياء والرسل. فإنهم يختبرون أيضاً بتلاميذ وحواري وأوصياء الأنبياء والرسل. ولقد تم أختبارهم بأبناء هارون وبتلاميذ المسيح عليه السلام. ويشهد بذلك كتب التراجم والتواريخ والسير والأمة الخاتمة لم تستثنى من ذلك، ولقد قابلت دائرة هارون وبنوه في الشريعة الموسوية. دائرة علي بن أبي طالب وبنوه في الشريعة المحمدية، ففي الحديث الصحيح روي أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي

(١) سورة الفرقان آية ٢٠.

(٢) الميزان ١٥/١٩٤.

(٣) ابن كثير في التفسير ٣/٣١٣.

بعدي»^(١). وفي رواية «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست نبياً. إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وإنك خليفتي في كل مؤمن من بعدي»^(٢)، وروي أنه قيل لسفيان الثوري: حدثني بأحسن فضيلة عندك لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب. فقال: «حدثني سلمة بن كهيل عن حجة عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال له «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»^(٣)، وعن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي». قال سعيد بن المسيب. فأحببت أن أشافه بها سعد بن أبي وقاص. فلقيت سعداً. فحدثته بما حدثني عامر بن سعد. فقال سعد: أنا سمعته. فقلت: أنت سمعته؟ فوضع إصبعيه على أذنيه فقال: نعم وإلا فإسكتا (أي صمتا)^(٤)، وعن موسى الجهني قال: دخلت على فاطمة بنت علي. فقال لها رفيقي أبو سهل: كم لك؟ قالت: ست وثمانون سنة. قال: ما سمعت من أبيك شيئاً؟ قالت: حدثني أسماء بنت عميس أن رسول الله ﷺ قال لعلي «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس بعدي نبي»^(٥).

● وحديث المنزلة حديث صحيح رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والحاكم وأحمد والطبراني وغيرهم، وقال ابن كثير: تقصى

(١) البخاري (الصحيح ٢/٣٠٠) مسلم (الصحيح ١٥/١٧٤) الترمذي (الجامع الصحيح ٥/٦٤٠).

(٢) ابن أبي عاصم وقال الألباني، اسناده حسن ورجاله ثقات (كتاب السنة ٢/٥٦٥) وأحمد والحاكم (كنز العمال ١١/٦٠٦) (مستدرک الحاكم ٣/١٣٣) (الفتح الرباني شرح مسند الامام أحمد ٢١/٢٠٤).

(٣) ابن البخار (كنز العمال ١٣/١٥١).

(٤) مسلم (الصحيح ١٥/١٧٤).

(٥) أخرجه الامام أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجال احمد رجال الصحيح غير فاطمة بنت علي وهي ثقة (الفتح الرباني ٢٣/١٢٩).

الحافظ ابن عساكر هذا الحديث في ترجمة علي بن أبي طالب في تاريخه فأجاد وأفاد وبرز على النظراء والأشباه والأنداد^(١) وقال الحافظ الكتاني: وحديث أنت مني بمنزلة هارون من موسى. حديث متواتر. جاء عن نيف وعشرين صحابياً^(٢). وروى الحديث كل من: أبو سعيد الخدري، وابن عباس، وابن عمر، وجابر بن سمرة، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، ومالك بن الحويرث، وسعد بن أبي وقاص، وقيس بن جنادة، وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وأم سلمة، وأسماء بنت عميس. وغيرهم^(٣).

● ولما كانت الدعوة الإلهية لبني إسرائيل جعلت هارون وبنيه مع التوراة على خط واحد. فإن الدعوة الإلهية الخاتمة جعلت أهل البيت مع القرآن على خط واحد، فعين زيد بن أرقم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمأً بين مكة والمدينة. فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر. ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس. فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال «وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي»^(٤).

وعن زيد بن ثابت قال. قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم خليفتين. كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لا يتفرقا حتى يردوا على الحوض^(٥)، وعن أبي سعيد قال:

(١) البداية والنهاية/ ابن كثير ٧/٣٤٢.

(٢) نظم المتناثر في الحديث المتواتر/ الكتاني ص ١٩٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٩٥.

(٤) مسلم (الصحيح ١٧٩/١٥) وأحمد والحاكم (الفتح الرباني ٢٢/١٠٤).

(٥) رواه أحمد وقال الهيثمي اسناده جيد (الزوائد ٩/١٩٣) (الفتح الرباني

قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي. وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض^(١)، وعن حبيب بن أبي ثابت عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض. وعترتي أهل بيتي. ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض. فأنظروا كيف تخلفوني فيهما»^(٢).

والعتره كما جاء في لسان العرب هي: ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه. وعتره النبي ﷺ. ولد فاطمة البتول عليها السلام^(٣) وفي قوله «إني تارك فيكم الثقلين» قال النووي: سميا ثقلين لعظمهما وكبير شأنهما وقيل: لثقل العمل بهما^(٤).

وحديث الثقلين حديث صحيح. رواه أحمد والطبراني عن زيد بن ثابت، والطبراني وأبو نعيم عن حذيفة بن اسيد، وابن أبي عاصم وأحمد والطبراني وأبو يعلى عن أبي سعيد الخدري، والترمذي والنسائي والحاكم عن زيد بن أرقم، وابن أبي شيبه والترمذي والنسائي والخطيب عن جابر. ومسلم عن زيد بن أرقم^(٥).

١٠٥/٢٢) والطبراني (كنز العمال ١/١٨٦).

(١) رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن والطبراني وقال المناوي رجاله موثقون (الفتح الرباني ١/١٨٦) (كتاب السنة ٢/٦٤٤).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب (الجامع ٥/٦٦٣) وقال في تحفة الأحوازي رواه مسلم من وجه آخر (التحفة ١٠/٢٩٠).

(٣) لسان العرب ص ٢٧٩٦.

(٤) مسلم شرح النووي ١٥/١٧٩.

(٥) انظر: كنز العمال ص ١٧٢، ١٧٣، ١٨٦، ١/١٨٧، ٤/٤٣٥، ٥/٢٩٠ وكتاب السنة ص ٣٥١، ٢/٦٤٤ والبداية والنهاية ٥/٢٠٩.

● فمَنْ ذرأَ الله ذرية آدم وهو سبحانه يزكي من يشاء، ويجعل سبحانه بعض الناس لبعض فتنة يمتحنون بها، وعلى إمتداد المسيرة الإسرائيلية إمتحن الله تعالى بني إسرائيل إمتحانات شتى. ومنها إمتحانهم بهارون وبنيه. ولم يكن لموسى عليه السلام ولد من صلبه. وشاء الله أن يجعل إمتداده في أخيه هارون وبنيه من بعده. وكان هارون وبنوه ذروة سبط لاوى الذي منه موسى وهارون عليهما السلام. وبهم! إمتحن الله تعالى بقية الأسباط. وعلى إمتداد المسيرة سفكت الدماء الزكية عندما جاء الهداة لبني اسرائيل بما لا تهوى أنفسهم.

وعندما بعث النبي ﷺ. إمتحن الله أمته بإمتحانات شتى بعد أن أقام عليهم الحجة، ومن هذه الإمتحان بعثرة النبي ﷺ، وشاء الله أن يجعل إمتداد النبي في إبنته فاطمة وعلي بن أبي طالب، ولما كانت منزلة علي من النبي ﷺ بمنزلة هارون من موسى عدا النبوة، فإن الدعوة الخاتمة أقامت الحجة في أكثر من موضع على مكانة علي بن أبي طالب من الرسول ﷺ، لتعليم القافلة دوائر التحذير فلا تقترب منها على إمتداد المسيرة.

● ومن الأحاديث التي تبين مكانة علي بن أبي طالب من الرسول ﷺ، أن الله تعالى جعل النبي ﷺ خير الناس نفساً، وجعل علي ابن أبي طالب كنفس النبي ﷺ، قال النبي ﷺ «إن الله خلق الخلق. فجعلني في خيرهم فرقة. ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة. ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة. ثم جعلهم بيوتاً. فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً»^(١)، وعن جابر بن عبد الله قال في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فقل تعالوا ندع

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (الجامع ٥٨٤ / ٥) ورواه أحمد (الفتح الرباني ٢٦٦ / ٢١).

أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم. ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين^(١). قال: قدم على النبي ﷺ. العاقب والطيب. فدعاهما إلى الملاعة فواعداه على أن يلاعناه الغداة. فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما. فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج، فقال رسول الله ﷺ: والذي بعثني بالحق. لو قالوا لا لأمطر عليهم الوادي ناراً، قال جابر وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا... الآية﴾ قال جابر: «أنفسنا وأنفسكم... رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب «وأبناءنا» الحسن والحسين، «ونساءنا» فاطمة، قال ابن كثير: رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة^(٢).

● وجعل النبي ﷺ علي بن أبي طالب على ذروة العشيرة الأقربين. كما وضع موسى هارون على ذروة الأسباط، روي عن علي ابن أبي طالب أنه قال: «لما نزل قوله تعالى: ﴿وأندر عشيرتك الأقربين﴾^(٣) جمع النبي ﷺ من أهل بيته فاجتمع ثلاثون. فأكلوا وشربوا. فقال لهم: من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ويكون خليفتي في أهلي، قال رجل: يا رسول الله أنت كنت بحرراً من يقوم بهذا، ثم قال الآخر، فعرض النبي ﷺ هذا على أهل بيته واحداً واحداً، فقال علي: أنا^(٤)، وفي رواية: قال النبي ﷺ «فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي، فلم يقم إليه أحد، قال علي: فقامت إليه وكنت من أصغر القوم. فقال: إجلس. ثم قال مرة

(١) سورة آل عمران آية ٦١.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٧٠.

(٣) سورة الشعراء آية ٢١٤.

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٣/١٢٢) ورواه ابن جرير وصححه والطحاوي والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٣/١٢٩).

أخرى، كل ذلك أقوم اليه. فيقول لي: إجلس. حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي^(١)، وفي رواية: قال النبي ﷺ: إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به، إني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم اليه، فأياكم يؤازرنى على أمري هذا، فقال علي: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتي. وقال: إن هذا أخي وصيي وخليفتي فيكم فإسمعوا وأطيعوا^(٢).

● وجعل النبي ﷺ علي بن أبي طالب على ذروة المهاجرين والأنصار، عن عمر بن عبد الله عن أبيه عن جده. أن النبي ﷺ، آخى بين الناس وترك علياً حتى بقي آخرهم لا يرى له أخاً، فقال: يا رسول الله آخيت بين الناس وتركتني، قال: ولم تراني تركتك؟ تركتك لنفسى. أنت أخي وأنا أخوك. فإن ذكرت أحد فقل: أنا عبد الله وأخو رسول الله لا يدعيها بعد إلا كذاب^(٣)، وروى أن النبي ﷺ قال لعلي «أنت أخي في الدنيا والآخرة»^(٤). قال ابن كثير: كان المشايخ يعجبهم هذا الحديث لكونه من رواية أهل الشام^(٥).

● وجعل النبي ﷺ بيت علي بن أبي طالب ذروة البيوت. فعن زيد بن أرقم قال: كان لنفر من أصحاب رسول الله أبواب شارعة في المسجد. فقال النبي يوماً: سدوا هذه الأبواب إلا باب علي. فتكلم في ذلك الناس. فقام رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أما بعد. فإني أمرت بسد هذه الأبواب إلا باب علي، وقد قال فيه قائلكم،

(١) رواه أحمد وابن جرير والضياء بسند صحيح (كنز العمال ١٣/١٧٥).

(٢) رواه ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي (كنز العمال ١٣/١٣٣).

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى (كنز العمال ١٣/١٤٠) (تحفة الأحوازي ١٠/٢٢٢).

(٤) رواه الترمذي والحاكم وصححه (كنز العمال ١١/٥٩٨).

(٥) البداية والنهاية ٧/٣٣٦.

وإني والله ما سددت شيئاً ولا فتحت، ولكن الله أمر بشيء فأتبعته»^(١)، وفي رواية: قال ﷺ «ما أخرجتكم من قبل نفسي، ولا أنا تركته، ولكن الله أخرجكم وتركه، وإنما أنا عبد مأمور، ما أمرت به فعلت، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ»^(٢).

وهذا الحديث رواه جمع من الصحابة منهم: سعد بن أبي وقاص، وزيد بن أرقم، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وجابر بن سمرة، وأنس بن مالك، وبريدة الأسلمي، وعلي بن أبي طالب. وقال السيوطي: ثبت بهذه الأحاديث الصحيحة بل المتواترة، أنه ﷺ منع فتح باب شارع في المسجد ولم يأذن لأحد ولا لعمه العباس ولا لأبي بكر، إلا لعلي، وقال الحافظ الكتاني: وقد أورد ابن الجوزي في الموضوعات حديث سد الأبواب مختصراً على بعض طرقه، وفي هذا قال الحافظ ابن حجر: وقد أخطأ ابن الجوزي في ذلك خطأ شنيعاً لرده الأحاديث الصحيحة^(٣).

● وجعل النبي ﷺ علي بن أبي طالب على ذروة الجنود. عن أبي هريرة قال: إن النبي ﷺ قال يوم خيبر «لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله» - وفي رواية عن مسلم: رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله - يفتح الله على يديه. قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ فتساورت لها رجاء أن أدعى لها. فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب. فأعطاه إياها.. وقال: إمش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك. فسار علي شيئاً ثم وقف ولم يلتفت وصرخ: يا رسول الله على

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٩/١١٤) (الفتح الرباني ٢٣/١١٨) والحاكم والضياء بسند صحيح (كنز ١١/٥٩٨).

(٢) رواه البزار وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٩/١١٥) والطبراني (كنز العمال ١١/٦٠٠).

(٣) نظم المتنائر في الحديث المتواتر ص ١٩٥.

ماذا أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله^(١).

ومن أحاديث الذروة أيضاً ما روي عن جابر بن عبد الله قال: دعا رسول الله ﷺ علياً يوم الطائف فإنتجاه فقال الناس: لقد طال نجواه مع ابن عمه. فقال رسول الله ﷺ: ما إنتجيته ولكن الله إنتجاه^(٢) وفي رواية: قال أبو بكر: يا رسول الله قد طالت مناجاتك علياً. فقال: ما أنا إنتجيته ولكن الله إنتجاه^(٣) قال في تحفة الأحوازي: أي أني بلغت عن الله ما أمرني أن أبلغه إياه. فحينئذ إنتجاه الله لا إنتجيته. وقال الطيبي: كان ذلك أسرار إلهية وأمور غيبية جعله من خزانها^(٤).

ومن أحاديث الذروة. ما روي عن جابر. قال. لما سأل أهل قباء النبي ﷺ. أن يبنني لهم مسجداً قال رسول الله ﷺ: ليقم بعضكم فيركب الناقة. فقام أبو بكر فركبها فلم تنبعث فرجع فقعده، فقام عمر فركبها فحركها فلم تنبعث فرجع فقعده، فقام علي. فلما وضع رجله في غرز الركاب وثبت به، فقال رسول الله ﷺ: يا علي إرخ زمامها. وإبنوا على مدارها فإنها مأمورة^(٥).

● وعلى ضوء ما ذكرنا من الأحاديث الصحيحة. تشرق منزلة

(١) رواه مسلم (الصحيح ١٧٦/١٥) وأحمد (الفتح الرباني ١٣٢/٢٣) والبخاري عن سلمة بن الأكوع (الصحيح ١٦٦/٢) والحاكم عن جابر (المستدرک ٣/٣٨).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن (الجامع ٦٣٩/٥) وابن كثير (البداية والنهاية ٧/٣٥٧).

(٣) رواه الطبراني عن جنوب بن ناجية (كتر العمال ١٣٩/١٣).

(٤) تحفة الأحوازي ١٠/٢٣١.

(٥) رواه الطبراني في الكبير (كتر العمال ١٣٩/١٣).

علي بن أبي طالب من رسول الله داخل أحياء قريش، فهو بين العشيرة الأقربين. أخو النبي ووصيه وخليفته، وهو بين المهاجرين والأنصار. عبد الله وأخو رسول الله لا يدعيها بعد إلا كذاب، وبابه بين الأبواب. هو الباب المفتوح. وعلم الجميع أن الله أخرجهم وتركه. وأن النبي في هذا مأمور. ما أمر به فعله إن يتبع إلا ما يوحى إليه، وفي ميادين القتال علم الخاص والعام. أن علياً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وعلموا أن الله إنتجاء، ويوم بناء المسجد علموا أن الناقة مأمورة. وعلموا أن الكتاب والعتر لا يفترقا حتى يردا علي الحوض. وأن العترة في صلب علي وفاطمة عليهما السلام. لقول النبي ﷺ «... علي أصلي...»^(١).

● وبين إشراق منزلة علي من النبي ﷺ. وبين منزلة هارون من موسى عليهما السلام، يمتد ظلال الدعوة الإلهية، وتحت هذا الظلال تسير الأمة الخاتمة بمنهجها المهيمن على جميع المناهج، وقد حذرهم الله تعالى من السلوك في طريق الفراعنة. بعد أن جعل قياس النبي ﷺ إلى موسى. وقياس الأمة إلى فرعون وقومه^(٢). وبعد أن حذرهم من أن يكونوا كالذين أذوا موسى^(٣). وبعد أن علموا أن الله يزكي من يشاء. ويجعل بعض الناس لبعض فتنة يمتحنون بها.

وعلى طريق المنزلة رويت أحاديث صحيحة. يُرى فيها موقع الذروة الذي يستقيم مع موقع المنزلة. وسنذكر بعض هذه الأحاديث في موضعها.

(١) رواه الطبراني والضياء بسند صحيح (١٣/٦٠٢ كنز).

(٢) سورة المزمل آية ١٥.

(٣) سورة الأحزاب آية ٦٩.

٢ - [أضواء على المنزلة العالية]

قامت الدعوة الإلهية على إمتداد المسيرة البشرية، بمخاطبة الإنسان الذي يسلك طريقها. وإرشاده إلى ما فيه سعادته، وحذرت من التقادر الذي يتلبس بالدين، لأن مهمة النفاق في ديار الذين آمنوا. لا تنفصل عن مهمة الشيطان الذي إعتد في برنامج القعود على الصراط المستقيم ﴿قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾^(١)، وتيار الصد عن سبيل الله إعتد على المنافقين في حفر الحفر العديدة على إمتداد مسيرة الذين آمنوا، ومن خلال هذا الحفر رفعت الأعلام العديدة. التي تقوم ببرنامجها بالتعقيم على الفطرة، والقافلة الإسرائيلية لم تسقط في مستنقع عبادة العجول نتيجة لغزوها من الخارج، وإنما سقطت أولاً من الداخل. على أيدي الذين يجلسون تحت خيامها ويتلبسون بالدين.

والدعوة الإلهية الخاتمة. بينت أن المنافقين ينقون الناس بالإيمان الكاذبة والحلفان الآثمة. ليصدقوا فيما يقولون. فيغتر بهم من لا يعرف جليلة أمرهم. ويقتدي بهم فيما يفعلون ويصدقهم فيما يقولون، فيحصل بهذا ضرر كبير، وبينت الدعوة أن منهم أصحاب أشكال حسنة والسنة ذو فصاحة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿هم العدو فأحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾^(٣).

ولقد وصفهم القرآن بأوصاف منها أنهم رجس، قال تعالى: ﴿إنهم رجس ومأواهم جهنم بما كانوا يكسبون﴾^(٤) فهم في دائرة الخبث

(١) سورة الأعراف آية ١٦ .

(٢) سورة المنافقين آية ٤ .

(٣) سورة النساء آية ١٤٥ .

(٤) سورة التوبة آية ٩٥ .

والتنجس نتيجة لما تحتويه بواطنهم وإعتقاداتهم، والذين في قلوبهم مرض ويتلبسون بالدين الخاتم ورثوا قلوب وعقول الذين سبقوهم من بني إسرائيل، فإذا كان الذين كفروا من بني إسرائيل لا يقبلون إلا ما يوافق أهواءهم. فإن المنافقين إذا سمعوا آية من كتاب الله زادتهم رجساً إلى رجسهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كَافِرُونَ﴾^(١). قال المفسرون: «زادتهم رجساً إلى رجسهم» أي زادتهم شكا إلى شكهم وريباً إلى ريبهم. وهذا من جملة شقائهم. أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيء المزاج لو غذى بما غذى به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

ولأن تيار النفاق لا يزداد إلا رجساً، ولأنهم أصحاب السنة وإذا سمعهم السامع أصغى إلى قولهم لبلاغتهم، ولأن برنامج الصد عن سبيل الله إذا تلبس بالدين كان أشد خطراً على الدعوة، فإن الدعوة الخاتمة قامت بعزل هذا التيار عن ساحتها. وأقامت حجتها بطائفة الحق. وتحت سقف الإمتحان والابتلاء تسير القافلة فمن شاء إتخذ إلى ربه سبيلاً.

وطائفة الحق من خصائصها أن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وبهذه الصفة كانوا مع كتاب الله ولن ينفصلا حتى يردا على حوض النبي ﷺ، ومعنى أنهم مع كتاب الله أنهم أعلم الناس بكتاب الله، وهم أمان للأمة من الوقوع في دائرة التأويل الخاطيء لكتاب الله. وخاصة الآيات المتشابهة، وذلك لأن تيار الذين في قلوبهم زيغ يتخذ من المتشابه حقلًا له إبتغاء الفتنة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ

(١) سورة التوبة آية ١٢٥.

الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وإبتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب»^(١) قال المفسرون : (فأما الذين في قلوبهم زيغ) أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل «فيتبعون ما تشابه منه» أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة . وينزلوه عليها لإحتمال لفظه لما يصرفونه ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه . لأنه رافع لهم وحجة عليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿إبتغاء الفتنة﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن . وهو حجة عليهم لا لهم ، وقوله تعالى «وإبتغاء تأويله» أي تحريفه على ما يريدون .

● لأن تيار الذين في قلوبهم زيغ والذين في قلوبهم مرض يتلبس بالدين ويجلس في خيام القافلة ، أقام الله الحجة بالكتاب وبالعترة التي لا يضرها من عاداتها أو من خذلها أو من خالفها لأنها شعاع يهدي والله تعالى ينظر الى عباده كيف يعملون ، وتطهير أهل البيت والشهادة لهم بالعلم والعمل ، والتحذير من مخالفتهم . وغير ذلك . وردت فيه أحاديث صحيحة ، سنقدمها ونقابلها بما في منزلة هارون من موسى عليهما السلام .

● أولاً - «مقام التطهير»:

قال تعالى : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾^(٢) قال ابن عباس : «يذهب عنكم الرجس» أي عمل

(١) سورة آل عمران آية ٧ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٣ .

الشيطان وما ليس لله فيه رضا، وقال الأزهري: الرجس إسم لكل مستقذر من كل عمل، وقال ابن حجر: والمعنى. التطهير من الأرجاس والأدناس ونجاسة الآثام^(١).

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾^(٢)، وروى عن عمر بن أبي سلمة أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إنما يريد الله...﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسناً وحسيناً، فجللهم بكساء وعلي خلف ظهره فجلله بكساء، ثم قال «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، قالت أم سلمة رضي الله عنها: وأنا معهم يا نبي الله. قال: أنت على مكانك وأنت على خير^(٣)، وعن شداد بن عمار قال. دخلت على وائلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا علياً رضي الله عنه فشموه، فشمته معهم، فلما قاموا. قال لي شمت هذا الرجل؟، قلت: قد شتموه فشمته معهم، قال: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة رضي الله عنها أسألها عن علي رضي الله عنه، فقالت: توجه إلى رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين رضي الله عنهم. أخذاً كل واحد منهما بيده حتى دخل، فأدنى علياً وفاطمة رضي الله عنهما وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم كساءه، ثم تلى ﷺ هذه الآية

(١) انظر: الفتح الرباني ١٨/٢٣٨.

(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٥/١٩٤) والحاكم (المستدرک ٣/١٤٧).

(٣) رواه الترمذي (الجامع ٥/٣٥١) وابن جرير والطبراني وابن مردويه (تحفة الأحوازي ٩/٩٧) وابن كثير في التفسير (٣/٤٨٥).

«إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا». وقال اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحور^(١)، وعن أبي الحمراء قال: رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ. رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي وفاطمة رضي الله عنهما. فقال: «الصلاة الصلاة إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»^(٢)، وعن أنس بن مالك قال: أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر، يقول «الصلاة يا أهل البيت. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»^(٣).

● وحديث الكساء وردت فيه روايات جملة تزيد على سبعين حديثاً رواها: أم سلمة، وعائشة، وأبي سعيد الخدري، وسعد بن أبي وقاص، ووائل، وأبي الحمراء، وابن عباس، وثوبان، وعبد الله بن جعفر، وعلي، والحسين بن علي.

● والمتدبر في حديث الكساء يجد أن أحداثه وقعت في أكثر من مكان، وقعت في بيت أم سلمة وفي بيت عائشة وفي بيت فاطمة وأمام أكثر من واحد، ويجد أيضاً أن النبي ﷺ كان ينادي عند بيت فاطمة وقت صلاة الفجر لمدة ستة أشهر وفي رواية سبعة أشهر، وتكرار المشهد وإستمرار النداء طيلة هذه المدة. يعطي أن النبي ﷺ كان يقيم بهذا الحجة على كل من سمع ورأى وصلى في مسجده. بأن هؤلاء هم أهل البيت، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يثبت أمراً من الأمور في ذاكرة من حوله، يكرر هذا الأمر من ثلاثة إلى عشر مرات، ووضح

(١) قال ابن كثير رواه الامام أحمد وابن جرير (التفسير ٤٨٣/٣).

(٢) قال ابن كثير رواه ابن جرير (التفسير ٤٨٣/٣).

(٣) قال ابن كثير رواه الامام أحمد (التفسير ٤٨٣/٣).

ذلك في روايات عديدة حملت تحذيرات مما يستقبل الناس من أحداث .
ينتج عنها ما ليس لله فيه رضا .

● وإذا كانت دعاء الرسول لمن تحت الكساء وتلاوته ﷺ لآية التطهير، يعطي للناس مفهوم إذهاب الرجس والتطهير لمن تحت الكساء عليهم السلام، فإن الدعوة الإلهية لبني إسرائيل أعطت لبني إسرائيل نفس المفهوم . ولكن بطريقة تستقيم مع الشريعة في هذا الوقت، جاء في العهد القديم «قال الرب لموسى: وتقدم هارون وبنيه الى باب خيمة الاجتماع . وتغسلهم بماء . وتلبس هارون الثياب المقدسة . وتمسحه وتقدسه ليكون لي . وتقدم بنيه وتلبسهم أقمصاً . وتمسحهم كما مسحت أباهم ليكونوا لي»^(١) .

● ثانياً - «حكام العلم»:

إن العلم بالله هو ذروة كل العلوم وهو أشرف العلوم . لأن الله هو أشرف معلوم على الإطلاق، ولأن العلم بالله من أشق العلوم وأبعدها منالاً، لطف الله بعباده وباح سبحانه بالعلم الشريف لأنبيائه ورسله ومن إرتضاه من عباده، ليسوقوا الناس إلى صراط الله العزيز الحميد، وقيموا الحجة على كل سمع وكل بصر وكل فؤاد، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

روي عن الامام علي أنه قال «إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به» ثم تلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، وروي عن مكحول قال لما نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَتَعْبِهَا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ قال رسول

(١) سفر الخروج ١١/٤ - ١٦ .

(٢) رواه اللالكائي (كتر العمال ١/٣٧٩) .

الله ﷺ «سألت ربي أن يجعلها أذن علي» فكان علي يقول: ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً قط فنسيته^(١)، وعن ابن مرة الأسلمي قال. قال رسول الله ﷺ لعلي «إني أمرت أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك وأن تعي وحق لك أن تعي» فنزلت هذه الآية ﴿وتعيها أذن واعية﴾^(٢) وعن أبي الطفيل قال. قال علي: سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل^(٣)، وعن سليمان الأحمس قال. قال علي: إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً ناطقاً^(٤).

● وفي قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه. ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به. ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده. فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾^(٥).

روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: قال رسول الله ﷺ «أفمن كان على بينة من ربه. أنا. ويتلوه شاهد منه. علي»^(٦). وعن علي أنه قال: ما من رجل من قريش إلا نزلت فيه طائفة من القرآن. فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ رسول الله ﷺ على بينة من ربه. وأنا شاهد

-
- (١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير (تفسير ابن كثير ٤/٤١٣) ورواه الضياء بسند صحيح وابن مردويه وأبو نعيم (كنز العمال ١٣/١٧٧).
(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير (تفسير ابن كثير ٤/٤١٣).
(٣) رواه ابن سعد (الطبقات الكبرى ٢/٣٣٨).
(٤) رواه ابن سعد (الطبقات الكبرى ٢/٣٣٨).
(٥) سورة هود آية ١٧، ١٨.
(٦) رواه ابن مردويه بإسنادين (كنز العمال ٢/٤٣٩).

منه^(١)، وقال صاحب الميزان: والظاهر. أن المراد بهذا الشاهد بعض من أيقن بحقية القرآن وكان على بصيرة إلهية من أمره. فأمن به عن بصيرة وشهد بأنه حق منزل من عند الله تعالى. كما يشهد بالتوحيد والرسالة. فإن شهادة الموقن البصير على أمر تدفع عن الإنسان مرية الإستيحاش وريب التفرد، فإن الإنسان إذا أذعن بأمر رتفرد فيه. ربما أوحش التفرد فيه إذا لم يؤيده أحد في القول به. أما إذا قال به غيره من الناس وأيد نظره في ذلك. زالت عنه الوحشة وقوى قلبه وإرتبط جأشه. وقد إحتج تعالى بما يماثل هذا المعنى في قوله ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾^(٢). وعلى هذا فقوله ﴿يتلوه﴾ من التلو لا من التلاوة. والضمير فيه راجع إلى «من» أو إلى «بينة» بإعتبار أنه نور أو دليل. ومآل الوجهين واحد. فإن الشاهد الذي يلي صاحب البينة يلي بينته كما يلي نفسه. والضمير في قوله «منه» راجع إلى «من» دون قوله «ربه» وعدم رجوعه إلى البينة ظاهر. ومحصل المعنى: من كان على بصيرة إلهية من أمر. ولحق به من هو من نفسه. فشهد على صحة أمره وإستقامته.

وعلى هذا الوجه ينطبق ما ورد في الروايات أن المراد بالشاهد. علي بن أبي طالب، إن أريد به أنه المراد بحسب إنطباق المورد لا بمعنى الإرادة الإستعمالية. وقوله تعالى: ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾ راجع. إلى الموصول أو إلى البينة على حد ما ذكرناه في ضمير «يتلوه» والجملة حال بعد حال، أي أفمن كان على بصيرة إلهية ينكشف له بها أن القرآن حق منزل من عند الله، والحال أن معه شاهد

(١) رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم وأبو نعيم (كتر العمال ٤٣٩/٢).

(٢) سورة الأحقاف آية ١٠.

منه يشهد بذلك عن بصيرة، والحال أن هذا الذي هو على بينة سبقه كتاب موسى إماماً ورحمة. فليس ما عنده من البينة ببدع من الأمر غير مسبوق بمثل ونظير، بل هناك طريق مسلوكة من قبل يهدي إليه كتاب موسى، وقد ذكر الله تعالى كتاب موسى بالإمام والرحمة في موضع آخر. وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانِ أَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

● وإذا كان صدر الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ قد ورد في تفسيره أن المراد بالشاهد علي بن أبي طالب. فإن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى إِمَامًا﴾ يرى في ظلاله منزلة هارون من موسى عليه السلام. لأن موسى سأل ربه جل وعلا أن يؤيده بهارون ليشهد له شهادة الموقن البصير على أن الذي جاء به هو من عند الله. وهو قوله تعالى حاكياً عن موسى قوله ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي أَنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾^(٢) قال ابن كثير: سأل ربه أن يرسل معه هارون وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمره. يصدقه فيما يقول ويخبر به عن الله تعالى. لأن خبر الإثنين أنجح في النفوس من خبر الواحد^(٣). ويمكن القول أن الآية الكريمة يُرى في ظلالها المنزلتين. منزلة علي بن أبي طالب وهو من الرسول ﷺ. ومنزلة هارون وهو من موسى عليهما السلام.

● ومن الآيات التي تلقى بظلالها على منزلة علي من رسول الله. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٤) روي عن علي أنه قال:

(١) سورة الأحقاف آية ١٢.

(٢) سورة القصص آية ٣٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٣٨٨.

(٤) سورة الرعد ٧.

رسول الله ﷺ المنذر. وأنا الهادي^(١) وفي لفظ: والهادي رجل من بني هاشم يعني نفسه، وروي لما نزلت الآية. وضع رسول الله ﷺ يده على صدر علي وقال: أنا المنذر. وأوماً بيده إليّ منكب علي وقال: أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي^(٢). وروى عن الجنيد أنه قال: الهادي هو علي بن أبي طالب^(٣).

● وبالجملّة: روى في حديث صحيح أن النبي ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها «إني زوجتك أقدم أمتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً^(٤)». وروى عن ابن عباس أنه قال «أقضانا علي^(٥)» وعن ابن مسعود أنه قال «كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي^(٦)».

● بعد وضوح منزلة علي بن أبي طالب من رسول الله ﷺ على إمتداد عهد البعثة، بدأ النبي ﷺ يمهد الساحة لإعلان ولاية علي بن أبي طالب، ومن ذلك قوله لعلي «أنت ولي في كل مؤمن بعدي^(٧)» وقوله لبريدة الأسلمي عندما جاءه يشكو علياً «فإنه مني وأنا منه. وهو وليكم

(١) رواه ابن أبي حاتم (كنز العمال ٢/٤٤١).

(٢) الفتح الرباني ١٨/١٨٥.

(٣) الفتح الرباني ١٨/١٨٥، تفسير ابن كثير ٢/٥٠١.

(٤) رواه الامام أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٩/١٠١) (الفتح الرباني ٢٣/١٣٣) وابن جرير وصححه عن علي (كنز العمال ١٣/١١٤) والخطيب عن بريرة (كنز العمال ١٣/١٣٥) والطبراني عن معقل بن يسار (كنز العمال ١١/٦٠٥).

(٥) رواه البغوي في شرح السنة. والبخاري في التفسير وأبو نعيم (كشف الخفاء ١/١٨٤).

(٦) رواه الحاكم وصححه (كشف الخفاء ١/١٨٤).

(٧) رواه أحمد وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي بلج وهو ثقة وفيه لين (الفتح الرباني ٢٣/١١٦) وقال ابن كثير رواه ابو داود الطيالسي (البداية ٧/٣٤٦) وصححه الألباني (الصحيحة ٥/٢٦٣).

بعدي . وإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي»^(١)، وراوي هذا الحديث هو ابن بريدة قال في الفتح الرباني: أقسم ابن بريدة أنه تلقى هذا الحديث من والده بريدة مباشرة ليس بينه وبينه واسطة، وهو يفيد أن والده تلقاه من النبي ﷺ مباشرة بغير واسطة، يشير بذلك الى علو السند^(٢).

● وعندما جاء العام العاشر الهجري . خرج النبي ﷺ الى حجة الوداع . روي عن جابر عن عبد الله أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعتة يقول: أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي^(٣)، وروى عن يحيى بن آدم . وكان قد شهد حجة الوداع، أن رسول الله ﷺ قال: علي مني وأنا منه، ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي^(٤).

● وبعد أن أدى رسول الله ﷺ المناسك، وعند عودته الى المدينة، وقف في غدير خم، وهو مكان يقع على الطريق بين مكة والمدينة. على بعد ثلاثة أميال من الجحفة، وروي عن زيد بن أرقم أنه قال: لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع، فنزل غدير خم أمر بدوحات فقممن، ثم قام فقال: كأي قد دعيت فأجيب، إني قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي، فأنظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن

(١) رواه أحمد وقال في الفتح رواه الترمذي باختصار والبخاري باختصار وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وبقية رجال أحمد رجال الصحيح (الفتح الرباني ٢١٤/٢١٤).

(٢) الفتح الرباني ٢١٤/٢١٤.

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن (الجامع ٥/٦٦٢) والنسائي (كنز العمال ١/١٧٢).

(٤) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٣/١٢١) والترمذي وقال حديث حسن (الجامع ٥/٦٣٦) وصححه الألباني (الصحيحة ٥/٦٣٢).

يتفرقا حتى يردا على الحوض، ثم قال: إن الله مولاي وأنا مولى كل مؤمن، ثم أخذ بيد علي فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، قيل لزيد بن أرقم: أأنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: ما كان في الدوحات أحد إلا قد رآه بعينه وسمعه بإذنه^(١).

وعن عائشة بنت سعد قالت: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ وأخذ بيد علي فخطب ثم قال: أيها الناس إني وليكم. قالوا: صدقت، فرفع يد علي فقال: هذا وليي والمؤدي عني وإن الله مولى من والاه ومعادي من عاداه^(٢).

● وعندما نوزع علي بن أبي طالب أيام خلافته، ذكر الناس بهذا الحديث، فعن أبي الطفيل قال: جمع علي الناس في الرحبة ثم قال: أنشد بالله كل امرئ مسلم سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدیر خم ما قال لما قام، فقام إليه ثلاثون من الناس، قال أبو نعيم: فقام إليه ناس كثير، فشهدوا حين أخذ النبي ﷺ بيده فقال: أتعلمون أنني أولى بالمؤمنين من أنفسهم. قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ، قال: من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه^(٣)، وزاد في رواية: وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه وإنصر من نصره وإخذل من خذله^(٤).

(١) رواه ابن جرير من زيد بن أرقم وعن أبي سعيد الخدري (كنز العمال ١٣/١٠٤) والنسائي (البداية ٥/٢٠٩).

(٢) قال ابن كثير: رواه ابن جرير وقال الذهبي هذا حديث حسن. وقال وجدت ذلك في نسخة مكتوبة عن ابن جرير (البداية ٥/٢١٣).

(٣) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة وهو ثقة (الزوائد ٩/١٠٤).

(٤) رواه البزار وابن جرير وقال الهيثمي رجاله ثقات (كنز العمال ١٣/١٥٨) وصححه الألباني (الصحيحة ٥/٣٤٣).

● وقال في الفتح الرباني. قال السيوطي في الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة: حديث من كنت مولاه، أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم، والإمام أحمد عن علي وأبو أيوب الأنصاري، والبزار عن عمرو ذي مر. وأبي هريرة. وطلحة. وعمار وابذن عباس. وبريدة، والطبراني عن ابن عمر. ومالك بن الحويرث. وحبشي بن جنادة. وجريز. وسعد بن أبي وقاص. وأبي سعيد الخدري، وأبو نعيم عن جندع الأنصاري، وقد خصص له الهيثمي سبع صفحات^(١).

● وقال الحافظ الكتاني: حديث من كنت مولاه في رواية لأحمد أنه سمعه من النبي ﷺ ثلاثون صحابياً، وشهدوا به لعلي لما نوزع أيام خلافته، وصرح المناوي بتواتره، وقال ابن حجر: حديث من كنت مولاه أخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق. وقد إستوعبها ابن عقدة في مؤلف مفرد، وأكثر أسانيدھا صحيح أو حسن^(٢).

● وقال ابن كثير: حديث من كنت مولاه رواه الإمام أحمد عن زيد بن أرقم. وقد رواه عن زيد بن أرقم جماعة، ورواه معروف بن جرموز عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد، ورواه ابن ماجة من حديث حماد بن سلمة عن علي بن زيد. ورواه عن عدي بن ثابت بن البراء. وعن أبي إسحاق عن البراء. ورواه عن سعد وطلحة بن عبدالله وجابر بن عبدالله. وله طرق عنه^(٣).

● وقال الألباني: حديث من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، حديث صحيح جاء من طرق جماعة من

(١) الفتح الرباني ٢٣/١٢٨.

(٢) نظم المتناثر في الحديث المتواتر ص ١٩٥.

(٣) البداية والنهاية ٥/٣٥٠.

الصحابة، خرجت أحاديث سبعة منهم، ولبعضهم أكثر من طريق واحد، وقد خرجتها كلها وتكلمت على أسانيدھا في سلسلة الأحاديث الصحيحة^(١).

● ولما كنا قد قابلنا بعض الأحداث التي جرت في عهد البعثة الخاتمة. بمشيلاتها على عهد أنبياء بني اسرائيل. ونحن نرصد منزلة هارون من موسى. فإننا نجد في مقام التطهير والعلم «وكلم الرب هارون قائلاً: خمر ومسكر لا تشرب أنت وبنوك معك.. فرضاً دهریا في أجيالكم. وللتمييز بين المقدس والمحلل. وبين النجس والطاهر. ولتعليم بني اسرائيل جميع الفرائض التي كلم الرب بها بيد موسى»^(٢).

ولقد علمنا أن النبي ﷺ بعد أن أدى المناسك. أعلن ولاية علي بن أبي طالب. وفي مقابل هذا الحدث، نجد العهد القديم يذكر أنه في اليوم الثامن من الشهر الذي تؤدي فيه المناسك، أمر موسى هارون أن يأخذ له عجلًا ليذبحه في اليوم الذي يفيض الله برحمته على العباد، وفعل هارون ما أمر به موسى. «ثم رفع هارون يده نحو الشعب وباركهم.. ودخل موسى وهارون خيمة الاجتماع ثم خرجا وباركا الشعب»^(٣).

● إن الدعوة الإلهية للناس دعوة واحدة. والتوحيد هو عماد هذه الدعوة. والإخلاص في العبادة يجعل شجرة التوحيد داخل النفس الإنسانية شجرة مورقة، لهذا كان الإخلاص في العبادة أفضل الأمور الدينية ومن أوجب الواجبات الشرعية، ولكي يتحقق الإخلاص. فلا بد من حفظ الصلة بالله عز وجل، والمدخل إلى حفظ الصلة بالله. هو

(١) كتاب السنة/ ابن أبي عاصم. تحقيق نصر الدين الألباني ص ٥٦٦/ ٢.

(٢) اللاويين ١٠/ ٨ - ١١.

(٣) المصدر السابق ٩/ ٢٢ - ٢٤.

حفظ الصلة بالرسول، لأن النور المحمدي هو البرزخ الذي بين الناس وبين النور الإلهي الذي تندك له الجبال، وحفظ الصلة بالرسول له قواعد وله علامات وقديماً قالت العرب: .

إذ لم يكن صدر المجالس سيداً فلا خير فيمن صدرته المجالس

٣ - [الترغيب والترهيب]

إن حفظ الصلة بالرسول ﷺ حثت عليه الدعوة الخاتمة في أكثر من آية، منه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(١)، والمعنى: إن كنتم تريدون أن تخلصوا لله في عبوديتكم، فإتبعوا هذه الشريعة التي هي مبنية على الحب والتي ترفع أعلام الإخلاص والإسلام. وتسير بأتباعها نحو صراط الله المستقيم فإن إتبعتموني في سبيلي أحبكم الله. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢). والآية تشير إلى سبيل رسول الله ﷺ، وفيها يأمره تعالى أن يخبر الناس أن هذه سبيله. أي طريقته ومسلكه وسنته، وأن هذا السبيل هو الذي يصل بمن يسلكه إلى سعادة الدارين، لأن النبي يدعو إلى الله على بصيرة ويقين وبرهان، وكل من إتبعه يدعو إلى ما دعا إليه النبي ﷺ، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(٣). في هذه الآية جعل الله تعالى أجر رسالة النبي المودة في القربى، فأأي قربي؟ إن مودة الأقرباء على الإطلاق ليست مما يندب إليه في الإسلام قال

(١) سورة آل عمران آية ٣١.

(٢) سورة يوسف آية ١٠٨.

(٣) سورة الشورى آية ٢٣.

تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾^(١)، والذي يندب إليه الاسلام هو الحب في الله، وبما أن لكل شيء ذروة، فإن الحب في الله ذروته حب النبي ﷺ، ولهذا قيل أن المراد بالمودعة في القربى. هو مودة قرابة النبي ﷺ، وهم عترته من أهل بيته، ومن يتأمل في الروايات المتواترة عن النبي ﷺ. كحديث الثقلين وغيره، يجد أن النبي ﷺ دفع الناس في إتجاه أهل البيت لفهم كتاب الله بما فيه من أصول معارف الدين وفروعها وبيان حقائقه، وهذا لا يدع ريباً في أن إيجاب مودتهم وجعلها أجراً للرسالة. إنما كان ذريعة إلى إرجاع الناس الى أهل البيت. على اعتبار أن لهم المرجعية العلمية.

وروي عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم؟ قال: علي وفاطمة وولداها^(٢)، وعن أبي الدائم قال: لما جىء بعلي بن الحسين أسيراً فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم وإستأصلكم فقال له علي بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم قال: أقرأت آل حم؟ قال: نعم قال: أما قرأت «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى»؟ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم^(٣).

● ومما يثبت أن المقصود بذى القربى: علي وفاطمة وولداها.

(١) سورة المجادلة آية ٢٢.

(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي فيه جماعة ضعفاء وقد وثقوا (الزوائد ٩/١٦٨) وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) أخرجه ابن جرير. والبعثي (تفسير البغوي ٧/٣٦٤) والمقرئ (فضائل أهل البيت ص ٧٢).

تحذير النبي ﷺ من الإقتراب منهم بأذى. لأن من يؤذيههم يكون في الحقيقة قد آذى رسول الله ﷺ، ويقع تحت عقوبة لا يدفعها دافع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(١) ومن المعلوم أنه لا يوجد مخلوق يمكن أن يتقدم بأذى لله تعالى، ولكن الآية تتوعد كل من آذى النبي بشيء، لأن من آذاه فقد آذى الله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله.

● وتحذيرات النبي ﷺ من الإقتراب بأي أذى لعترته، وردت في أحاديث كثيرة، منه ما روي عن سعد بن أبي وقاص قال: كنت جالساً في المسجد أنا ورجلين معي فنلنا من علي، فأقبل رسول الله ﷺ غضبان يعرف في وجهه الغضب، فتعوذت بالله من غضبه، فقال: ما لكم ومالي من آذى علياً فقد آذاني^(٢)، ومنه ما روي عن عمرو بن شماس الأسلمي. قال. خرجت مع علي إلى اليمن. فجفاني في سفري ذلك. حتى وجدت في نفسي عليه. فلما قدمت أظهرت شكايته في المسجد. حتى بلغ رسول الله ﷺ. فلما رأي أمدى عينيه (أي حدد الي النظر) حتى إذا جلست قال: يا عمرو والله لقد آذيتني. قلت أعوذ بالله ان أؤذيك يا رسول الله. قال: بلى من آذى علياً فقد آذاني^(٣) ومنه ما روي عن المسور بن مخرمة قال. قال النبي ﷺ:

(١) سورة الأحزاب آية ٥٧.

(٢) أخرجه الامام أحمد وقال الهيثمي رجال أحمد ثقات (الزوائد ٩/١٢٩) (الفتح الرباني ٢٣/١٢٠) ورواه الحاكم وصححه (المستدرک ٣/١٢٢) ورواه البزار (كشف الأستار ٣/٢٠٠) ورواه ابن حبان في صحيحه (الزوائد ٩/١٢٩) ورواه ابن أبي شبة وابن سعد والبخاري في تاريخه والطبراني (كتر العمال ١٣١/١٤٢) وابن كثير (البداية ٧/٣٤٧).

(٣) رواه أبو يعلى وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٩/١٢٩) وابن كثير (البداية ٧/٣٤٧).

إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها^(١).

● وبالجمله إن الدعوة الإلهية الخاتمة بينت أن الإخلاص في العبادة أفضل الأمور الدينية ومن أوجب الواجبات الشرعية. وبينت إن حفظ الصلة بالرسول هو صراط حفظ الصلة بالله. فمن آذى الرسول فقد آذى الله ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله.

● ولأن المنافقين في كل عصر يعملون من أجل تدمير الدعوة من داخلها، فإن الدعوة الإلهية الخاتمة فتحت بين حركة النفاق وبين حركة الإيمان، لتصحيح الساحة بعد هذا الفتح من طرفين، لكل طرف أعلامه ومذاقه، لتسير القافلة وهي على بينة من أمرها، لينظر الله إلى عباده كيف يعملون، وهذا الفتح يرى بوضوح إذا تدبر الباحث في الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ، ومنها ما روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: «والذي خلق الحبة وبرأ النسمة. إنه لعهد النبي ﷺ إليّ. أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق»^(٢)، وما روي عن أبي ذر أنه قال. قال رسول الله ﷺ لعلي: يا علي من فارقني فارق الله. ومن فارقك يا علي فارقني»^(٣)، وما روي عن عبيد الله بن عباس قال: نظر النبي ﷺ إلى علي فقال: يا علي أنت سيد في الدنيا. سيد في الآخرة. حبيبك حبيبي. وحبيبي حبيب الله. وعدوك عدوي. وعدوي عدو الله. الويل لمن أبغضك بعدي»^(٤).

(١) رواه مسلم (الصحيح ١٦/٣) والبخاري بلفظ: فمن أغضبها أغضبني (الصحيح ٣٠٢/٢).

(٢) رواه مسلم (الصحيح ٢/٦٤) والترمذي (الجامع ٥/٦٤٣) وأحمد (الفتح الرباني ٢٣/١٢٢).

(٣) رواه البزار وقال الهيثمي رجاله ثقات (كشف الأستار ٢٠١/٣) (الزوائد ٩/١٣٥) والحاكم وصححه (المستدرک ٣/١٢١).

(٤) رواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وأبو الأزهر بإجماعهم ثقة وإذا=

● وما روى عن أسرة عمار ابن ياسر. فعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه عن جده أنه قال. قال رسول الله ﷺ «أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب. فمن تولاه فقد تولاني. ومن تولاني فقد تولى الله. ومن أحبه فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله. ومن أبغضه فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل»^(١)، وعنه أيضاً قال. قال رسول الله ﷺ: اللهم من آمن بي وصدقني فليتولى علي بن أبي طالب. فإن ولايته ولايتي وولايتي ولاية الله^(٢) وقيل لسلمان الفارسي: ما أشد حبك لعلي. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أحب علياً فقد أحبني ومن أبغض علياً فقد أبغضني^(٣). وقيل لعمار بن ياسر. ما أشد حبك لعلي. فقال: قال رسول الله ﷺ: يا عمار إن رأيت علياً قد سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره. فإسلك مع علي ودع الناس^(٤).

● وما روى عن أسرة أبي رافع. فعن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده قال: قال النبي ﷺ: يا أبا رافع سيكون بعدي قوم يقاتلون علياً. حق على الله جهادهم. فمن لم يستطع جهادهم بيده فبلسانه. ومن لم يستطع بلسانه. فبقلبه ليس وراء ذلك شيء^(٥)، وعن عمار بن ياسر قال. قال رسول الله ﷺ: يا علي ستقاتلك الفئة الباغية

-
- = تفرد الثقة بحديث فهو على أصلهم صحيح والحديث سمعه يحيى بن معين من أبي الأزهر فصدقه (المستدرک ٣/١٢٨) ورواه ابن كثير (البداية ٧/٣٥٦).
- (١) رواه الطبراني في الكبير وابن عساكر (كنز العمال ١١/٦١٠).
- (٢) رواه الطبراني في الكبير (كنز ١١/٦١١).
- (٣) رواه الحاكم وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (المستدرک ٣/١٣٠).
- (٤) رواه الديلمي (كنز العمال ١١/٦١٤).
- (٥) رواه الطبراني (كنز العمال ١١/٦١٣) وقال الهيثمي رواه الطبراني وفيه محمد بن عبد الله وثقه ابن حبان. ويحيى بن الحسين لم أعرفه وبقيته رجاله ثقات (الزوائد ٩/١٣٤).

وأنت على الحق. فمن لم ينصرك يومئذ فليس مني^(١)، وعمار راوي هذا الحديث. قاتل مع الإمام علياً. وقتل في صفين. وكان النبي قد أخبر بقتله وهو يخبر بالغيب عن ربه جل وعلا، روى البخاري أن النبي ﷺ قال: ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار^(٢).

● وبالجملية: عن أبي سعيد الخدري قال. قال رسول الله ﷺ: لا يبغضنا أهل البيت أحداً إلا أدخله الله النار^(٣). وعن أبي هريرة قال: نظر النبي ﷺ إلى علي وإبنه وفاطمة وقال: أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم^(٤).

● ولأن النبي ﷺ جعل الكتاب والعترية في حبل واحد. وأخبر بالغيب عن ربه بأنهما لن ينفصلا حتى يرث علي الحوض. ولأنه ﷺ حث الأمة في أكثر من مكان بأن تمسك بهذا الحبل لأنه وافي لها من الضلال. وقال «فأنظروا كيف تخلفوني فيهما» فإنه أخبر بالغيب عن ربه بأن أهل بيته سيلقون بعده من الأمة قتلاً وتشريداً، وكما حذر موسى عليه السلام بني إسرائيل من الاختلاف في الوقت الذي خبر فيه بأنهم سيختلفون وهو يخبر بالغيب عن ربه، كذلك فعل النبي الخاتم ﷺ، كان

(١) رواه ابن عساکر (کنز العمال ١١/٦١٣).

(٢) رواه البخاري ك الصلاة ب التعاون في بناء المساجد. ورواه أحمد (الفتح الرباني ٢٢/٣٣١).

(٣) رواه الحاكم وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (المستدرک ٣/١٥٠).

(٤) رواه الحاكم وقال حديث صحيح ولم يخرجاه (المستدرک ٣/١٤٩) وأحمد (الفتح الرباني ٢٢/١٠٦) والترمذي عن زيد بن أرقم (الجامع ٥/٦٩٩) وابن ماجه والحاكم عن زيد (کنز ١٢/٩٦) والطبراني وأحمد والحاكم عن أبي هريرة (کنز ١٢/٩٧) وابن أبي شيبه وابن حبان في صحيحه والضياء بسند صحيح عن زيد (کنز ١٣/٦٤٠).

يحذر من الاختلاف ويقول «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم إختلفوا فهلكوا»^(١)، وفي نفس الوقت يخبر بالغيب عن ربه . ويقول «إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة فهلك سبعون فرقة . وخلصت فرقة واحدة . وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة . تهلك إحدى وسبعون وتخلص فرقة . قيل: يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: الجماعة الجماعة»^(٢).

لقد كان الإخبار بالغيب فيما يستقبل الناس من أحداث، لطف من الله ليعلم سبحانه من يخافه بالغيب فلا يأخذوا بالأسباب التي عليها التحذير، ويأخذوا بالأسباب التي فيها الله ولرسوله رضاً، والنبي ﷺ أمر الأمة بأن تأخذ بطرف الحبل الذي عليه الكتاب والعترة، ثم يخبر بالغيب عن ربه فيقول «إن أهل بيتي سيلقون بعدي من أمتي قتلاً وتشريداً»^(٣)، وعن علي بن أبي طالب أنه قال: إن مما عهد إلي رسول الله ﷺ أن الأمة ستغدر بك بعدي^(٤). وكل طريق له أسبابه . والله تعالى ينظر الى عباده كيف يعملون .

ولأن الطريق عليه لإختلاف وإفتراق وغدر ونفي وقتل وتشريد . ظهرت النتيجة عند الحوض في إخبار الرسول ﷺ بالغيب عن ربه ، فعن سهل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا فرطكم على الحوض . من ورد شرب ومن شرب لم يظماً أبداً . وليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني . ثم يحال بيني وبينهم^(٥)، وعن عبد الله قال: قال رسول

(١) رواه البخاري (كتر العمال ١/١٧٧).

(٢) رواه أحمد عن أنس وأبي هريرة (كتر ١/٢١٠) والترمذي وصححه (الجامع ٤/٢٥).

(٣) رواه الحاكم ونعيم ابن حماد (كتر العمال ١١/١٦٩).

(٤) رواه البيهقي وقال ابن كثير سنده صحيح (البداية ٦/٢١٨).

(٥) رواه البخاري (الصحيح ٤/١٤١) ومسلم (الصحيح ١٥/٥٣) وأحمد (الفتح

الله ﷺ: أنا فرطكم على الحوض. ولأنازعن أقواماً. ثم لأغلبن عليهم. فأقول: يا رب أصحابي أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك^(١) وفي رواية عن أبي هريرة بزيادة: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم إرتدوا على أدبارهم القهقري^(٢)، وفي رواية عن ابن عباس: فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم^(٣)، وفي رواية عن أم سلمة: فنناداني مناد من بعدي. فقال: إنهم قد بدلوا من بعدك. فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي^(٤).

● لقد حذر النبي ﷺ من النتيجة التي لا تستقيم مع المقدمة، ولم تجامل الدعوة الإلهية الخاتمة أحداً بعد أن أقامت حجتها، يقول النبي ﷺ «ليردن على الحوض رجال ممن صحبني ورآني...»^(٥) ولم تغن عنهم الصحبة من الله شيئاً، وقال «إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أموت أبداً»^(٦) ومعنى أن تعطي النتيجة قطع صلتهم بالنبي في الآخرة، أنهم قطعوا الصلة يوم أن سارت القافلة تحت سقف الإمتحان والابتلاء لينظر الله الى عباده كيف يعملون، قال تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾^(٧).

● وإذا كانت الدعوة الإلهية الخاتمة قد حذرت كل من يقترب من

الرباني (١/١٩٥).

- (١) رواه البخاري (الصحيح ٤/١٤١) ومسلم (الصحيح ١٥/٢٩).
- (٢) رواه البخاري (الصحيح ٤/١٤٢).
- (٣) رواه البخاري (الصحيح ٣/١٦٠) مسلم (الصحيح ١٧/١٩٤).
- (٤) رواه أحمد وقال في الفتح سنده جيد (الفتح الرباني ١/١٩٧).
- (٥) رواه مسلم (الصحيح ١/١٩٥).
- (٦) رواه الحاكم والامام أحمد (كنز العمال ١١/١٩٧) وابن عساكر (كنز ١١/٢٧١).
- (٧) سورة العنكبوت آية ٣.

سبيل رسول الله ﷺ بأي أذى. فإن الدعوة الإلهية الى بني اسرائيل حذرت كل من يقترب من هارون وبنيه بأذى. جاء في العهد القديم. بأن الله كلم موسى عليه السلام. وأمره بأن يقدم سبط لاوى أمام هارون ليعخدموه ويحفظوا شعائره. ويخدمون خيمة الاجتماع ويحرسون أمتعتها. وقال له «وتوكل هارون وبنيه فيحرسون كهنوتهم والأجنبي الذي يقترب يقتل»^(١).

٤ - [رحيل النبي الخاتم ﷺ]

لقد جاء النبي ﷺ بالأدلة المقبولة. والمعجزات التي هي بلسان التواتر منقولة، وقد قال المسيح عليه السلام: من قبل ثمارهم تعرفونهم، وقد علم المخالف والموافق. أن محمداً رسول الله لم تثمر شجرته عبادة غير الله ولم يشرك مع الله غيره، ولا جعل له نداً من خلقه ولا ولداً، ولا قال لأئمة إعبدوا الهين إثنين ولا ثالث ثلاثة، ولا عبد رجلاً ولا عجباً ولا كوكباً، بل دعا إلى ملة إبراهيم. إله واحد لا اله إلا هو، وأخلص لله وحده، ونزهة عن النقائص والآفات، وجاء بكتاب من عند الله أمر فيه بطاعة الله، ونهى عن معصيته، وزهد في الدنيا ورغب في الآخرة. وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأمر ببر الوالدين وصلة الرحم وحفظ الجار، وفرض الصدقات، وأمر بالصوم والصلاة، وحث على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، ثم كسر الأصنام وعطل الأوثان. وأحمد النيران وأعلن الآذان. فهذه هي ثمار النبي ﷺ. الذي بعثه الله والناس في ظلمة الجهل والانحراف. فأناط الطريق وأقام الحجة. وبين منهجه للبشرية الطريق الذي يحقق السعادة في الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، لأنه يمد الإنسان بالوقود الذي يميز به بين

(١) سفر العدد ٣/٥ - ١٠.

الحلال وبين الحرام، وينطلق بالإنسان نحو الأهداف التي من أجلها خلقه الله، بالوسائل التي الله فيها رضا، ومن خلال المنهج الإسلامي يحفظ الإنسان صلته بالله ورسوله، لأن المنهج يقوم على أوامر الله، فهو سبحانه مصدر جميع السلطات واليه تنتهي جميع القرارات، لأنه تعالى مصدر الخلق والتكوين. وواهب الحياة ومقوماتها، فكما أن له سبحانه الخلق والإبداع. كذلك له الأمر والنهي.

● وبعد أن أقام النبي ﷺ الحجة. حانت الساعة التي يدعى فيها فيجيب، وعلى فراش المرض أخذ النبي ﷺ بالأسباب حتى لا تختلف الأمة من بعده. وهو يعلم أن الاختلاف واقع لا محالة، ونظام العالم هو نظام الأسباب والمسببات، والإنسان مطالب بأن يكون إعماده على الله عند أخذه بالأسباب وفي كل حال، وعلى هذا سار الأنبياء والرسل عليهم السلام، كانوا يخبرون بالغيب عن الله بما يستقبل الناس من فتن وأهوال، ثم يأخذون بالأسباب فيحذرون الناس من مخاطر الطريق.

● عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله ﷺ، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي ﷺ: هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله، فإختلف أهل البيت فإختصموا منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قاله عمر، فلما أكثروا اللغو والإختلاف عند النبي ﷺ، قال النبي ﷺ: قوموا! فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية، ما حال بين النبي ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب. من إختلافهم ولغظهم! ^(١). وفي رواية:

(١) رواه البخاري ب قول المريض قوموا (الصحيح ٤/٧) ومسلم ب ترك الوصية (الصحيح ٥/٧٦) وأحمد (الفتح الرباني ٢٢/١٩١).

قال النبي ﷺ «قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع»^(١)، وروي عن جابر بن عبد الله «أن النبي ﷺ دعا عند موته بصحيفة ليكتب فيها كتاباً لا يضلون بعده، فخالف عليها عمر بن الخطاب حتى رفضها»^(٢)، وعن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس إنه قال: يوم الخميس وما يوم الخميس، ثم جعل تسيل دموعه، حتى رأيت على خديه كأنها نظام اللؤلؤ، قال: قال رسول الله ﷺ «أئتوني بالكتف والدواة - أو اللوح والدواة - أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فقالوا: إن رسول الله ﷺ يهجر»^(٣).

● قال ابن الأثير: القائل هو عمر بن الخطاب^(٤). ومعنى هجر. قال في لسان العرب: يهجر هجراً. إذا كثر الكلام فيما لا ينبغي. وهجر يهجر هجراً. بالفتح: إذا خلط في كلامه وإذا هذى^(٥) وقال في المختار الهجر: الهذيان^(٦) وقال في المعجم. هجر المريض: هذى^(٧).

● لقد اختلفوا وأكثروا اللغظ ولا ينبغي عند رسول الله التنازع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٨). وقال جل شأنه ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم﴾^(٩). وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ

(١) رواه البخاري ك العلم (الصحيح ١/٣١).

(٢) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٢٥/٢٢) وابن سعد (الطبقات ٢٤٣/٢).

(٣) رواه مسلم ب ترك الوصية (الصحيح ٥/٧٦).

(٤) لسان العرب ص ٤٦١٨.

(٥) المصدر السابق ٤٦١٨.

(٦) مختار الصحاح ص ٦٩٠.

(٧) المعجم الوسيط ٩٧٢/٢.

(٨) سورة الحجرات آية ٢.

(٩) سورة النور آية ٦٣.

المرء وقلبه وانه اليه تحشرون. وإتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وإعلموا أن الله شديد العقاب»^(١).

● ومن يتدبر في أحداث يوم الصحيفة ويمسك بأطرافها، تجد أن الرسول ﷺ أراد أن يكتب لهم كتاب يكون سبباً في الأمن من الضلال، وهذا السبب كان كافياً لتنفيذ الأمر، ولكن بعض الذين حضروا قالوا «هجر»، فكانت هذه الكلمة كافية ليمسك الرسول عن كتابة الصحيفة، لأنها ربما تكون مدخلاً لتشكيك البعض في كل ما كتب من وصايا وعهود ويترتب على ذلك فتن عديدة، ويشهد بذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال «قالوا: إن نبي الله ليهجر، ف قيل له: ألا نأتيك بما طلبت؟ قال: أو بعد ماذا!»^(٢)، وأمر الرسول إليهم بأن يأتوه بصحيفة لتكتب لهم الكتاب، هذا الأمر في حد ذاته كافياً لإقامة الحجة عليهم وإن لم يأتوا إليه بالصحيفة، ومن المعلوم أن النبي ﷺ قد أقام الحجة على الأمة بالبلاغ في حجة الوداع وقبلها وبعدها في غدير خم.

● وقد إحتج البعض أن قولهم «حسبنا كتاب الله» يستند الى أن الكتاب جامع لكل شيء، وقولهم هذا يُنتج إشكالاً، لأن الكتاب الجامع لكل شيء أمر بطاعة الرسول، وعلى الرغم من أن الكتاب جامع إلا أنه ليس في استطاعة كل واحد أن يستخرج منه ما يريد على وجه الصواب، لهذا فوض الله رسوله في أن يبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم، ولأن الناس في حاجة الى السنة مع كون الكتاب جامعاً، جعل النبي ﷺ عترته مع الكتاب في حبل واحد ولن يفترقا حتى يردا عليه الحوض، وبالجملية: لما كان الكتاب به آيات متشابهات. وهذه الآيات يتتبعها الذين في قلوبهم زيغ لإثارة الفتن ولتأويل الكتاب، حتى ينتهي

(١) سورة الأنفال آية ٢٥.

(٢) ابن سعد (الطبقات الكبرى ٢/٢٤٢).

تأويلهم الى تعطيل الحكم بالكتاب، ولما كان الكتاب مع كونه جامعاً لكل شيء لا يحقق دوام الهداية وعدم الاختلاف. بدليل أن الضلال وقع والتفريق وقع فعلاً، فإن الأمن من الضلال لا يكون إلا بالكتاب. ومعه الطاهر الذي يتأوله، ويمكن للباحث أن يستنتج ذلك، إذا ربط بين أمر الرسول وهو على فراش المرض. وبين البلاغ الذي أقام به الحجة قبل ذلك، فيوم الصحيفة قال ﷺ «آتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»^(١) وفي بلاغه. قال ﷺ «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي. أحدهما أعظم من الآخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض. فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(٢).

(١) ابن سعد (الطبقات الكبرى ٢/٢٤٢).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن (الجامع ٥/٦٦٣).

الطريق إلى المهري المنتظر

الطريق الى المهدي المنتظر أولاً - [نور الظلام]

أولاً - [موكب الحجة]

بعد وفاة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم، إنطلقت المسيرة الخاتمة تحت سقف الإمتحان والابتلاء بعد أن أقيمت عليها الحجة في عهد البعثة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(١) ومن فضل الله تعالى على بني الإنسان أنه أحاط القافلة البشرية الخاتمة بالحجة الدائمة، بمعنى أن المعجزات التي كان الله تعالى يؤيد بها رسله قبل البعثة الخاتمة كانت تنتهي بوفاة الرسول، ولكن الله عندما إستخلف الأمة الخاتمة أيدها بمعجزات . منها ما إنتهى بوفاة النبي ﷺ، ومنها ما إستمر بعد وفاة النبي وسار مع القافلة على إمتداد المسيرة، ومن هذا

(١) سورة يونس آية ١٤ .

القرآن الكريم وأحاديث الإخبار بالغيب، فهذه المعجزات مهمتها إرشاد بني الإنسان الى طريق الهداية. الذي تتحقق عليه السعادة في الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، وهي شاهد صدق على نبوة النبي ﷺ، بمعنى أن إرشاد النبي وتعاليمه، هي في حقيقة الأمر دعوة الى الجنس البشري على إمتداد المسيرة من الحاضر الى المستقبل. للإيمان بنبوة النبي الخاتم ﷺ، فمن تبين حقيقة إرشاده، ولم يؤمن به في أي زمان، كان كمن كذبه عند بداية البعثة ونزول الوحي، ويقتضي المقام أن نلقي بعض الضوء على هذه المعجزات.

١ - (القرآن الكريم):

القرآن معجزة باقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وقد تولى الله حفظه فلا يمكن بحال أن يناله التغيير أو التبديل، قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾^(١)، وجميع المعارف الإلهية. والحقائق الموجودة في القرآن تستند إلى حقيقة واحدة هي التوحيد، ولقد وصف الله تعالى القرآن بالحكيم. لأنه كتاب لا يوجد فيه نقطة ضعف أو لهو حديث. ولا إنحراف فيه في جميع الأحوال. ولا يوجد في القرآن أي اختلاف. وفي هذا دليل على أنه منزل من الله تعالى، لأنه لا تخلو أقوال الناس في المراحل المختلفة من الاختلاف والانحراف ولهو الحديث ونقاط الضعف، وعجز الناس على الإتيان بمثل القرآن. دليل على إعجاز القرآن، وعجز المشركين عن معارضة القرآن دليل على التوحيد، وخضوع الأعناق للقرآن. يعني أن إسناد القرآن الى الله تعالى يحتاج الى دليل سوى القرآن نفسه.

وفي عهد البعثة كان القرآن الملجأ الوحيد للنبي ﷺ عندما كان

(١) سورة الحجر آية ٩.

يقيم حجته على الناس، ولقد بين النبي الخاتم للناس ما أنزل اليهم من ربهم على إمتداد البعثة، وألزم القرآن الناس بأن يكون النبي ﷺ لهم أسوة حسنة. وجعل إتباع الرسول ﷺ شرط في حب الله، ولقد بين القرآن والسنة للمسيرة منذ يومها الأول. أنه يجب أن ينتهي كل رأي ديني الى القرآن الكريم حتى لا يتمكن الأجانب أن ينشروا الأباطيل بين المسلمين، وبين القرآن والسنة للمسيرة أن كتاب الله لا يقبل النسخ والإبطال والتهذيب والتغيير، وأن أي تعطيل سيفتح الطريق أمام سنن الأولين.

٢ - (الإخبار بالغيب عن الله):

من لطف الله تعالى بعباده. أنه تعالى أخبر على لسان الأنبياء والرسل بالغيب، فأخبر بما ينتظر الإنسان في اليوم الآخر حيث أهوال القيامة ولهيب النار ونعيم الجنة، وأخبر ببرنامج الشيطان وإلقاءاته على إمتداد الدنيا، وأخبر بمضلات الفتن مقدماتها ونتائجها، وأخبر بالأمور العظيمة التي ما زالت في بطن الغيب، والإخبار بالغيب حجة بذاته، وبه يمتحن الله تعالى عباده، قال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾^(١) وقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولَهُ بِالْغَيْبِ﴾^(٢).

وأي حدث منذ ذراً ذرية آدم لا بد أن تكون له مقدمة يترتب عليها نتيجة، والناس عند صنعهم لمقدمة الحدث كبيراً كان أو صغيراً. يعلمون جانب الحلال فيه وجانب الحرام. بما أودعه الله في الفطرة. ولأن الله تعالى وهو العليم المطلق سبحانه. يعلم مصير هذه المقدمة وما يترتب عليها من نتائج ما زالت في بطن الغيب، يخبر سبحانه على

(١) سورة المائدة آية ٩٤.

(٢) سورة الحديد آية ٢٥.

لسان الأنبياء والرسل بما يستقبل الناس من نتائج، لكي يأخذ الناس بأسباب الهدى ويتجنبوا أسباب الضلال، فإذا ظهرت الأحداث بعد أن كانت غيباً يسقط في جانب باطلها كل إنسان لم يأخذ بأسباب الهدى. وكل إنسان لم يتدبر في حركة الأحداث من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، باختصار: من أخذ بأسباب الدجال سقط في سلته ثم سقط في نار جهنم يوم القيامة، ومن أخذ بأسباب الهدى شرب من حوض النبي ﷺ يوم القيامة.

● إن الله تعالى يمتحن الناس بأخذهم الأسباب، والناس تحت مظلة الإمتحان والابتلاء يتمتعون بحرية الأخذ بالأسباب، وكل مسيرة على إمتداد الزمان يتخللها ماضي وحاضر ومستقبل، والماضي يحمل دائماً في أحشائه الزاد. ومهمة الحاضر أن ينضب في هذا الزاد ليؤخذ منه أسباب الهدى وينطلق بها إلى المستقبل، فمن أدركه الموت وهو على سبب الهدى، بعثه الله على نفس السبب، وكل إنسان مهاجر إلى ما هاجر إليه، وأحاديث إخبار الرسول بالغيب تحت أضوائها تظهر المسيرة، ويظهر ما في بطونها من زاد الماضي، وإذا وقف الحاضر أمام هذا الزاد ثم رجع القهقري بتحليل الحوادث التاريخية، يصل الى المقدمة في الماضي البعيد، فإذا أمعن النظر فيها وجد أنها تحتوي على أصول القضايا وأعراقها التي يراها في حاضره. فكما تكون المقدمة تكون النتيجة والدعوة الإلهية الخاتمة أمرت بإتقاء الفتن وهذا لا يأتي إلا بالبحث في أصول القضايا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَحْشَرُونَ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(١)، والنبي ﷺ بين أن الحاضر إذا رضي بإنحراف في الماضي. شارك

(١) سورة الأنفال آية ٢٤.

بالمشاهدة وإن لم يحضر، قال ﷺ «إذا عملت الخطيئة في الأرض. كان من شهدها فكرها كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»^(١).

● والنبي ﷺ بين لأمته المقدمات والنتائج حتى قيام الساعة، حتى يكونوا على بينة من أمرهم ويأخذوا بأسباب الأهداف التي لله فيها رضا، فعن أبي زيد قال «صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا»^(٢)، وعن أنس قال «قال رسول الله ﷺ: من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا»^(٣)، وعن حذيفة قال «والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، كان رسول الله ﷺ يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن، فقال ﷺ وهو يعد الفتن: منهن ثلاث لا يكدن يذرن شيئاً، ومنهن فتن كريح الصيف منها صغار ومنها كبار، قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط كلهم غيري»^(٤)، وعن حذيفة أنه قال «ما من ثلاثمائة تخرج إلا ولو شئت سميت سائقها وناعقها إلى يوم القيامة»^(٥)، وقال حذيفة «والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا. يبلغ معه ثلاثمائة فصاعداً، إلا قد سماه بإسمه وإسم

(١) رواه أبو داود رقم ٤٣٤٥.

(٢) رواه مسلم (الصحيح ١٨/١٦) وأحمد (الفتح الرباني ٢١/٢٧٢).

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم (كنز العمال ١١/٤٢١).

(٤) مسلم (الصحيح ١٨/١٥).

(٥) رواه نعيم وسنده صحيح (كنز العمال ١١/٢٧١).

أبيه وإسم قبيلته»^(١).

● لقد أقام النبي ﷺ الحجة عند المقدمة وهو يخبر بالغيب عن ربه، وعندما إنطلقت المسيرة بعد وفاة النبي ﷺ تحت سقف الإمتحان والابتلاء، تخلو المسيرة من الفتن، بدليل أن حذيفة الذي يعرف الفتن وقادتها قال بعد وفاة النبي ﷺ بأقل من ثلاثين عاماً: إنما كان النفاق على عهد النبي ﷺ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان^(٢)، وقال «إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي ﷺ»، كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون»^(٣) وقال «إن كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات»^(٤).

● والطريق من توضيح النبي للفتن وهي في بطن الغيب الى ظهور الفتن في عالم المشاهدة، طريق يخضع للبحث. بهدف إتقاء الفتن المهلكة وحصار وقودها في دائرة الذين ظلموا خاصة، وعدم البحث في هذا الطريق. يفتح أبواباً عديدة، منها مشاركة الذين ظلموا إذا رضى عن فعلهم، لأن الراضي بفعل قوم كالداخل فيهم، وفي الحديث يقول النبي ﷺ «المرء مع من أحب»^(٥)، وكما أن عدم البحث يلقي بالحاضر على الماضي، فكذلك يلقي به على ما يستقبله من فتن مهلكة، عن حذيفة أنه قال «تعرض الفتن على القلوب، فأى قلب أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء، وأى قلب لم ينكرها نكتت في قلبه نكتة سوداء، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا. لا تضره فتنة ما

(١) رواه أبو داود حديث رقم ٤٢٢٢.

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٤/٢٣٠).

(٣) رواه البخاري (الصحيح ٤/٢٣٠).

(٤) رواه أحمد وأسناده جيد (الفتح الرباني ١٧٣/١٩).

(٥) رواه البخاري (الصحيح ٤/٧٧).

دامت السماوات والأرض، والآخر أسوداً مربداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. إلا ما أشرب في هواه»^(١). وما زالت في بطن الغيب أحداث وأحداث، لا ينجو منها العالم إلا بعلمه، وفي بطن الغيب أحداث إذا جاءت لا ينفع نفساً إيمانها يومئذ، لأنها لم تبحث على إمتداد الطريق، فأنتج ذلك عدم معرفة الحق على إمتداد الطريق، ولما كان الحق عند هذه النفس يخضع لتحديد الأهواء، تسقط النفس في سلة الدجال التي تحتوي على جميع الأهواء، وما يستقبل الناس من آيات كبرى جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً. قُلْ إِنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾^(٢). فالآية الكريمة بينت أن هناك آيات لا ينفع عند ظهورها إيمان، ومن لم يكن مصلحاً يومئذ وأعلن توبته لم تقبل منه توبته، كما أن الله لا يقبل عملاً صالحاً من صاحبه إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك، ومن هذه الآيات: الدخان. والدابة. وخروج يأجوج ومأجوج. ونزول عيسى بن مريم. وخروج الدجال. وطلوع الشمس من مغربها^(٣).

وبالجملة. أخبر النبي ﷺ بالغيب عن ربه جل وعلا، ليأخذ الناس بأسباب الهداية نحو ما يستقبلهم من أحداث ما زالت في بطن الغيب، والأخذ بالأسباب من الوسائل التي يمتحن الله تعالى بها عباده، وإخبار الرسول بالغيب هو في حقيقته دعوة للإيمان بالله، لأنه يأمر بالإستقامة، ويبين أن عدم الإستقامة يؤدي الى كفران النعمة. ويفتح الطريق أمام الفتن، وكفران النعمة عقوبته سلب نعمة الهداية وعليها يأتي الهلاك، وطريق الفتن يلقي بأتباعه تحت أعلام الدجال، قال النبي ﷺ «ما صنعت

(١) رواه الامام أحمد والحاكم وصححه (كنز العمال ١١٩/١١).

(٢) سورة الأنعام آية ١٥٨.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٢/١٩٥.

فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة أو كبيرة إلا لفتنة الدجال»^(١).

٣ - (التحذيرات الذهبية)

● أولاً - التحذير من الاختلاف :

أمر الله تعالى في كتابه الكريم بعدم الاختلاف في الدين في أكثر من آية، منه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾^(٢)، وقال رسول الله ﷺ «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»^(٣) وقال جل شأنه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٤) وقال النبي ﷺ «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»^(٥).

وحذر تعالى من عاقبة الاختلاف في الدين في أكثر من آية من كتابه الكريم. منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ. إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٦)، قال المفسرون: أي أن الذين فرقوا دينهم بالاختلافات والإنشعابات المذهبية بعد أن جاءهم العلم، ليسوا على طريقتك التي بنيت على وحدة الكلمة ونفي الفرقة، إنما أمرهم في هذا التفريق الى ربهم فينبئهم يوم القيامة بما كانوا يفعلون. ويكشف لهم حقيقة أعمالهم، والآية عامة. تعم

(١) رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح (الزوائد ٣٣٥/٧).

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٥.

(٣) رواه البخاري (كتر العمال ١٧٧/١).

(٤) سورة آل عمران آية ١٠٣.

(٥) رواه الامام أحمد والترمذي وقال حديث حسن. والطبراني. وقال المناوي

رجاله موثقون (الفتح الرباني ١٨٦/١).

(٦) سورة الأنعام آية ١٥٩.

اليهود والنصارى والمختلفين بالمذاهب والبدع من هذه الأمة.

● وفي الوقت الذي أمرت فيه الدعوة الإلهية الخاتمة بعدم الاختلاف، أخبر النبي ﷺ بالغيب عن ربه العليم المطلق سبحانه، بأن الأمة ستختلف من بعده وسيتبع بعضها سنن اليهود والنصارى، قال ﷺ «إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة، فهلك إحدى وسبعون فرقة وخلصت فرقة واحدة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة تهلك إحدى وسبعون وتخلص فرقة، قيل: يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال: الجماعة الجماعة»^(١)، أما إتباع سنن الأولين ففي قوله تعالى: ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم، كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما إستمع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا، أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾^(٢)، روى ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية «حذركم الله أن تحدثوا في الإسلام حدثاً وقد علم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة، فقال تعالى: ﴿فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم... الآية﴾. وإنما حسبوا أن لا يقع بهم من الفتنة ما وقع ببني إسرائيل قبلهم، وإن الفتنة عائدة كما بدأت»^(٣)، وروى ابن كثير عن ابن عباس قال: ما أشبه الليلة بالبارحة، «كالذين من قبلكم» هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم، والذي نفسي بيده ليتبعنهم حتى لو دخل الرجل جحر ضب لدخلتموه»^(٤)، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً

(١) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٤/٦) والترمذي وصححه (الجامع ٤/٢٥).

(٢) سورة التوبة آية ٦٩.

(٣) تفسير ابن جرير ١٠/١٢٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٨.

بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لإتبعتموهم، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟^(١) وقال المفسرون: إن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض، وإنهم جميعاً والكفار ذو طبيعة واحدة في الإعراض عن ذكر الله والإقبال على الإستمتاع. بما أوتوا من أعراض الدنيا من أموال وأولاد، والخوض في آيات الله. ثم في حبط أعمالهم في الدنيا والآخرة والخسران. ومعنى الآيات: أنتم كالذين من قبلكم كانت لهم قوة وأموال وأولاد، بل أشد وأكثر في ذلك منكم، فإستمعوا بنصيبهم، وقد تفرع على هذه المماثلة أنكم إستمتعتم كما إستمتعوا وخضتم كما خاضوا. أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون، وأنتم أيضاً أمثالهم في الحبط والخسران.

● لقد حذرت الدعوة الإلهية عند المقدمة من الاختلاف في الدين، وذكرت أن الاختلاف بعد العلم لا يمكن أن يضع أصحابه على طريقة رسول الله ﷺ، لأنها طريقة بنيت على وحدة الكلمة ونفي الفرقة، وحذرت الدعوة الخاتمة من سلوك سبيل الذين أوتوا الكتاب. وبينت برامجهم وأهدافهم، وأخبرت بأنهم يصدون عن سبيل الله. ويعملون من أجل أن تضل الأمة وتتبع طريقتهم في الحياة، ثم أخبر رسول الله ﷺ بالغيب عن ربه بما يستقبل الناس، ومنه: أن الأمة ستفترق وسيتبع بعضها طريقة اليهود والنصارى، والتحذير عند المقدمة فيه أن الصراع قائم بين الحق وبين الباطل، وظهور الذين إتبعوا اليهود والنصارى عند نهاية الطريق، لا يعني سقوط المسيرة، وإنما يعني سقوط الغطاء والزبد الذي لا قيمة له، وأعلام هؤلاء يحملها المنافقين والمنافقات كما ظهر في صدر الآية الكريمة.

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم (الفتح الرباني ١/١٩٧).

ثانياً - التحذير من أمراء السوء:

حذرت الدعوة الخاتمة من الميل إلى الذين ظلموا، لأن على أعتابهم يأتي ضعف العقيدة وفقدان القدوة، وبينت أن قيام الذين ظلموا بتوجيه الحياة العقلية والدينية للأمة. ينتج عنه شيوع المشكلات الزائفة التي تشغل الرأي العام، وتجعله داخل دائرة الصفر حيث الجمود والتخلف، وعلى أرضية الجمود تفتح الأبواب لسنن الأولين، ومعها يختل منهج البحث ومنهج التفكير ومنهج الاستدلال، وبهذا يتم التعقيم على نور الفطرة وتغيب الحقيقة تحت أعلام الترفيع والتلجيم التي تلبست بالدين، قال تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾^(١) قال المفسرون: نهى الله تعالى النبي ﷺ وأمته عن الركون إلى من إتسم بسمة الظلم. بأن يميلوا إليهم ويعتمدون على ظلمهم في أمر دينهم أو حياتهم الدينية، لأن الإقتراب في أمر الدين أو الحياة الدينية من الذين ظلموا، يخرج الدين أو الحياة الدينية عن الاستقلال في التأثير، ويغيرهما عن الوجهة الخالصة، ولازم ذلك السلوك إلى الحق من طريق الباطل، أو إحياء حق بإحياء باطل، أو إماتة الحق لإحيائه.

والنبي ﷺ أخبر بالغيب عن ربه. أن الأمة ستركن إلى هؤلاء، وأمر بأن تأخذ الأمة بالأسباب لأن الله تعالى ينظر إلى عباده كيف يعملون، فعن ثوبان قال. قال رسول الله ﷺ «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»^(٢)، وعن أبي هريرة قال. قال رسول الله ﷺ «يهلك أمتي هذا الحي من قريش» قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال «لو أن

(١) سورة هود آية ١١٣.

(٢) رواه أحمد ومسلم والترمذي (الفتح الرباني ٢٧/٣١).

الناس إعتزلوهم»^(١)، وعن خباب بن الأرت قال: إنا لقلعود على باب رسول الله ﷺ ننتظره أن يخرج لصلاة الظهر، إذ خرج علينا فقال: إسمعوا. فقلنا: سمعنا، ثم قال: إسمعوا، فقلنا: سمعنا، فقال: إنه سيكون عليكم أمراء فلا تعينوهم على ظلمهم، فمن صدقهم بكذبهم فلن يرد علي الحوض^(٢)، وعن حذيفة قال. قال رسول الله ﷺ: سيكون عليكم أمراء يظلمون ويكذبون. فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم. فليس مني ولست منه ولا يرد علي الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعينهم فهو مني وأنا منه وسيرد علي الحوض^(٣)، ومن هذه الأحاديث يستنتج أن الأمراء ضد أهل البيت، بدليل أنهم لن يردوا على الحوض، وفي الحديث أن أهل البيت مع القرآن ولن ينفصلا حتى يردا على الحوض، ويستنتج أيضاً أن أهل البيت لن يكونوا في صدر القافلة وأن هناك أحداث ستؤدي إلى إبعادهم عن مركز الصدارة، بدليل وجود الأئمة المضلين وأمراء الظلم، فلو كان أهل البيت في الصدارة، ما إتخذوا هؤلاء بطانة لهم، لأن أهل البيت مع القرآن والقرآن نهى عن ذلك.

وبالجملة: أخبر النبي ﷺ بوجود تيار في بطن الغيب سيعمل ضد سياسة أهل البيت، وإن هذا التيار لن يرد على الحوض، لقوله ﷺ «لا يبغيضنا أحد ولا يحسدنا أحد إلا زيد يوم القيامة عن الحوض»^(٤)، وقوله لعلي بن أبي طالب «يا علي معك يوم القيامة عصا من عصي الجنة

(١) رواه البخاري (الصحيح ٢/٢٨٠) ومسلم (الصحيح ١٨/٤١) وأحمد (الفتح الرباني ٢٣/٣٩).

(٢) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٣/٣٠) وابن حبان في صحيحه وابن أبي عاصم وقال الألباني رجاله ثقات (كتاب السنة ٢/٣٥٢).

(٣) رواه أحمد والبزار وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ٥/٢٤٨) وابن أبي عاصم وقال الألباني رجاله ثقات (كتاب السنة ٢/٣٥٣).

(٤) رواه الطبراني (كتر العمال ١٢/١٠٤).

تذود بها المنافقين عن حوضي»^(١)، وأمر النبي ﷺ بمواجهة هذا التيار بإعتزالهم وعدم إعانتهم وعدم تصديقهم، وروى عن ابن مسعود. قال. قال ﷺ «إن رحى الإسلام دائرة، وإن الكتاب والسلطان سيفترقان، فدوروا مع الكتاب حيث دار، وستكون عليكم أئمة إن أطعتموهم أضلوكم وإن عصيتموهم قتلوكم، قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: كونوا كأصحاب عيسى. نصبوا على الخشب ونشروا بالمناشير، موت في طاعة. خير من حياة في معصية»^(٢) وروى عن معاذ قال: قلت يا رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء لا يستنون بسنتك. ولا يأخذون بأمرك. فما تأمرني في أمرهم؟ فقال: لا طاعة لمن لم يطع الله عز وجل»^(٣).

وروى عن ابن مسعود قال. قال رسول الله ﷺ «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل. كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا إتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد. فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم تلى قوله تعالى: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسْقُون﴾ ثم قال رسول الله ﷺ «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً (أي لتردنه الى الحق)، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم»^(٤)، وقال ﷺ «مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها.

-
- (١) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (٩/١٣٥).
(٢) رواه الطبراني عن ابن مسعود (كنز العمال ١/٢١٦) ورواه عن معاذ (كنز العمال ١/٢١١).
(٣) رواه عبد الله بن أحمد واسناده جيد (الفتح الرباني ٢٣/٤٤).
(٤) رواه أبو داود حديث ٤٣٣٧، وقال الهيثمي رواه الطبراني ورجاله رجال

كمثل قوم إستهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها. وأصاب بعضهم أسفلها. فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها فإننا ننقبها من أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً»^(١)

كانت هذه بعض تعاليم النبوة لمواجهة الظلم والجور في وقت ما على إمتداد المسيرة، أما بعد إستفحال الظلم والجور. نتيجة للثقافات التي سهر عليها المنافقون وأهل الكتاب لإيجاد غطاء مهمته النباح تأييداً للجلادين، والتصفيق للزبانية ومصاصي الدماء، يقول النبي ﷺ «ما ترون إذا أخرجتم إلى زمان. حثالة من الناس. قد مرجت عهودهم ونذورهم فإشتبكوا. وكانوا هكذا، (وشبك بين أصابعه) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: تأخذون ما تعرفون وتدعون ما تنكرون. ويقبل أحدكم على خاصة نفسه. ويذر أمر العامة»^(٢)، وفي رواية: إتنق الله عز وجل، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر، وعليك بخاصتك، وإياك وعوامهم»^(٣).

وبالجملة: بين النبي ﷺ أن صنفاً من الناس سيحرص على الإمارة من بعده، قال ﷺ «إنكم ستحرصون على الإمارة. وستصير حسرة وندامة يوم القيامة. نعمت المرضعة وبئست الفاطمة»^(٤) نعم المرضعة:

الصحيح (الزوائد ٧/٢٦٩).

(١) رواه أحمد والبخاري (الفتح الرباني ١٧٧/١٩) والترمذي وصححه (الجامع ٤٧٠/٤).

(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٧/٢٧٩).

(٣) رواه أحمد واسناده صحيح (الفتح الرباني ١٢/٢٣).

(٤) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٢/٢٣) والبخاري (الصحيح ٢٣٥/٤).

لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاد الكلمة وتحصيل اللذات الحسية. وبثست الفاطمة: أي بعد الموت لأن صاحبها يصير الى المحاسبة. قال ﷺ «ليتمن أقوام ولوا هذا الأمر. أنهم خروا من الثريا وأنهم لم يولوا شيئاً»^(١)، وليس معنى هذا أن الإسلام لا يعترف بالقيادة والإمارة. فالإسلام يقوم على النظام وفيه لكل شيء ذروة، والحديث يحذر غير أصحاب الحق من أن ينازعوا الأمر أهله، لأنه في المنازعة ضياع للأمانة. قال رسول الله ﷺ «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة»^(٢) قالوا: كيف أضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر الى غير أهله. فانتظروا الساعة»^(٣). ويفسر هذا ما روي عن داود بن أبي صالح. قال: أقبل مروان بن الحكم يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على قبر النبي ﷺ، فقال: أتدري ما تصنع؟ وأقبل عليه وإذا هو أبو أيوب الأنصاري. فقال: نعم جئت رسول الله ﷺ ولم آت الحجر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله. ولكن إبكوا عليه إذا وليه غير أهله»^(٣).

وبين النبي ﷺ للأمة أسباب الهدى على إمتداد المسيرة. تحت مظلة الإمتحان والابتلاء، بين الأسباب في عصر به الصحابة، وبينها في عصر به التابعين، وبينها في عصور جاءت بعد ذلك. والله تعالى ينظر الى عباده كيف يعملون.

ثالثاً - التحذير من زهاب العلم:

إن كل موجود يحظى بالعلم بقدر ما يحظى بالوجود. والله تعالى

(١) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٣/٢٣).

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٤/١٢٨).

(٣) رواه أحمد ورجاله ثقات (الفتح الرباني ٢٣/١٣٢) (الزوائد ٥/٢٤٥) والحاكم وصححه وأقره الذهبي (المستدرک ٤/٥١٥).

يرفع الذين آمنوا على غيرهم في العلم، ويرفع الذين أوتوا العلم منهم درجات، بمعنى أن العلم له مكان في دائرة الذين آمنوا، وهذه الدائرة مراتب ولها ذروة، قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾^(١)، وذروة الذين أوتوا العلم. مع الذين إرتبطوا بكتاب الله ولا ينفصلوا حتى يردوا على الحوض، ومن دائرة الذروة تخرج المعارف الحقة والعلوم المفيدة، لأن الذين في الذروة هم العامل الذي يحفظ الأخلاق ويحرسها في ثباتها ودوامها، ولأن من عندهم تتدفق العلوم التي تصلح أخلاق الناس، ليكونوا أهلاً لتلقي المزيد من المعارف الحقة. التي لا تكون في متناول البشر إلا عندما تصلح أخلاقه.

● وكما أن النبي ﷺ أمر أمته بأن يمسكوا بحبل الله ليردوا على الحوض، أخبر كذلك بالغيب عن ربه بأن العلم سيرفع، ورفع هو نتيجة لذهاب أوعيته، عن أبي الدرداء قال: كنا مع النبي ﷺ. فشخص ببصره الى السماء ثم قال: هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء، فقال زياد بن لبيد: كيف يختلس منا. وقد قرأنا القرآن. فوالله لنقرأه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا، قال: ثكلتك أمك يا زياد إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى. فماذا تغني عنهم^(٢)، وفي رواية عن شداد بن أوس قال «وهل تدري ما رفع العلم؟ ذهاب أوعيته»^(٣) وفي رواية عن أبي إمامة قال «وهذه اليهود والنصارى بين أظهرهم المصاحف، لم يصبحوا

(١) سورة المجادلة آية ١١.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث صحيح (تحفة الأحوازي ٧/٤١٢).

(٣) رواه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه (الفتح الرباني ١/١٨٣).

يتعلقوا بحرف واحد مما جاءتهم به أنبياءهم، وإن من ذهاب العلم أن يذهب حملته، وإن من ذهاب العلم أن يذهب حملته، وإن من ذهاب العلم أن يذهب حملته»^(١)، وقال في تحفة الأحوازي: ومعنى هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى. أي أن القراءة دون علم وتدبر محل نظر. وقال القارىء: أي فكما لم تفدهم قراءتهما مع عدم العمل بما فيهما فكذلك أنتم^(٢).

● وعلى إمتداد المسيرة ظهر ما كان في بطن الغيب، ظهر الذين يقرؤون القرآن لا يعدوا تراقيهم. يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، وظهر الذين قرؤا ثم نقروا ثم إختلفوا ثم ضرب بعضهم رقاب بعض، وظهر الذين قرؤا ثم عتزلوا ثم خرجوا على جيرانهم بالسيوف ورموهم بالشرك. بينما كانوا هم إلى الشرك أقرب، وظهر الذين لا يقرؤون القرآن إلا في حفلات النفاق التي يشرف عليها اليهود والنصارى في كل مكان، وعلى أكتاف هؤلاء وهؤلاء. إنطلق البعض في طريق التقدم الى الخلف. وإرتبط مصيرهم بمصير الذين سبقوهم، قال النبي ﷺ «إن بني إسرائيل إنما هلكت حين كثرت قراؤهم»^(٣) وأخبر النبي ﷺ بأن الذين يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء، كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصاً سلابين، وقال «لا يزالوا يخرجون، حتى يخرج آخرهم مع الدجال»^(٤)، وفي رواية «كلما قطع قرن نشأ قرن، حتى يكون مع بيضتهم الدجال»^(٥).

(١) رواه أحمد والطبراني بسند صحيح (الزوائد ١/٢٠٠).

(٢) تحفة الأحوازي ٧/٤١٣.

(٣) رواه الطبراني (كتر العمال ١٠/٢٦٨) (الزوائد ١/١٨٩).

(٤) رواه أحمد ورجاله ثقات (الزوائد ٦/٢٩٩).

(٥) رواه الطبراني. واسناده، حسن (الزوائد ٦/٢٣٠).

● وبالجمللة: أقام النبي ﷺ الحجة في أول الطريق وإنطلقت الحجة مع المسيرة حتى نهاية الطريق، وأمر النبي ﷺ أمته أن تأخذ بحبل الله حتى لا يضلوا، وقال: ما من نبي بعثه الله عز وجل في أمة قبلي إلا له من أمته حواريون وأصحاب. يأخذون بسنته ويقتدون بأمره. ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف. يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن. ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن. ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل^(١)، وقال في الفتح الرباني: الحواريون هم خلصان الأنبياء وأصفائهم. والخلصان هم الذين نقوا من كل عيب. وقيل: الخلصان هم الذين يصلحون للخلافة بعد الأنبياء^(٢).

لقد دافع الإسلام عن العلم، ولم يقاتل يوماً من أجل الكرسي، وأمر الإسلام بالجهاد للإبقاء على الذروة التي تفيض بالعلم الإلهي ذروة كل العلوم وأشرف العلوم، لأن هؤلاء وحدهم هم الذين يحملون النور المحمدي، ذلك النور الذي يعتبر برزخاً بين الناس وبين النور الإلهي. الذي تندك له الجبال.

رابعاً - العترة بين التحذير والإبقتلاء:

إن الله تعالى يمتحن الناس بالناس. قال تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾^(٣) فدائرة الهدى على إمتداد المسيرة البشرية، فتنة لسائر الناس يمتحنون بهم، فيميز بهم أهل الريب من أهل الإيمان، والمتبعون للأهواء من طلاب الحق الصابرين في طاعة

(١) رواه مسلم وأحمد (الفتح الرباني ١/١٩٠) وابن عساكر (كتر العمال ٦/٧٣).

(٢) الفتح الرباني ١/١٩٠.

(٣) سورة الفرقان آية ٢٠.

الله وسلوك سبيله، وكما أن النبي ﷺ أمر أمته بأن يتمسكوا بحبل العترة حتى لا يضلوا، وقال «أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي»^(١) وقال «إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا. كتاب الله وعترتي أهل بيتي»^(٢)، فإنه أخبر أمته بأنهم سيمتحنون بأهل بيته. قال «إنكم ستبتلون في أهل بيتي من بعدي»^(٣)، وأخبر بالغيب عن ربه بما سيسفر عنه الإمتحان، فقال «إن أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلاً وتشريداً»^(٤).

وأخبر النبي ﷺ علي بن أبي طالب. بما سيجري له من بعده، وقال له «إن الأمة ستغدر بك بعدي، وأنت تعيش على ملتي، وتقتل على سنتي، من أحبك أحبني، ومن أبغضك أبغضني، وإن هذه (يعني لحيته) ستخضب من هذا (يعني رأسه)»^(٥)، وروى أن النبي ﷺ قال له: ألا أحدثك بأشقى الناس، رجلين، أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه (يعني رأسه) حتى تبتل منه هذه (يعني لحيته)»^(٦).

وأخبر النبي ﷺ الحسين بن علي بما سيجري له من بعده، وروى ابن كثير عن عمرة بنت عبد الرحمن أنها قالت: أشهد لقد سمعت عائشة تقول: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: يقتل الحسين بأرض

(١) رواه مسلم (الصحيح ٧/١٢٣).

(٢) رواه الترمذي وحسنه (الجامع ٥/٦٦٢) والنسائي (كنز العمال ١/١٧٢).

(٣) رواه الطبراني (كنز العمال ١١/١٢٤).

(٤) رواه الحاكم ونعيم بن حماد (كنز العمال ١١/١٦٩).

(٥) رواه أحمد والحاكم وصححه (المستدرک ٣/١٤٢) والدارقطني والخطيب (كنز العمال ١١/٦١٧) والبيهقي (البداية ٦/٢١٨).

(٦) قال الهيثمي رواه أحمد والبخاري ورجاله ثقات (الزوائد ٩/١٣٦) والحاكم والبيهقي بسند صحيح (المستدرک ٣/١٤١، البداية والنهاية ٦/٢١٨، كنز العمال ١٣/١٣٦).

بابل^(١) وروى الحاكم عن ابن عباس قال: ما كنا نشك وأهل البيت متوافرون أن الحسين يقتل بالطف^(٢) وروى أن النبي ﷺ قال: إن إبنی هذا يقتل بأرض من أرض العراق يقال لها كربلاء. فمن شهد ذلك فلينصره^(٣)، وقال النبي ﷺ: أخبرني جبريل أن إبنی الحسين يقتل بعدي بأرض الطف، وجاءني بهذه التربة وأخبرني أن فيها مضجعه^(٤).

● والخلاصة: إن الله يختبر الناس بالناس، وعلى هذا الاختبار يظهر أهل الريب من أهل الايمان، قال تعالى: ﴿وجعلنا بعضهم لبعض فتنة﴾^(٥)، وقال سبحانه ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا. أليس الله أعلم بالشاكرين﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض. ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليلوكم في ما آتاكم﴾^(٧)، والدعوة الخاتمة بينت الدرجات. وأمر تعالى بمودة قري النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾^(٨) وبينت الدعوة أن الذين لا يصلون ما أمر الله به أن يوصل، والذين لم يأخذوا بما أمرهم تعالى به من طاعة وبما نهاهم به من نهي، فهؤلاء خاسرون في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿الذين

(١) البداية والنهاية ١٧٧/٨.

(٢) رواه الحاكم وقال السيوطي سنده صحيح (الخصائص/ السيوطي ٢١٣/٢).

(٣) رواه البغوي وابن السكن والبارودي وابن منده وابن عساكر وأبو نعيم (البداية والنهاية ١٩٩/٨) (كنز العمال ١٢٦/١٢) (الخصائص الكبرى ٢١٣/٢) (أسد الغابة ٣٤٩/١) (الاصابة ٦٨/١).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط باختصار (الزوائد ١٨٨/٩) والماوردي في أعلام النبوة بسند صحيح ص ٨٣.

(٥) سورة الفرقان آية ٢٠.

(٦) سورة الأنعام آية ٥٣.

(٧) سورة الأنعام آية ١٦٥.

(٨) سورة الشورى آية ٢٣.

ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون»^(١)، وقال جل شأنه ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾^(٢).

وبينت الدعوة الإلهية الخاتمة. أن عدم مودة الذين أمر الله بمودتهم، يفتح الطريق أمام مودة أعداء الفطرة وقد أمروا بعدم مودتهم، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾^(٣). فالآية تنهي عن مودة المشركين والكفار وتنهي أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء. وتفتح الطريق أمام عبادة الأهواء والأوثان. قال تعالى حاكياً عن إبراهيم قوله لقومه ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾^(٤) قال المفسرون: وبخهم على سوء صنيعهم في عبادة الأوثان. وقال: إنما اتخذتم هذه ليجمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة والفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضاً وشنأناً، وتتجاهدون ما كان بينكم، ويلعن الاتباع المتبوعين، والمتبوعين الاتباع.

● فالطريق يبدأ بأمر الله ونهيه، وعلى إمتداد الطريق يمتحن الله الناس ببعض الناس، فمن سلك فيما أمر الله به نجا، ومن لم يؤخذ بوصايا الله ضل، والله تعالى أمر بصلة الأرحام، وذروة الأرحام عترة

(١) سورة البقرة آية ٢٧.

(٢) سورة محمد آية ٢٣.

(٣) سورة الممتحنة آية ١.

(٤) سورة العنكبوت آية ٢٥.

النبي الخاتم ﷺ، قال ﷺ «إن الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صلبه. وأن الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب»^(١)، وقال «أن لكل بني أب عصة يتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم»^(٢)، وقال «نحن خير من أبنائنا، وبنونا خير من أبنائهم، وأبناء بنينا خير من أبناء أبنائهم»^(٣)، وهكذا فكما أن للعلم درجات، فللأرحام درجات، وميزان هذه الدرجات هو التقوى والعلم بالله، فمن إلتف حول الذين أمر الله بمودتهم شرب من الماء، ومن أبي فتحت عليه مودة أخرى يتهوكون فيها تهوك اليهود في الظلم، ويوم القيامة يعرض على يديه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي إِنْتَخِذْتُ مَعَ الرُّسُولِ سَبِيلًا، يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي. وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا، وَقَالَ الرُّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٤).

● وعلى إمتداد المسيرة الإسلامية. قامت طائفة الحق بالدفاع عن الفطرة، ولم يضرها من عاداها أو من خذلها، وفي عهد الإمام علي. خرج عليه أصحاب الأهواء، فقاتلهم الامام على تأويل القرآن، وعنه أنه قال «أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»^(٥)، فالناكثين: أهل الجمل، والقاسطين: أهل الشام، والمارقين: الخوارج، وإنطلقت مسيرة الإمام رضي الله عنه بأعلام الحمية، وروى أن النبي ﷺ قال له «أنت أخي وأبو ولدي، تقاتل في سنتي وتبريء ذمتي، من مات

(١) رواه الطبراني عن جابر، والخطيب عن ابن عباس (كتر ٦٠٠/١١).

(٢) رواه الحاكم وابن عساكر (كتر ٩٨/١٢).

(٣) رواه الطبراني (كتر ١٠٤/١٢).

(٤) سورة الفرقان آية ٢٧.

(٥) رواه ابن عدي والطبراني وقال ابن كثير روي عن طرق عديدة (البداية والنهاية ٧/٣٣٤) (كتر العمال ٢٩٢/١١).

في عبي فهو كنز الله، ومن مات في عهدك فقد قضى نحبه، ومن مات
يحبك بعد موتك ختم الله له بالأمن والإيمان ما طلعت شمس أو
غربت، ومن مات يبغضك مات ميتة جاهلية. وحوسب بما عمل في
الإسلام»^(١)، وقال ﷺ «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات فميتته
جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية. يغضب لعصبته ويقاتل لعصبته
وينصر عصبته، فقتل فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها
وفاجرها لا يتحاشى لمؤمنها ولا يفي الذي عهداها، فليس مني ولست
منه»^(٢).

وتحت هذا الضوء إنطلقت الأمة الخاتمة تحت سقف الإمتحان
والإبتلاء، والله تعالى ينظر الى عباده كيف يعملون. لإستحقاق الثواب
والعقاب يوم القيامة.

(١) رواه أبو يعلى وقال البوصيري رجاله ثقات (كنز العمال ١٥٩/١٣).

(٢) رواه مسلم (كنز العمال ٥٠٩/٣) وأحمد (الفتح الرباني ٥٢/٢٣).

ثانياً - أضواء على المسيرة

● أولاً - أضواء على الساحة بعد وفاة النبي ﷺ

كان الساحة بعد وفاة النبي ﷺ بها جميع الأنماط البشرية، بها المؤمن القوي والمؤمن الضعيف، وبها الذين في قلوبهم مرض أو زيغ، وهؤلاء لا يخلو منهم مجتمع على إمتداد المسيرة البشرية.

وكان الذين في قلوبهم مرض يختزنون في ذاكرتهم ببعض ما أخبر به النبي ﷺ فيما يستقبل الناس، ومنه تفسيره لقوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾^(١) وقوله: ﴿فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾^(٣)، وقول النبي القرشي «يا معشر قريش، لبيعثن الله عليكم رجلاً منكم إمتحن الله قلبه للإيمان، فيضرب رقابكم على الدين» فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، قال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنه خاصف النعل، وقد كان ألقى نعله إلى علي بن أبي طالب يخصفها»^(٤).

(١) سورة الحج آية ٧٨.

(٢) سورة الزخرف آية ٤١.

(٣) سورة ابراهيم آية ٢٨.

(٤) رواه الحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ٢/١٣٨) وابن جرير والضياء بسند

وكان بالساحة أفراداً وقبائل ذمهم أو لعنهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ وهو يخبر بالغيب عن ربه لما يعلم الله ما في قلوبهم، ومنه أمره ﷺ بجهاد مخزوم وعبد شمس^(١) وقوله «إن أشد قومنا لنا بعضاً بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم»^(٢) وفي رواية: بنو أمية وثقيف وبنو حنيفة^(٣) ولعنه للحكم بن أبي العاص^(٤) ولعنه أبو الأعور السلمي^(٥) ولعنه لأحياء: لحيان ورعلا وذكوان وعصية^(٦) وكان بالساحة مجموعة تخريبية من إثني عشر رجلاً، حاولوا قتل النبي ﷺ عند عودته من تبوك. آخر غزواته، وأسر النبي ﷺ بأسمائهم الى حذيفة، وكان حذيفة وعمار بن ياسر معه ﷺ عند محاولة هذه المجموعة إغتياله، وروى أن حذيفة قال: يا رسول الله ألا تبعث إلى كل رجل منهم فتقتله، فقال: أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»، وقال النبي ﷺ لحذيفة «فإن هؤلاء فلاناً وفلاناً (حتى عددهم) منافقون لا تخبرن أحداً»^(٧)، وعدم إفشاء النبي ﷺ بأسمائهم يستتج منه. أن هذه المجموعة لم تكن من رعاي القوم وإنما من أشد الناس فتكاً، وقتلهم يؤدي الى طرح ثقافة يتناقلها

صحيح (كنز ١٧٣/١٣) والترمذي وصححه (الجامع ٦٣٤/٥).

(١) رواه أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه (كنز ٤٨٠/٢).

(٢) رواه نعيم بن حماد والحاكم (كنز ١٦٩/١١).

(٣) رواه نعيم بن حماد وقال ابن كثير رواه البيهقي ورجاله ثقات (كنز العمال ٢٧٤/١١) (البداية ٢٦٨/٦).

(٤) انظر: مجمع الزوائد ١/١١٢، المستدرک ٤/٤٨١، البداية والنهاية ١٠/٥٠، الإصابة ٢/٢٩.

(٥) كنز العمال ٨/٨٢.

(٦) مسلم (الصحيح ٢/١٣٥).

(٧) محاولة الإغتيال رواها الامام أحمد والطبراني وابن سعد وغيرهم (انظر الزوائد ١١/١١٠).

الناس بأن محمداً في آخر أيامه بدأ يقتل أصحابه، ويستنتج منه أيضاً أن الله تعالى شاء أن تنطلق المسيرة تحت مظلة الإمتحان والابتلاء، بعد أن تبينت طريق الحق وطريق الباطل، وإخفاء أسماء المجموعة التخريبية هو في حقيقته دعوة للإلتفاف حول الذين بينهم وأظهرهم رسول الله للناس. وروى الامام مسلم عن حذيفة أنه قال «أشهد الله أن إثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»^(١)، وروى عن عمار بن ياسر أنه قال «قال رسول الله ﷺ: إن في أمتي إثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط»^(٢)، وكان عمار بن ياسر علامة مميزة في المسيرة لأنه كان يحمل قول النبي ﷺ فيه «ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»^(٣).

● فالساحة بعد وفاة النبي ﷺ كان بها جميع التيارات، وكان بها مجموعة حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا، ويبدو من قراءة الأحداث أن الساحة كان بها مجموعة من اصحابه أخذت في إعتبارها أن ولاية علي بن أبي طالب قد تؤدي إلى أحداث إعتقدوا أنها يمكن أن تعصف بالدعوة، فإختاروا حلاً وسطاً وابتعد به علي بن أبي طالب عن مركز الصدارة، وتظل به الدعوة قائمة، ويشهد بذلك قول أبي بكر رضي الله عنه لرافع بن أبي رافع حين عاتبه على توليه الخلافة «إن رسول الله ﷺ قبض والناس حديثو عهد بكفر فخفت أن يرتدوا وأن يختلفوا فدخلت فيها وأنا كاره»^(٤) وفي رواية قال «تخوفت أن تكون فتنة يكون بعدها

(١) رواه مسلم (الصحيح ٧/١٢٥).

(٢) رواه مسلم (الصحيح ٧/١٢٤) وأحمد (الفتح الرباني ٢٣/١٤٠).

(٣) رواه البخاري ك لصلاة ب التعاون في بناء المساجد، ورواه أحمد (الفتح الرباني ٢٢/٣٣١).

(٤) رواه ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي وابن رهيوة (كنز العمال ٥٨٦/٥).

ردة»^(١) ويشهد به أيضاً قول عمر بن الخطاب أثناء خلافته «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة»^(٢)، قال في لسان العرب: يقال كان ذلك الأمر فلتة. أي فجأة إذا لم يكن عن تدبر ولا ترو، والفلتة: الأمر يقع من غير إحكام، وفي حديث عمر. أراد فجأة وكانت كذلك لأنها لم ينتظر بها العوام، وقال ابن الأثير في حديث عمر: والفلتة كل شيء فعل من غير روية، وإنما بودر بها خوف إنتشار الأمر^(٣).

ويشهد به قول عمر لابن عباس: يا ابن عباس ما منع قومكم منكم؟ قال: لا أدري، قال: لكنني أدري يكرهون ولايتكم لهم. يكرهون أن تجتمع فيكم النبوة والخلافة^(٤)، وزاد في رواية: فإختارت قريش لنفسها فأصابته ووفقت^(٥).

● وروى أن عمر الخطاب عندما إختلف بعض الأنصار مع بعض المهاجرين في سقيفة بني ساعدة، على من الذي يتولى الخلافة ومن يتولى الوزارة، أمر عمر بقتل مرشح الأنصار سعد بن عبادة، وذلك حينما إشتد الخلاف وتشابكوا بالأيدي، روى الطبري: قال ناس من أصحاب سعد: إتقوا سعد ألا تطؤوه، فقال عمر: إقتلوه إقتلوه، ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تنذر عضوك^(٦)، وروى البخاري: قال قائل: قتلتم سعد بن عبادة، فقال عمر: قتله الله^(٧)،

-
- (١) رواه أحمد بسند صحيح (الفتح الرباني ٢٣/٦١).
(٢) رواه الإمام أحمد (الفتح الرباني ١/٦٠) والطبري (تاريخ الأمم والملوك ٣/٢٠٠).
(٣) لسان العرب مادة فلت ص ٣٤٥٥.
(٤) تاريخ الأمم والملوك ٥/٣٠.
(٥) المصدر السابق ٥/٣١.
(٦) المصدر السابق ٣/٢١٠.
(٧) البخاري (الصحيح ٢/٢٩١).

وكتبت النجاة لسعد، وروى أنه قال بعد بيعة أبي بكر «لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي»^(١)، ولم يبايع سعد حتى خرج في خلافة عمر بن الخطاب إلى الشام، وقتل في الطريق، وروى أن الجن هم الذين قتلوه!

● ثانياً - [أضواء على حركة الاجتهاد والرأي]

على إمتداد عهد البعثة كان النبي ﷺ يبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم، وكان بالساحة من سمع من رسول الله ﷺ شيئاً ولم يحفظه على وجهه، ويرويه ويعمل به ويقول أنا سمعته من رسول الله، فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه، وكان بالساحة من سمع من رسول الله ﷺ شيئاً يأمر به، ثم نهى عنه وهو لا يعلم. أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه، وكان بالساحة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، لم يكذبوا على الله ولا على رسوله، حفظوا ما سمعوا على وجهه، فلم يزدوا فيه ولم ينقصوا منه، حفظوا الناسخ فعملوا به، وحفظوا المنسوخ فجنبوا عنه، عرفوا الخاص والعام، والمحكم والمتشابه، فوضعوا كل شيء موضعه، وقد كان يكون من رسول الله ﷺ الكلام له وجهين، فكلام خاص وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عنى به الله سبحانه به، ولا ما عنى رسول الله ﷺ، فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله، وليس كل أصحاب رسول الله ﷺ من كان يسأله ويستفهمه، حتى إن كانوا يحبون أن يجيب الأعرابي والطارىء فيسأله عليه الصلاة

(١) تاريخ الأمم ٣/٢١٠.

والسلام حتى يسمعوا، وقال الإمام علي: وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلا سألته عنه وحفظته^(١). ويضاف الى هذه الأصناف، الذين أحترفوا الكذب على رسول الله ﷺ، ولقد كذب على رسول الله ﷺ على عهده، حتى قام خطيباً فقال «من كذب علي معتمداً. فليتبوأ مقعده من النار».

● ونظر لإتساع الهوة في رواية الحديث بعد إبعاد أهل البيت عن مكانهم في الذروة، إختلف الناس في الفتوى، حتى قال الإمام علي «ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام، فيحكم فيها برأيه، ثم ترد القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي إستقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً، وإلهم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد، أفأمرهم الله تعالى بالإختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل سبحانه ديناً تاماً فقصر الرسول عن تبليغه وآدائه، والله تعالى يقول ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾^(٢). وفيه تبيان كل شيء. وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً. وإنه لا إختلاف فيه. ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾^(٣). إن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق. لا تفنى عجائبه. ولا تنقضي غرائبه. ولا تكشف الظلمات إلا به»^(٤).

● ويشهد بعدم معرفة جميع الصحابة بما روي عن رسول الله ﷺ، وإختلافهم في الفتوى، ما رواه البخاري عن أبي هريرة أنه قال «إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم

(١) انظر شرح نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد ص ٣/٥٩١.

(٢) سورة الأنعام آية ٣٨.

(٣) سورة النساء آية ٨٢.

(٤) شرح النهج/ ابن أبي الحديد ١/٢٣٣.

رسول الله ﷺ. يشبع بطناً، ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون»^(١)، وروى البخاري أن عمر بن الخطاب لم يكن يعلم حكم الاستئذان، وذلك عندما استأذنه أبو موسى، وعندما لم يؤذن له رجع، فقال له عمر: ما منعك؟ قال: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال النبي ﷺ: إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع، فقال عمر: والله لتقيمن عليه بينة، فإنطلق أبو موسى الى مجلس من الأنصار، وقال: أمنكم أحد سمعه من رسول الله ﷺ؟ فقال أبي بن كعب: لا يقوم معك إلا أصغر القوم. وفي رواية: لا يشهد إلا أصاغرنا^(٢). قال أبو سعيد الخدري. وكنت أصغر القوم. فقامت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك^(٣)، وفي رواية: قال عمر: خفي عليّ هذا من أمر رسول الله ﷺ. ألهاني الصفق بالأسواق»^(٤).

ويشهد بأنهم لم يكونوا على علم بجميع ما روي عن رسول الله، ما روي في حديث صحيح، عن سالم بن عبد الله عن أبيه «أن أبا بكر وعمر وناس، جلسوا بعد وفاة النبي ﷺ، فذكروا أعظم الكبائر فلم يكن عندهم فيها علم، فأرسلوني الى عبد الله بن عمرو وأسأله، فأخبرني أن أعظم الكبائر شرب الخمر، فآتيتهم فأخبرتهم فأنكروا ذلك. ووثبوا اليه شيعاً حتى أتوه في داره، فأخبرهم بحديث رسول الله...»^(٥).

● ويشهد باختلافهم في الفتوى، أن عمر بن الخطاب لم يكن يعلم حكم دية الأصابع. فكان يقضي بتفاوت ديتها على حسب اختلاف

(١) البخاري (الصحيح ١/٢١٤).

(٢) البخاري ك الإعتصام (الصحيح ٤/٢٦٩).

(٣) البخاري ك الاستئذان (الصحيح ٤/٨٨).

(٤) البخاري ك الإعتصام (٤/٢٦٩).

(٥) قال المنذري: رواه الطبراني بإسناد صحيح والحاكم وصححه وقال صحيح على شرط مسلم (الترغيب والترهيب ٣/١٨٤).

منافعها، حتى وجد كتاباً عند آل عمرو بن حزم، يذكر فيه سنة النبي ﷺ في ذلك^(١)، ولم يعلم عمر حكم الجنين إذا أسقط قبل ولادته، حتى جاء المغيرة بقضاء رسول الله ﷺ في ذلك^(٢)، وإختلفوا في ميراث الجدة^(٣).

وبالجملة: إجتهد الصحابة تحت سقف الإمتحان والابتلاء، وكان الإجتهد قابلاً للخطأ وللصواب، فعن موسى بن إبراهيم قال «إن أبا بكر حين إستخلف، قعد في بيته حزيناً، فدخل عليه عمر بن الخطاب، فأقبل أبو بكر عليه يلومه. وقال: أنت كلفتني هذا الأمر. وشكا اليه الحكم بين الناس، فقال عمر: أو ما علمت أن رسول الله ﷺ. قال «إن الوالي إذا إجتهد فأصاب الحق فله أجران. وإن إجتهد فأخطأ فله أجر واحد». فكانه سهل على أبي بكر^(٤).

● ثالثاً - [المقدمات العمرية والنتائج الأموية]

أولاً - (الأمر برواية الحديث)

أمرت الدعوة الإلهية الخاتمة بتدوين ما بين الناس حفظاً للحقوق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايْتُمْ بَدِينِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، الى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾^(٥)، قال الخطيب البغدادي: أدب الله تعالى عباده. بقيد ما بينهم من معاملات في بداية التعامل حفظاً للدين وإشفاقاً من دخول الريب فيه، فلما أمر الله تعالى بكتابة الدين حفظاً له، كان العلم الذي

(١) أخرجه الشافعي في الأم بسند حسن. والنسائي.

(٢) رواه البخاري لك الديات (الصحيح ٤/١٩٣).

(٣) رواه أحمد (الفتح الرباني ١٥/١٩٨) والترمذي (الجامع ٤/٤١٩).

(٤) رواه البيهقي وابن رهويه وخثيمة (كنز العمال ٥/٦٣٠).

(٥) سورة البقرة آية ٢٨٢.

حفظه أصعب من حفظ الدين. أخرى أن تباح كتابته خوفاً من دخول الريب والشك فيه^(١)، والكتابة أوكد الحجج، ببطلان ما يدعيه أهل الريب والضلال، فالمشركين لما إدعوا بهتاناً إتخاذ الله سبحانه بنات من الملائكة، أمر الله تعالى رسوله أن يقول لهم ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾^(٢).

● والنبي ﷺ أمر بكتابة العلم وقال «قيدوا العلم بالكتاب»^(٣) وعن رافع قال «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: تحدثوا. وليتوبوا من كذب عليّ مقعده من النار، قلت: يا رسول الله إنا لنسمع منك أشياء فنكتبها؟ قال: إكتبوا ولا حرج»^(٤)، وعن أبي هريرة قال: ليس أحد من أصحاب النبي ﷺ أكثر مني حديثاً عن رسول الله إلا ابن عمرو، فإنه كان يكتب ولا اكتب»^(٥).

● وروي أن النبي ﷺ قال «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»^(٦)، وكان يقول «نضر الله أمراً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه الى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه»^(٧)، وقال «تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن سمع منكم»^(٨).

-
- (١) تقييد العلم/ الخطيب البغدادي ص ٣٤.
(٢) سورة الصافات آية ١٥٧.
(٣) رواه الطبراني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد ١/١٥٢) وابن عبد البر (جامع العلم ١١/٨٦).
(٤) رواه الطبراني (الزوائد ١/١٥١) والخطيب وسمويه (كنز العمال ١٠/٢٣٢).
(٥) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٥/٤٠).
(٦) رواه أحمد (الفتح الرباني ١/١٩١) والحاكم (المستدرک ١/١٠٩).
(٧) رواه أحمد (كنز العمال ١٠/٢٢٠) والترمذي وابن حبان في صحيحه (كنز ١٠/٢٢١).
(٨) رواه أحمد وأبو داود والحاكم (كنز ١٠/٢٢٣).

● ولقد وقف البعض من قريش في طريق الرواية والكتابة، ومن المحفوظ أن الله تعالى لعن على لسان رسوله ﷺ بعض الأفراد والقبائل، وأن الرسول ذكر أسماء رؤوس الفتن وهو يخبر بالغيب عن ربه، حتى أن حذيفة قال «والله ما ترك رسول ﷺ من قائد فتنة. إلى أن تنقضي الدنيا بلغ معه ثلثمائة فصاعداً، إلا قد سماه لنا بإسمه وإسم أبيه وإسم قبيلته»^(١) ويشهد بصدق قريش عن الرواية، ما روى عن عبد الله بن عمرو قال: قلت يا رسول الله أقيد العلم؟ قال: نعم، قلت؟ وما تقييده؟ قال: الكتابة^(٢)، وروى عنه أنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: اكتب والذي نفسي بيده ما يخرج مني إلا حق - وأشار إلي فيه^(٣)، وما حدث مع عبد الله، حدث مع ابن شعيب، فعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال «قلت يا رسول الله - أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم قلت: في الرضا والغضب؟ قال: نعم فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً»^(٤).

● وبينما كان النبي ﷺ يحث على الرواية والكتابة على إمتداد عهد البعثة، كان يخبر بالغيب عن ربه بأنه يوشك أن يكذبه أحدهم، وأن الرواية سيتم تعطيلها إلى أن يشاء الله، فعن معد يكرب قال «قال رسول الله ﷺ، يوشك أحدكم أن يكذبني وهو متكئ على أريكته. يحدث بحديث من حديثي فيقول. بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه

(١) رواه أبو داود حديث رقم ٤٢٤٣.

(٢) رواه الطبراني (الزوائد ١/١٥٢).

(٣) رواه أحمد (الفتح الرباني ١/١٧٣) والحاكم وأقره الذهبي (المستدرک ١/١٠٦) وأبو داود (حديث رقم ٣٦٤٦) والدرامي في سننه ١/١٢٥.

(٤) رواه ابن عبد البر (جامع العلم ١/٨٥) والخطيب (تقييد العلم ص ٧٤).

من حلال إستحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمانه، إلا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله»^(١). وقال ﷺ لأصحابه «لألفين أحدهم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري بما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري ما وجدناه في كتاب الله إتبعناه»^(٢)، وقوله يوشك إشارة الى أن الأمر قريب، وقوله متكئ على أريكته، المتكئ. كل من إستوى قاعداً على وطاء متمكناً.

● (إجتهادات الصحابة في رواية الحديث وتدوينه):

إجتهد أبو بكر رضي الله عنه في رواية الحديث وتدوينه، روى الحافظ عماد الدين بن كثير عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ، فكانت خمسمائة حديث، فبات ليلة يتقلب كثيراً، فغمتني، فقلت: تتقلب بشكوى أو بشيء بلغك؟ فلما أصبح قال: أي بنية هلمي الأحاديث التي عندك، فجئت بها، فدعا بنار فأحرقها، وقال: خشيت أن أموت وهي عندك. فيكون. ' أحاديث عن رجل إئتمنه ووثقت به ولم يكن كما حدثني، فأكون قد تقلدت ذلك»^(٣)، وذكر الذهبي في تذكرته. عن أبي بكر أنه قال «إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد إختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا، بيننا وبينكم كتاب الله، فإستحلوا حلاله وحرموا حرامه»^(٤).

(١) رواه أحمد (الفتح الرباني ١/١٩١) والحاكم وصححه (المستدرک ١/١٠٩) والترمذي وصححه (الجامع ٥/٣٨).

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه (کنز ١/١٧٤) والترمذي وصححه (الجامع ٥/٣٧).

(٣) رواه ابن كثير (کنز العمال ٢٨٥، ٢٨٦/١٠).

(٤) تذكرة الحفاظ ٢، ١/٣.

وروي أن عمر بن الخطاب في خلافته قال: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم، كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً^(١) وروي عن مالك أن عمر قال «لا كتاب مع كتاب الله»^(٢)، وعن يحيى بن جعدة قال: أراد عمر أن يكتب السنة ثم بدا له أن لا يكتبها، ثم كتب في الأمصار: من كان عنده شيء من ذلك فليمحه^(٣)، وعن القاسم بن محمد أن عمر قال: لا يبقى أحد عنده كتاب إلا آتاني به فأرى فيه رأيي، فظن الناس أنه يريد أن ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه إختلاف، فأتوه بكتبهم، فأحرقها بالنار^(٤).

● وعن سعد بن إبراهيم عن أبيه. أن عمر بن الخطاب قال لابن مسعود ولأبي ذر ولأبي الدرداء، ما هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، وأحسبه حبسهم بالمدينة حتى أصيب^(٥)، وعن السائب بن يزيد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي هريرة: لتترك الحديث عن رسول الله ﷺ. أو لألحقنك بأرض دوس^(٦)، وعن الزهري عن أبي سلمة قال: سمعت أبو هريرة يقول: ما كنا نستطيع أن نقول. قال رسول الله ﷺ. حتى قبض عمر بن الخطاب^(٧).

-
- (١) رواه ابن عبد البر (كنز ٢٩٢/١٠) وابن سعد (كنز ٢٩٣/١٠) والخطيب (تقييد العلم ص ٤٩).
- (٢) رواه ابن عبد البر (كنز ٢٩٢/١٠).
- (٣) رواه خيثمة وابن عبد البر (كنز ٢٩٢/١٠) والخطيب (تقييد العلم ٥٣).
- (٤) رواه الخطيب (تقييد العلم ٥٢).
- (٥) رواه ابن عبد البر (كنز العمال ٢٩٢/١٠) وابن سعد (كنز ٢٩٣/١٠) والخطيب (العلم ٤٩).
- (٦) رواه ابن عساكر (٢٩١/١٠).
- (٧) رواه ابن كثير (البداية والنهاية ١٠٧/٨).

وبعد عمر بن الخطاب بدأ بعض الصحابة يروون بعض ما عندهم، فأخذ عثمان بن عفان بسنة عمر في عدم الرواية، فعن محمود بن لبيب قال: سمعت عثمان بن عفان يقول، لا يحل لأحد يروي حديثاً لم يسمع في عهد أبي بكر ولا عهد عمر^(١)، ثم أخذ معاوية بن أبي سفيان بهذه السنة، فقال «أيها الناس، أقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ، وإن كنتم تتحدثون فتحدثوا بما كان يتحدث به في عهد عمر^(٢)».

● وعندما جاء عهد الإمام علي بن أبي طالب، لم يكن السواد الأعظم من الأمة يعرفون عنه إلا القليل، وذلك لأن عهده جاء بعد وفاة النبي ﷺ بربع قرن تقريباً، عتم فيها عدم الرواية على منزلته ومناقبه، وفي عهد علي بن أبي طالب بدأ الصحابة يروون الأحاديث عن رسول الله ﷺ، وكان علي يقول «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: اللهم إرحم خلفائي، اللهم إرحم خلفائي، اللهم إرحم خلفائي، قالوا: يا رسول الله ومن خلفائك؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون أحاديثي ويعلمونها للناس^(٣)»، وعن الحسن بن علي قال «قال رسول الله ﷺ، رحمة الله على خلفائي، قالوا: ومن خلفائك يا رسول الله يا رسول الله؟ قال: الذين يحبون سنتي ويعلمونها للناس^(٤)»، وعن سعيد بن المسيب قال «ما كان أحد من الناس يقول سلوني، غير علي بن أبي طالب^(٥)»، وكان علي يحضّ الناس على السؤال ويقول «ألا رجل يسأل فينتفع. وينتفع

(١) رواه ابن سعد (الطبقات ٢/٣٣٦) وابن عساكر (كنز ١٠/٢٩٥).

(٢) رواه ابن عساكر (كنز ١٠/٢٩١).

(٣) رواه الطبراني والرامهرمزي والخطيب والديلمي وابن النجار والدينوري والقشيري ونصر (كنز العمال ١٠/٢٩٤).

(٤) رواه ابن عساكر وأبو نصر السجزي (كنز ١٠/٢٢٩).

(٥) رواه ابن عبد البر (جامع العلم ١/١٣٧).

جلساءه^(١)، وكان يقول «تزاوروا وتدارسوا الحديث، ولا تتركوه يدرس (أي تعهدوه لئلا تنسوه)^(٢)» وقال «تعلموا العلم. فإذا علمتموه فإكظموا عليه ولا تخالطوه بضحك وباطل فتمحه القلوب»^(٣).

● وبالجمله: بينت الدعوة الإلهية الخاتمة، أن الحديث عن النبي الخاتم ﷺ، لا غنى للمسيرة عنه، لأنه مكمل للتشريع ومبين لمجملات القرآن، ومخصص لعموماته ومطلقاته، كما أن الحديث تكفل بكثير من النواحي الأخلاقية والاجتماعية والتربوية، وأخبر فيه النبي ﷺ بالغيب عن ربه جل وعلا، فبين للناس ما يستقبلهم من أحداث ليأخذوا بأسباب النجاة من مضلات الفتن، وبعد رحيل النبي الخاتم ﷺ أجتهد بعض الصحابة في أمر الرواية والتدوين، ولقد تواترت الأخبار في منع عمر بن الخطاب الصحابة وهم الثقات العدول، وردعهم عن رواية العلم وتدوينه، وفي هذا يقول ابن كثير: هذا معروف عن عمر^(٤)، ثم سار على سنة عمر خلفاء وملوك بني أمية، ولم ترو الأحاديث الجامعة للعلم والمبينة للناس ما يستقبلهم من أحداث، إلا في عهد الإمام علي بن أبي طالب^(٥).

●● (من آثار عدم الرواية والتدوين):

كانت أهم آثار عدم الرواية، ظهور القص في المساجد، ومن خلال القص دخلت الأحاديث الإسرائيلية، ورفع القص من شأنه أفراد وقبائل ذمهم الله على لسان رسوله، وفي نفس الوقت عتم القص على

(١) المصدر السابق ١/١٣٧.

(٢) رواه الخطيب (كنز العمال ١٠/٣٠٤).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد والخطيب (كنز ١٠/٣٠٤).

(٤) البداية والنهاية ٨/١٠٧.

(٥) انظر/ معالم الفتن/ سعيد أيوب طه دار الكرام بيروت.

أفراد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وفي عهد الامام علي عندما أظهر الإمام أحاديث رسول الله، قابله أهل الشام وغيرهم بأحاديث يجري القص في عروقتها، وترتب على ذلك إختلاط الأمور على السواد الأعظم من الأمة ولم يكونوا من الصحابة حتى يميزوا بين الصالح وبين الطالح، وجرت المعارك، ثم إختلفت الأمة وتفرقت. وكل فرقة كان في حوزتها أحاديث تتفق مع أهواء شيوخهم.

١ - أضواء على القص:

قال رسول الله ﷺ «إن بني اسرائيل لما هلكوا قصوا»^(١). وقال «سيكون بعدي قصاص لا ينظر الله اليهم»^(٢)، وأول من أمر بالقص، عمر بن الخطاب، روى الإمام احمد عن السائب بن يزيد قال: «إنه لم يكن يقص على عهد رسول الله ﷺ ولا أبي بكر. كان أول من قص تميم الداري. إستأذن عمر أن يقص على الناس قائماً فأذن له»^(٣).

وإستلم بني أمية أعلام القص بعد ذلك، روى أن عبد الملك بن مروان قال: إنا جمعنا الناس على أمرين. رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقصص بعد الصبح والعصر»^(٤)، ولبس القص الزي الديني في عهد بني أمية، وذلك أن النبي ﷺ كان يبدأ بالصلاة في العيدين ثم يخطب بعد ذلك، ففعل بني أمية العكس. وبدؤا بالخطبة لينشروا بذلك مذهبهم السياسي بين الناس، روى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري.

(١) رواه الطبراني ورجاله موثقون وفيه الأجلح الكندي والأكثر على توثيقه (الزوائد ١/١٨٩).

(٢) رواه ابن فضالة في أماليه (كنز العمال ١٠/٢٨٢).

(٣) رواه أحمد والطبراني (الزوائد ١/١٩٠) والعسكري عن بشر بن عاصم (كنز ١٠/٢٨١) والمروزي عن أبي نضرة (كنز ١٠/٢٨١).

(٤) رواه أحمد والبزار وقال ابن حجر إسناده جيد (الفتح الرباني ١/١٩٤).

أن رسول الله ﷺ. كان يخرج يوم الأضحى ويوم الفطر. فيبدأ بالصلاة. فإذا صلى صلاته وسلم. قام فأقبل على الناس وهم جلوس في مصلاهم. فإن كان له حاجة بيعت ذكره للناس. أو كانت له حاجة بغير ذلك أمرهم بها^(١).

أما التغيير ففي ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري «أن مروان خطب قبل الصلاة. فقال له أبو سعيد: غيرتم والله. قال مروان: يا أبا سعيد قد ذهب ما تعلم، فقال: ما أعلم والله خير مما لا أعلم، قال مروان: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة، فجعلتها قبل الصلاة» وقد اختلف في أول من سن هذه السنة، قال في تحفة الأحوازي: اختلف في أول من غير ذلك، فرواية الإمام مسلم صريحة في أن مروان أول من بدأ الخطبة قبل الصلاة، وقيل. سبقه إلى ذلك عثمان بن عفان، روى ابن المنذر بإسناد صحيح إلى الحسن البصري قال: أول من خطب قبل الصلاة عثمان، وروى أن مروان فعل ذلك تبعاً لمعاوية، ومعاوية عندما قدم المدينة قدم الخطبة^(٢).

● وكان الإمام علي يتصدى للقصاصين وينهاهم عن القصاص، فعن أبي البحتري قال: دخل علي بن أبي طالب المسجد، فإذا رجل يخوف، فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل يذكر الناس، فقال: ليس برجل يذكر الناس. ولكنه يقول أنا فلان بن فلان. إعرفوني، فأرسل إليه فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال: لا، فقال: أخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه^(٣).

(١) رواه مسلم (الصحيح ٣/٢٠).

(٢) تحفة الأحوازي ٣/٧٤.

(٣) رواه العسكري والمرزوي (كنز العمال ١٠/٢٨١) وانظر: كنز العمال ١٠/٢٨٢.

● وبالجمللة: قال في الفتح الرباني: القصص هو إخبار الناس بقصص الماضين، وعمل ذلك مذموم شرعاً، لأنه يصرف الناس عن الإشتغال بالعلوم الدينية، ولم يعهد ذلك في عصر النبي ﷺ. وقال ابن حبان. قال ابو حاتم: كان القصاصون يضعون الحديث في قصصهم، وكانوا إذا دخلوا بمساجد الجماعات ومحافل القبائل من العوام والرعاع أكثر جسارة على وضع الحديث^(١)، كما وضعوا أحاديث تنافي عصمة الأنبياء. فجعلتهم يخطئون، ونسبوا الى النبي ﷺ أنه كان يسب ويلعن ويجلد بغير سبب، ونسبوا اليه أنه كان يسهو في الصلاة وأنه كان ينسى آيات القرآن الكريم، وأرادوا من وراء تجريد النبي من العصمة أن يبرروا أخطاء الأمراء الذين جلدوا الشعوب وضيعوا الصلاة، وأن يعطوا للذين لعنهم الله على لسان رسوله ﷺ. جواز المرور لتولي المراكز القيادية.

ووضع القصاصون أحاديث تحمل بصمة أهل الكتاب، والصق بالتفسير روايات وقصص لا يتصورها عقل ولا يجوز أن يفسر بها كتاب الله، ووضعوا في هذه الأحاديث. أن الله يشغل حيزاً من المكان، ويضحك وينتقل من مكان الى آخر، وأنه يتألف من أعضاء، وهو عبارة عن هيكل مادي، وعين ويد وأصابع وساق وقدم.

وبالجمللة: كان القصص وراء تغييب العقل ووطئه بالأقدام، وتحت سقفه إختل منهج البحث ومنهج التفكير ومنهج الاستدلال، وعلى موائده لا تظهر القراءة النقدية المتفحصة التقييمية إلا بعد عناء شديد، وكان القصص وراء إهمال الواجبات والتسامح في المحرمات والتهاون بالسنن والمستحبات، وكان البذرة الأولى لظهور المبادئ والمنظمات الباطلة التي وضعت القوانين على طبق أهوائهم وآرائهم، وعلى هذه المبادئ إنقسمت الأمة الى قوافل. وكل قافلة تتولى حزباً وتحبه. لأنها

(١) المجروحين/ ابن حبان ص، ١/٨٨.

تميل الى قوانينه وتحب القائمين عليه، وعلى رؤوس الجميع الحجة قائمة. والله تعالى ينظر الى عباده كيف يعملون.

٢ - الخفوت والظهور:

وكان من آثار عدم الرواية. التعتيم على أهل البيت، وذلك لأن الأمر بحرق الكتب. أطاح بالعديد من الأحاديث التي تبين منزلة أهل البيت ومناقبتهم، ويشهد ذلك ما رواه الخطيب البغدادي عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: جاء علقمة بكتاب من مكة أو اليمن. صحيفة فيها أحاديث في أهل بيت النبي ﷺ، فاستأذنا على عبد الله، فدخلنا عليه فدفعنا اليه الصحيفة، فدعا الجارية ثم دعا بطست فيها ماء، فقلنا له: يا أبا عبد الرحمن إنظر فيها. فإن فيها أحاديث حسناً، فجعل يميثها في الماء، ويقول ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن. ولا تشغلوها بما سواه^(١).

ويشهد بذلك أن علياً عندما تولى الخلافة لم يكن السواد الأعظم يعلم عن منزلته ومناقبه شيئاً، حتى أنشد بالله كل إمريء مسلم سمع النبي ﷺ يقول «من كنت مولاه فعلي مولاه» أن يقوم. وكان قد جمعهم في الرحبة. ولم يعرف العوام مناقبه إلا من خلال ما رواه الصحابة بعد ذلك وكان العديد من الصحابة يتحدثون في مجالسهم الخاصة عن مناقبه، ولكن هذا الحديث لم يكن يخرج الى الساحات العامة، وفي مقابل هذا التعتيم، كان لعدم الرواية الأثر الكبير في ظهور الذين حذر منهم النبي ﷺ وهو يخبر بالغيب عن ربه، ويشهد بذلك ما روى عن حذيفة أنه قال: «والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا، والله ما ترك

(١) تقييد العلم/ الخطيب ص ٥٤.

رسول الله ﷺ من قائد فتنة الى أن تنقضي الدنيا بلغ من معه ثلثمائة فصاعداً، إلا وقد سماه لنا بإسمه وإسم أبيه وإسم قبيلته^(١) ومعنى (أم تناسوا) أي أظهروا النسيان لمصلحة، ومعنى (باسمه واسم أبيه) يعني وصفاً واضحاً مفصلاً لا مبهماً، مجملاً فالإستقصاء متصل.

وروى عن حذيفة أنه قال: إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي ﷺ، كانوا يومئذ يسرون واليوم يجهرون^(٢)، وقال: إنما كان النفاق على عهد النبي ﷺ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان^(٣)، وحذيفة مات بعد مقتل عثمان بأقل من شهر، وكان مريضاً، وعندما علم بأن الناس بايعوا علي بن أبي طالب، بايع وهو على فراش المرض، وحث الناس على الإلتفاف حول علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر، وأمر ولده بالقتال مع علي، فقاتلا تحت أعلام الامام علي، حتى قتلا^(٤).

● وبعد ظهور النفاق في ظل سياسة اللارواية، خاف الصحابة فلم يحدثوا بالأحاديث الكاشفة، ويشهد بذلك، ما رواه البخاري عن ابي هريرة قال: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين. فأما أحدهما فبثته، وأما الآخر فلو بثته قطع هذا البلعوم^(٥)، وعنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ «هلاك أمتي على يدي غلمة من قريش» إن شئت أن أسميهم بني فلان وبني فلان^(٦) وعنه أنه قال: إني لأحدث أحاديث. لو تكلمت بها في زمان عمر، أو عند عمر، لشج رأسي^(٧).

(١) رواه أبو داود ٤٢٤٣.

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٤/٢٣٠).

(٣) رواه البخاري (الصحيح ٤/٢٣٠).

(٤) انظر: معالم الفتن / سعيد أيوب.

(٥) البخاري (الصحيح ١/٣٤).

(٦) البخاري (الصحيح ٢/٢٨٠).

(٧) رواه ابن عبد البر (جامع العلم ١/١٤٨) وابن كثير (البداية والنهاية ٨/١٠٧).

ويشهد به أيضاً، ما روى عن بجاله قال . قلت لعمران بن حصين :
حدثني عن أبغض الناس الى رسول الله ﷺ ، فقال : تكتم عليّ حتى
أموت؟ قلت : نعم، قال : بنو أمية وثقيف وبنو حنيفة^(١) . ومن الثابت
والمعروف أن بني أمية شقوا طريقهم نحو السلطة بعد وفاة النبي ﷺ .
نتأمر أبي بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان على الشام^(٢) . وبعد
وفاة يزيد . قام عمر بتأثير معاوية^(٣) . وروي أن عمر كان يقول للناس :
أتذكرون كسرى وعندكم معاوية^(٤) ، وقال لهم عندما ذكروا معاوية : دعوا
فتى قريش وابن سيدها . إنه لمن يضحك في الغضب . ولا ينال منه إلا
على الرضا^(٥) .

وأحاديث النبي ﷺ التي يحذر فيها من بني أمية ، أحاديث كثيرة ،
منها : ما روي عن أبي ذر أنه قال . قال رسول الله ﷺ «إذا بلغ بنو أمية
أربعين رجلاً ، إتخذوا مال الله دولا ، وعباد الله خولا ، ودين الله
دغلا»^(٦) . ومعنى (مال الله دولا) أي يكون لقوم دون قوم (وعباد الله
خولا) أي خدماً وعبيداً (ودين الله دغلا) أي يدخلوا في الدين أمور لم
ترد بها السنة .

والحديث روي عن أبي سعيد الخدري وابن عباس وأبي ذر ،
ورواه الامام أحمد والحاكم وأبو يعلى والطبراني والبيهقي ، وروي بلفظ
«إذا بلغ بنو أبي العاص» ولفظ «إذا بلغ بنو فلان» ، وقال الحاكم بعد

(١) نعيم بن حماد (كنز العمال ١١/٢٧٤) .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ٤/٢٨ .

(٣) ابن سعد (كنز العمال ١٣/٦٠٦) البداية والنهاية ٨/١١٨ ، تاريخ الأمم
٥/٦٩ ، الاستيعاب ٣/٥٩٦ .

(٤) تاريخ الأمم ٦/١٨٤ ، الاستيعاب ٣/٥٩٦ .

(٥) الديلمي (كنز ١٣/٥٨٧) البداية والنهاية ٨/١٢٥ ، الاستيعاب ٣/٥٩٧ .

(٦) الحاكم وصححه (المستدرک ٣/٤٧٩) .

روايته للحديث: ليعلم طالب العلم، أن هذا باب لم أذكر فيه ثلث ما روي، وأن أول الفتن في هذه الأمة فتنهم، ولم يسعني فيما بيني وبين الله تعالى. أن أخلي الكتاب من ذكرهم^(١).

● والخلاصة: كان لسياسة اللارواية واللاتدوين آثار جانبية، منها: إكتفاء الناس بتلاوة القرآن دون الوقوف على معانيه وأهدافه، وأدى ذلك الى ظهور الذين يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وفي عهد الامام علي ظهرت حقيقتهم أمام الناس، وحاربهم الإمام في موقعة النهراوين، وما زالت بقيتهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء لأن منهجهم وثقافتهم لن تموت حتى يخرج الدجال، ومنها: ظهور الذين لعنهم الله على لسان نبيه بعد أن ضاع التحذير منهم في عالم اللارواية، ومنها التعتيم على الهداة. وإقتصر ذكرهم في المجالس الخاصة، ومنها ظهور القصص وعلى مائدته صنعت مناقب وتواريخ لقوافل لا تحمل من العلم إلا قشوره، وعلى القصص ظهرت ثقافات إلتحمت مع ثقافة أهل الكتاب، وتشهد بذلك عقيدة الجبرية يقول الشيخ محمد أبو زهرة: أول من دعا الى هذه النحلة من المسلمين «الجعد بن درهم»، وقد تلقى ذلك عن يهودي بالشام، لأن اليهود أول من فعل ذلك وعلموه بعض المسلمين وهؤلاء أخذوا ينشرونه^(٢)، ولقد إستغل بنو أمية هذه العقيدة في إخضاع المسلمين، بحجة أن قيادتهم مفروضة عليهم بقضاء الله وقدره، وأن أي تمرد عليهم هو تمرد على قضاء الله، ولقد قامت هذه العقيدة على أحاديث وضعها القصاص، كان الهدف من ورائها تزييف النشاط الإنساني منذ بدء الخلق الى قيام الساعة والتطوع بالوحي كله، وتحت أعلام عقيدة الجبر إنطلقت جحافل بني أمية الى ديار المسلمين،

(١) المستدرک ٤/٤٨٢.

(٢) تاريخ المذاهب الاسلاميه/ ابو زهرة ٢/١٠٢.

بعد أن مهد القص والأحاديث الموضوعية طريقهم نحو إتخاذ دين الله دغلاً، ليتخذوا مال الله دولاً عباد الله خولاً، وقتلوا الذين يأمرؤن بالقسط من الناس، من أمثال حجر بن عدي والحسين بن علي وغيرهما.

ولم تكن عقيدة المرجئة بعيدة عن نسيج القصاص. لأن الأحاديث الموضوعية هي التي غذتها، وعلى ذروة عقيدة المرجئة يجلس يوحنا الدمشقي، وهو آخر كبار علماء النصرانية على مذهب الكنيسة الإغريقية، وكان أبوه صاحب عبد الملك بن مروان، وصنف يوحنا كتاب في فضائل النصرانية على منهج محادثة بين مسلم ونصراني^(١) وقال الشيخ أبو زهرة «كان يوحنا ييٲ بين علماء النصارى في البلاد الإسلامية طرق المناظرات التي تشكك المسلمين في دينهم، وظهرت آراء يوحنا بالشام»، بعد أن وجدت لها حصناً صنعه القص والأحاديث الموضوعية، ومن خلال هذا الالتقاء. تطرق البحث حول مرتكب الكبيرة، هل هو مؤمن أم غير مؤمن؟ وهل يضر مع الإيمان ذنب؟ وعلى مائدة البحث خرجت العقيدة التي تعتذر عن بني أمية فيما إرتكبوه من جرائم، بمعنى: لقد ضربوا بعقيدة الجبرية. وإعتذروا بعقيدة المرجئة، التي تقول بأنه لا ينبغي المفاضلة بين المسلمين ولا الحكم على أحد بتقوى وغير تقوى، فالمسلم يكفي أن يكون مسلماً، وبهذه العقيدة تم الإفتاء على الله ورسوله بتغيير الأحكام الشرعية. وإظهار البدع والباطل، وقولهم أن الأمة مرحومة والله رفع العذاب عنها، وإنهم في أمن من عذاب الله وإن إنهمكوا في كل إثم وخطيئة وهتكوا كل حجاب، والأمة مغفور لها محسنهم ومسيئهم. وإن لهم الكرامة في الدنيا. ولهم أن يفعلوا ما شاؤا بعد أن إستظلوا بمظلة حجاب الأمن. ولهم في الآخرة

(١) تاريخ الأدب العربي/ بروكلمان ١/٢٥٦.

مغفرة توجب فتح أبواب الجنة أمامهم. وبعقيدة المرجئة إشتد الساعد بعد أن إرتدى قفازاً من حرير في الوقت الذي يحتفظ فيه بقبضته الحديدية. وملئت الأرض ظلماً وجوراً.

ثانياً - (الأمر النبوي في الأموال):

قال النبي ﷺ «إن لكل أمة فتنه. وفتنة أمتي المال»^(١)، ولما كان فتنة الأمة في المال، بينت الشريعة الخاتمة موضع الرحاب الآمن، وشاء الله أن يكون الأمن في فعل الرسول، بمعنى أن النجاة لن تكون في منع الرواية عن الرسول، لأن الله تعالى بين موضع كل مال. وقسمه بين عباده تقسيماً حقاً بوضع قوانين عادلة تعدل الملك تعديلاً حقاً يقطع منابت الفساد، وهذه القسمة وهذه القوانين نفذها النبي ﷺ وهو يبين للناس ما أنزل اليهم من ربهم، وفي الوقت الذي كان النبي ﷺ يقيم الحجة. كان يخبر بالغيب عن ربه ويقول «إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم»^(٢)، وأمر النبي ﷺ بأوامر تدفع هذا الهلاك، ومنها التقدم بالصدقة، لأن من خاصتها أنها تنمي المال. لأنها تنشر الرحمة وتورث المحبة. وتآلف القلوب وتبسط الأمن. وتصرف القلوب عن أن تهتم بالغضب والإختلاس والفساد والسرقة. وتدعو الى الإتحاد والمساعدة والمعونة. وبذلك يفسد أغلب طرق الفساد، وحذر عليه الصلاة والسلام من التعامل بالربا، لأن الربا من خاصته أنه يمحور المال ويفنيه تدريجياً، من حيث أنه ينشر القسوة والخسارة ويورث البغض والعداوة وسوء الظن، ويفسد الأمن والحفظ. ويهيج النفوس على الإنتقام بأي وسيلة أمكنت، ويدعو الى التفرق والإختلاف، وبذلك يفتح

(١) رواه الترمذي وصححه (الجامع ٤/٥٦٩).

(٢) رواه أبو داوود عن أبي موسى (كنز ٣/١٩١) والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود (كنز ٣/١٩١).

أغلب طرق الفساد وأبواب الزوال على المال .

● ولأن المجتمع في نظر الشريعة ذو شخصية واحدة، له كل المال الذي أقام به صلبه وجعله له معاشاً، فإن الشريعة ألزمت المجتمع بأن يدير المال ويصلحه ويعرضه معرض النماء، ويرتزق به إرتزاقاً معتدلاً مقتصدًا. ويحفظه من الضيعة والفساد، ومن مجملات القرآن التي تتعلق بالأموال وبينها رسول الله ﷺ ليستقيم حال المجتمع، قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ. قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١)، والمعنى: يسألك أصحابك يا محمد عن هذه الغنائم التي غنمتها. فقل: هي لله والرسول. يحكم فيها الله بحكمه ويقسمها الرسول. وروي أن النبي ﷺ قال «إنما أنا قاسم وخازن. والله يعطي»^(٢)، وقال «ما أعطيتكم ولا أمنعكم أنا قاسم أضع حيث أمرت»^(٣)، وبين النبي ﷺ حكم الله في الغنيمة، وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ...﴾^(٤)، وبين الرسول حكم الخمس وحكم الأربعة أخماس، وعلموا حق الذين حرمت عليهم الصدقة من ذي القربى، وحق الجنود.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٥)، قال المفسرون: بين الله تعالى أنه هو الذي قسم الصدقات وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمتها إلى أحد غيره، ففعله

(١) سورة الأنفال آية ١ .

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٢/١٩٠).

(٣) رواه البخاري (الصحيح ٢/١٩٢).

(٤) سورة الأنفال آية ٤١ .

(٥) سورة التوبة آية ٦٠ .

«فريضة من الله» إشارة الى أن تقسيمها الى الأصناف الثمانية أمر مفروض منه تعالى، وإشارة إلى أن الزكاة فريضة واجبة، وقوله تعالى: ﴿والله عليم حكيم﴾ إشارة الى أن فريضة الزكاة مشرعة على العلم والحكمة، لا تقبل تغيير المغير .

وروى أبو داوود عن زياد بن الحارث قال «أتيت النبي ﷺ فبايعته. فأتاه رجل. فقال: إعطني من الصدقة، فقال له النبي ﷺ: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها. فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك».

● وأقامت الشريعة الخاتمة الحجة على المسيرة، فأخبر النبي الخاتم ﷺ. إن فتنة أمته في المال، وبين كيف تدخل الأمة في حجاب الأمن. وفي الوقت الذي بين فيه النبي ﷺ حكم الغنيمة أخبر بالغيب عن ربه، بأن فتنة المال ستصيب البعض، وقال «كأنني براكب قد آتاكم فنزل. فقال. الأرض أرضنا والفيء فيئنا وإنما أنتم عبيدنا. فحال بين الأرامل واليتامى وما أفاء الله عليهم»^(١)، أخبر النبي بهذا حتى يأخذوا بالأسباب وهم تحت سقف الإمتحان والابتلاء. لأن الله تعالى ينظر الى عباده كيف يعملون.

●● (إجتهد الصحابة في الأموال)

ذكرنا أن الساحة بعد رسول الله كان بها صحابة سمعوا من النبي شيئاً ولم يحفظوه على وجهه. وكان بها من سمع منه شيئاً يأمر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم. فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، وأدى هذا في نهاية المطاف الى تضارب القرارات ثم ضياع مال الله في عهد بني أمية. بعد أن بسطوا أيديهم على بيوت المال، وبالجملية نقدم هنا

(١) رواه ابن النجار (كنز ١٩٥/١١).

الأحاديث التي تشهد بالمقدمات الأولى.

روي البخاري ومسلم. عن عائشة أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ. سألت أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله ﷺ، فقال لها أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: لا نورث ما تركناه صدقة، فغضبت فاطمة فهجرت أبا بكر، فلم تزل مهاجرة له حتى توفيت، وعاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر، فكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله ﷺ من خير وفدك وصدقته بالمدينة، فأبى أبو بكر ذلك..^(١).

وروى الامام أحمد «لما قبض رسول الله ﷺ أرسلت فاطمة الى أبي بكر: فقال: أنت ورثت الله صلى الله عليه وسلم أم أهله؟ فقال: بل أهله. قالت: فأين سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله عز وجل إذا أطعم نبياً طعمة ثم قبضه جعله للذي يقوم من بعده، فرأيت أن أردّه على المسلمين»^(٢).

● ولقد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن أبا بكر أبى أن يعطي فاطمة رضي الله عنها ما ترك رسول الله ﷺ من خير وفدك وصدقته بالمدينة، وذلك لما عنده من حديث لم يرويه غيره. وفي عهد عمر روى البخاري ومسلم. أن صدقة رسول الله ﷺ بالمدينة. دفعها عمر الى علي بن أبي طالب والعباس. وأمسك خبير وفدك^(٣)، وذلك أيضاً لما عنده من حديث، وروي أن أهل البيت ردوا الى عمر ما دفعه اليهم لأنهم وجدوه دون حقهم الذي بينه رسول الله لهم، فعن يزيد بن هرمز. أن نجدة الحروري أرسل الى ابن عباس يسأله عن سهم ذي القربى. ويقول لمن

(١) رواه البخاري (الصحيح ١٨٦/٢) وأحمد ومسلم والبيهقي (كنز ٢٤٢/٧).

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح (الفتح الرباني ٢٣/٢٣).

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي (كنز ٢٤٢/٧).

تراه؟ فقال ابن عباس: لقربي رسول الله ﷺ، قسمه لهم رسول الله ﷺ، وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضاً رأيناه دون حقنا فرددناه عليه، وأبيناً أن نقبله»^(١).

● وكان لقرار منع ميراث الرسول وصدقته آثار جانبية منها: التعقيم على أهل البيت، لأن خروجهم من تحت سقف ما كتبه الله لهم وهم الذين حرمت عليهم الصدقة، يجعلهم كغيرهم من الناس، ولم يفعل النبي ﷺ هذا في حياته. وإنما كان يضع الناس في مواضعهم التي حددها الله تعالى، فعن جبير بن مطعم قال «مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ. فقلنا: يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد»^(٢) وفي رواية «إنا وبنو المطلب لا نفرق في جاهلية ولا إسلام. وإنما نحن وهم شيء واحد. وشبك بين أصابعه»^(٣).

● أما فيما يختص بحقوق الجنود. فقد بينه النبي ﷺ حين سئل: ما تقول في الغنيمة؟ قال: لله خمس. وأربعة أخماس للجيش»^(٤). لكن عمر بن الخطاب اجتهد في هذا، وأمر بوضع جميع الغنائم في بيت المال ثم قام بتقسيم هذه الغنائم وفقاً لما يراه، ودون على ذلك الدواوين، وعدم قسمة عمر للغنائم يشهد به ما روى عن إبراهيم إنه قال: لما إفتح المسلمون السواد قالوا لعمر: إقسمها بيننا فإننا فتحنا، فأبى عمر وقال: فما لمن جاء بعدكم من المسلمين»^(٥) وقال عمر «لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها سهماناً كما قسم رسول الله

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي (الفتح الرباني ١٤/٧٧).

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٢/١٩٦).

(٣) رواه أحمد (الفتح الرباني ١٤/٧٦) وأبو داود حديث ٢٩٨٠.

(٤) رواه البغوي (كنز العمال ٤/٣٧٥).

(٥) رواه أبو عبيد وابن زنجويه (كنز ٤/٥٧٤).

خير سهمانا، ولكنني أردت أن يكون جزية تجري على المسلمين، وكرهت أن يترك آخر المسلمين لا شيء لهم»^(١) وفي رواية قال: ولكنني أتركها خزانة لهم^(٢).

ويشهد التاريخ أن هذه الخزانة أضرت أكثر مما نفعت، فبعد أن بسطت بنو أمية أيديهم على بيوت المال التي تركها عمر بن الخطاب، إتخذوا دين الله دغلاً، ومال الله دولاً، وعباد الله خولاً، وإستمرت بيوت المال على إمتداد المسيرة يشتري بها الحكام الذمم ويسفكون بها الدم الحرام.

وكان هناك العديد من الصحابة الذين عارضوا سياسة عدم قسمة الغنائم على سنة رسول الله ﷺ، منهم الزبير بن العوام، فعن سفيان بن وهب قال: لما فتحنا مصر بغير عهد، قام الزبير فقال: إقسمها يا عمرو بن العاص فقال: لا أقسمها، فقال الزبير: والله لتقسمنها كما قسم رسول الله خير، فقال: والله لا أقسمها حتى أكتب الى أمير المؤمنين، فكتب عمر اليه: أقرها حتى تغزوا منها جبل الحبلبة^(٣)، قال المفسرون في رد عمره. يريد حتى يغزو أولاد الأولاد ويكون عاماً في الناس. وقيل: أو يكون أراد المنع من القسمة حيث علقه على أمر مجهول.

ويشهد التاريخ أن عمرو بن العاص بسط يده على مصر كلها وكان خراجها له طيلة حياته في عهد معاوية بن أبي سفيان، وذلك عندما تكاتف عمرو مع معاوية على علي بن أبي طالب، فكافأه معاوية بأن تكون مصر له طعمة، ومن الذين إعترضوا على قرار عمر. بلال بن

(١) رواه أحمد والبخاري وابن خزيمة في صحيحه وابن الجارود والطحاوي وأبو يعلى وابن أبي شيبة وأبو عبيد (كتر ٤/٥٥٥).

(٢) رواه البخاري وأبو داود (كتر ٤/٥١٤).

(٣) رواه الشيخان وابن عساكر وابن زنجويه وأبو عبيد (كتر ٤/٥٥٧).

رباح، قال له عندما إفتتحوا أرضاً: إقسمها بيننا وخذ خمسها، فقال عمر: لا هنا عين المال، ولكني أحبسه فيئاً يجري عليهم وعلى المسلمين، فقال بلال وأصحابه: إقسمها بيننا، فقال عمر: اللهم إكفني بلالاً وذويه. قال راوي الحديث: فما حال الحول ومنهم عين تطرف^(١) أي: ماتوا بفضل دعاء عمر.

وكان بلال كثير الإعتراض على سياسة عمر. عن ابن أبي حازم قال: جاء بلال الى عمر حين قدم الشام. وعنده أمراء الأجناد. فقال: يا عمر. يا عمر. إنك بين هؤلاء وبين الله، وليس بينك وبين الله أحد، فأنظر من بين يديك ومن عن يمينك ومن شمالك، فإن هؤلاء الذين جاؤك (أي أتباع بلال) والله لم يأكلوا إلا لحوم الطير (أي لم يصل اليهم من الأمراء شيئاً)، فقال عمر للأمراء: لا أقوم من مجلسي هذا حتى تكفلوا لي لكل رجل من المسلمين بمدية^(٢) بر وحظهما من الخل والزيت، قالوا: تكفلنا لك يا أمير المؤمنين^(٣).

● أما قسمة عمر بن الخطاب بين الناس، فلقد فضل عمر المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم، وروى أنه قال «من أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً، ألا وإنني بادىء بالمهاجرين الأولين أنا وأصحابي فمعطيهم، ثم بادىء بالأنصار الذين تبوؤا الدار والإيمان فمعطيهم، ثم بادىء بأزواج النبي ﷺ فمعطيهم، - وفي رواية «ففرق لأزواج النبي ﷺ إلا جويرة وصفية وميمونة. فقالت عائشة: إن رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا. فعدل

(١) المغني/ لابن قدامة ٢/٧١٦.

(٢) مكيال معروف بالشام.

(٣) رواه أبو عبيد (كنز العمال ٤/٥٧٥).

بينهن عمر»^(١). ثم قال عمر: من أسرعت به الهجرة أسرع به العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ به عن العطاء فلا يلومن أحدكم إلا مناخ راحلته»^(٢).

● وبالجمللة: قال رسول الله ﷺ أيما قرية إفتتحها الله ورسوله فهي لله ورسوله، وأيما قرية إفتتحها المسلمون عنوة، فخمسها لله ولرسوله وبقيتها لمن قاتل عليها»^(٣)، وكان ﷺ يسوي بين الجنود في القسمة، ولم يخص أحداً بشيء دون الآخر»^(٤)، ولقد أخبر بالغيب عن ربه بما سيحدث من بعده، وقال لأبي ذر «كيف أنت وأئمة من بعدي يستأثرون بهذا الفيء. إصبر حتى تلقاني»^(٥)، وقال «خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا كان إنما هو رشا فإتركوه، ولا أراكم تفعلون، يحملكم على ذلك الفقر والحاجة، ألا وإن رحى بني مرج قد دارت، وإن رحى الإسلام دائرة، وإن الكتاب والسلطان سيفترقان، فدوروا مع الكتاب حيث دار...»^(٦).

● وإذا كان الإجهاد قد أخرج أهل البيت والجنود الذين شاركوا في المعارك من تحت سقف قسمة رسول الله ﷺ. فإن الإجهاد. قد أخرج المؤلف قلوبهم من تحت سقف القسمة التي قسمها الله تعالى.

● ولقد ذكرنا من قبل أن الله تعالى هو الذي قسم الصدقات، وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمتها الى أحد غيره،

-
- (١) رواه البيهقي (كنز العمال ٥٧٨/٤).
(٢) رواه أبو عبيد وابن أبي شيبة والبيهقي وابن عساكر (كنز ٥٥٦/٤).
(٣) رواه البخاري ومسلم (كنز العمال ٣٧٨/٤).
(٤) انظر: الفتح الرباني ١٣/٧٢، كنز العمال ٣٧٥/٤.
(٥) رواه أحمد وأبو داود وابن سعد (كنز العمال ٣٧٣، ٣٧٤/٤).
(٦) رواه الطبراني عن معاذ. وابن عساكر عن ابن مسعود وأبو داود عن أبي مطير باختصار (كنز ٢١٦/١) أبو داود حديث ٢٩٥٨.

وجزءها سبحانه ثمانية أجزاء. لا تقبل تغيير المغير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾^(١) وروى أن النبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم، وكانوا صنفان: صنف كفار وصنف أسلموا على ضعف، وذلك ليأمن شرهم وفتنتهم، لأن من شأن الصدقة أنها تؤلف القلوب وتبسط الأمن، وظل النبي ﷺ يعطي هذا السهم للمؤلفة قلوبهم ليعاونوا المسلمين أو ليتقوى إسلامهم. حتى وفاته ﷺ.

● وكان أبو سفيان^(٢) وابنه معاوية^(٣) من الذين أعطاهم النبي من سهم المؤلفة قلوبهم، وروى أن عمرو بن العاص حين جزع عن موته فقيل له: قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدينك ويستعملك. فقال: أما والله ما أدري أحباً كان ذلك أم تألفاً يتألفني^(٤)، وعلى الرغم من أن النبي ﷺ كان يعطي أبا سفيان من سهم المؤلفة، إلا أن الصحابة كانوا يختلفون في تحديد موقعه، روى أن أبي سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فأتاهم أبو بكر. فقال: يا إخوتاه أغضبتكم، قالوا: يغفر الله لك يا أخي^(٥)، قال النووي: هذه فضيلة

(١) سورة التوبة آية ٦٠.

(٢) انظر: صحيح مسلم ٧/١٥٦. البداية والنهاية ٤/٣٥٩، كنز العمال ٩/١٧٦.

(٣) انظر: البداية والنهاية ٤/٣٥٩.

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الفتح الرباني ٢٢/٣١٠) الزوائد ٩/٣٥٣ وابن سعد (الطبقات ١/٢٦٣).

(٥) رواه مسلم (الصحيح ١٦/١٦).

ظاهرة لسلمان ورفقته هؤلاء^(١). وروى أن النبي ﷺ أعطى قريشاً حين أفاء الله عليه أموال هوازن، فقال الناس من الأنصار: يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فعندما سمع رسول الله ﷺ بمقاتلتهم، أرسل إلى الأنصار فجمعهم ولم يدع أحد غيرهم، فقال: «إني لأعطي رجالاً حدثاء عهد بكفر أتألفهم. أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون برسول الله إلى رحابكم، فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به» قالوا: أجل يا رسول الله قد رضينا. فقال لهم «إنكم ستجدون بعدي أثره شديدة، فإصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإنني فرطكم على الحوض»^(٢).

لقد كان في سهم المؤلفة إمتحان وإبتلاء. ولكن الصحابة بعد رسول الله ﷺ اجتهدوا فيه..

روى أن الأقرع بن حابس وعيينة بن حصين وكانا من المؤلفة قلوبهم، جاءا يطلبان أرضاً من أبي بكر، فكتب بذلك خطأ، فمزقه عمر بن الخطاب، وقال: هذا شيء كان يعطيكموه رسول الله ﷺ تأليفاً لكم، فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم، فإن ثبتم على الإسلام وإلا فبيننا وبينكم السيف، فرجعوا إلى أبي بكر. فقالوا: أنت الخليفة أم عمر؟ بذلت لنا الخط ومزقه عمر، فقال أبو بكر: هو إن شاء الله. ووافق عمر^(٣).

وعن الشعبي أنه قال: كانت المؤلفة على عهد رسول الله ﷺ، فلما ولي أبو بكر إنقطعت^(٤)، وإعترض ابن قدامة على إنقطاع سهم

(١) مسلم شرح النووي ١٦/١٦.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد (الفتح الرباني ١٤/٨٩).

(٣) الفتح الرباني ٩/٦٢، الدر المنثور ٢/٢٥٢، تفسير المنار ١٠/٤٩٦، فقه السنة/ سيد سابق ١/٤٢٥.

(٤) رواه ابن أبي شيبة والطبراني (تحفة الأحوازي ٣/٣٣٥).

المؤلفة وقال: إن الله تعالى سمي المؤلفة في الأصناف الذين سمي الصدقة لهم، والنبي ﷺ قال «إن الله حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء» وكان عليه الصلاة والسلام يعطي المؤلفة كثيراً في أخبار مشهورة، ولم يزل كذلك حتى مات، ولا يجوز ترك كتاب الله وسنة رسوله إلا بنسخ، والنسخ لا يثبت بالإحتمال، ثم إن النسخ إنما يكون في حياة النبي ﷺ، لأن النسخ إنما يكون بنص ولا يكون النص بعد موت النبي ﷺ وإنقراض زمن الوحي، ثم إن القرآن لا ينسخ إلا بقرآن وليس في القرآن نسخ لذلك ولا في السنة، فكيف يترك الكتاب والسنة بمجرد الآراء والتحكم أو بقول صحابي أو غيره^(١).

● والخلاصة: ختم الله تعالى آية الأنفال بقوله ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، وفي هذا تحذير من الاختلاف، وإخبار بأن طاعة الرسول طاعة الله، وختم سبحانه آية الخمس بقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانِ﴾^(٣)، قال ابن كثير: أي إمتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزلنا على الرسول في القسمة^(٤) وختم سبحانه آية الزكاة بقوله «فريضة من الله والله عليم حكيم»^(٥) قال ابن كثير: أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه، فهو تعالى عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده فيما يقوله ويفعله ويشعره ويحكم به^(٦).

(١) المغني/ ابن قدامة ٢/٦٦٦.

(٢) سورة الأنفال آية ١.

(٣) سورة الأنفال آية ٤١.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٣١٣.

(٥) سورة التوبة آية ٦٠.

(٦) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٦.

● والمسيرة قد إجتهدت تحت سقف الإمتحان والابتلاء، ولكن أحاديث الإخبار بالغيب، وحركة التاريخ، تثبت أن بعض هذه الإجتهدات إنتهت في نهاية المطاف الى دائرة لا تحقق الأمان بصورة من الصور، قد تكون بيوت المال قد إمتلأت بالذهب والفضة عند المقدمة، ولكن عند النتيجة نرى أن تفضيل هذا عن ذاك في القسمة، أدى إلى الصراع القبلي بين ربيعة ومضر، وبين الأوس وبين الخزرج^(١) وأشعل الصراع العنصري بين العرب والعجم. والصريح والموالي^(٢) كما أدى الإجتهد في الخمس الى اختلاف الأمة في من هم عشيرة النبي الأقربين؟ ومن هم أهل بيته وعترته؟، وأدى الإجتهد في الأربعة أخماس الخاصة بالجنود، الى إحتواء الأمراء في الأمصار على معظم هذه الأموال، وكان لهذا أثراً سيئاً على إمتداد المسيرة، وأدى الإجتهد في سهم المؤلفة، الى إستواء ضعيف الإيمان مع قوى الإيمان، وأدى الى تهيج النفوس على الإنتقام بأي وسيلة، لأن الصدقة من خصائصها أنها تنشر الرحمة وتورث المحبة. وتآلف القلوب. وتبسط الأمن، فإذا أمسكت، وكان تحت سقف الأمة منافقين، منهم إثني عشر رجلاً أخبر النبي ﷺ أنهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ولن يدخلوا الجنة حتى يلج الجمل سم الخياط. كان إمساكها سبباً في فتح طرق الفساد.

رابعاً - [من معالم المسيرة]

في عهد النبي ﷺ، كانت الأحكام والفرائض والحدود وسائر السياسات الإسلامية قائمة ومقامة، ثم لم تزل بعد إرتحاله ﷺ تنقص وتسقط حكماً فحكماً يوماً فيوما بيد الحكومات الإسلامية، وعلى إمتداد

(١) تاريخ البعقوبي ٢/١٠٦.

(٢) ابن أبي الحديد ٨/١١١.

المسيرة كان هناك شبه إنفصال بين الشعوب الإسلامية وحكامهم، فكثير من الحكومات لم تكن تعبر عن شعوبها، وبينما كان الأمراء وأصحاب المقاعد الأولى في الدولة يضيعون الصلاة ويتبعون الشهوات. كانت الشعوب تختزن بداخلها الفطرة النقية ببركة وجود القرآن الكريم، ونحن في بحثنا هذا في المسيرة الإسلامية. لم نرصد إلا حركة أصحاب المقاعد الأولى ومن دار في فلکهم، أما حركة الأمة الإسلامية ورفضها للانحراف فإن لهذا موضع آخر.

● وحركة الدعوة الخاتمة في إتجاه الشعوب هي حركة المنقذ للفطرة من الانحراف والضلال، ولقد أعطى النبي ﷺ الفكرة الصحيحة الداعية للفتح الإسلامي، وبين أن الفتح ليس للقتل أو الانتقام وإنما هو رحمة وشفقة على البلاد المفتوحة وتخليصها من نير العبودية وتطبيق النظام الإسلامي الفطري عليها، ولم تكن الغنائم هي غاية الفتح، فالغنائم ليس لها أهمية تذكر بجانب هدف الفتح الأسمى، فرفع الظلم عن البلد المفتوح هو المقصد سواء غنم الجيش أو لم يغنم، والإسلام ينظر إلى الغنيمة على أساس أنها من قبيل جوائز التشجيع للقتال في سبيل الله، لأن المقصود بالحرب الظفر على الأعداء، فإن غلبوا فقد حصل المطلوب وتكون الأموال التي غنمها المقاتلون زيادة على أصل الغرض، ولما كانت الغنيمة على طريق القتال في سبيل الله، وبما أن الله تعالى وضع أحكاماً خاصة بالقتال في سبيله، فإنه تعالى قسم الغنيمة على الجيش المنتصر لرفع معنوياته وترغيباً له على التكرار. وبالجملـة: الغنيمة زيادة على أصل الغرض الذي من أجله يقاتل الجيش. وهي ملك لله ورسوله وتوضع حيثما أراد الله ورسوله.

● وإجتهد الصحابة في غنائم الحرب، فصب هذا الإجتهد في نهاية المطاف في دوائر التنافس والتحاسد وغير ذلك، ويشهد ذلك

قوله ﷺ وهو يخبر بالغيب عن ربه في ما رواه مسلم عن عبد الله قال «قال رسول الله ﷺ: إذا فتحت عليكم فارس والروم أي قوم أنتم؟ قال عبد الرحمن بن عوف: كما أمرنا الله، فقال النبي ﷺ: أو غير ذلك. تتنافسون. ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون. أو نحو ذلك. ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض»^(١).

فالفتح أنتج ثقافة لم تكن في يوم من أهداف الفتح، وأيقظ الفتح غريزة العرب الجاهلية من الغرور والنخوة بعدما كانت في سكن بالتربية النبوية، والطريق الذي إنتهى بالتباغض كما مر في الحديث السابق، إمتد لينتهي بالبغي في حديث آخر يخبر فيه النبي ﷺ بالغيب عن ربه ويقول «سيصيب أمتي داء الأمم. الأشر والبطر. والتكاثر. والتشاحن. والتباغض. والتحاسد، حتى يكون البغي»^(٢).

والطريق الى البغي كان عليه أمراء لا يمتازون إلا بالسواعد القوية، وروى أن حذيفة قال لعمر بن الخطاب: إنك تستعين بالرجل الفاجر، فقال له عمر: إني لأستعمله لأستعين بقوته. ثم أكون على قفائه»^(٣)، وقال في فتح الباري: والذي يظهر من سيرة عمر في أمراؤه الذين كان يؤمرهم في البلاد. أنه كان لا يراعي الأفضل في الدين فقط، بل يضم اليه الذي عنده مزيد من المعرفة بالسياسة، فلأجل هذا إستخلف معاوية والمغيرة بن شعبة وعمر بن العاص، مع وجود من هو أفضل منهم في أمر الدين والعلم»^(٤).

(١) رواه مسلم (الصحيح ١٨/٩٧).

(٢) رواه الحاكم وصححه (كنز العمال ٣/٥٢٦).

(٣) رواه أبو عبيد (كنز العمال ٥/٧٧١).

(٤) فتح الباري ١/١١٦.

وذكر ابن حجر أن عمر ولي إياس بن صبيح القضاء في البصرة، وكان إياس من أصحاب مسيلمة الكذاب^(١)، وكتب عمر الى الأمراء أن يشاوروا طليحة بن خويلد، وكان طليحة قد أسلم ثم إرتد ثم أسلم. وكان قد إدعى النبوة^(٢) وروى أن ابن عدي الكلبي قال لعمر: أنا امرؤ نصراني، فقال عمر: فما تريد؟، قال: أريد الإسلام، فعرضه عمر عليه، ثم دعا له برمح، فعقد له على من أسلم، وقال عوف بن خارجة: ما رأيت رجلاً لم يصل صلاة أمر على جماعة من المسلمين قبله^(٣).

● وإذا كان طريق البغي من علاماته التنافس والتحاسد والتدابير والتباغض، فإنه يختزن في أحشائه معالم الضلال، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «لم يزل أمر بني إسرائيل معتدلاً، حتى نشأ فيهم المولدون. وأبناء سبايا الأمم التي كانت بنو إسرائيل تسبيها، فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا»^(٤)، فأبناء الأمم إذ لم يجدوا الرعاية والتربية الصحيحة، يصبحوا من العوامل التي تساعد على الهدم، وهؤلاء في المسيرة الإسلامية ترعرعوا تحت سقف الدولة الأموية، ثم إمتدوا بإمتداد المسيرة، وذكر الطبري: إن أول سبي قدم المدينة من العجم كان في عهد أبي بكر^(٥)، وذكر البلاذري: أن معاوية حاصر قيسارية حتى فتحها فوجد من المرتزقة سبعمائة ألف. ومن السامرة ثلاثين ألفاً. ومن اليهود مائتي ألف^(٦). فبعث الى عمر عشرين ألفاً من السبي^(٧).

(١) الاصابة ١/١٢٠.

(٢) البداية والنهاية ٧/١٣٠.

(٣) الاصابة ١/١١٦.

(٤) رواه الطبراني (كتر العمال ١/١٨١).

(٥) تاريخ الأمم ٤/٢٧.

(٦) فتوح البلدان ص ١٤٧.

(٧) البداية والنهاية ٧/٥٤.

● فالطريق كان عليه ضعيف الإيمان، وكان عليه أبناء الأمم، وكان عليه أمراء التنافس والتحاسد والتدابير والتباغض، والبغي، وكان عليه المنافقين ومنهم إثني عشر رجلاً حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا، وعلى طريق مثل هذا لا نستبعد أن تضيع الصلاة، وقد سجل حذيفة البادرة الأولى قبل وفاته، فقال «إبتلينا، حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سرّاً»^(١)، وكان النبي ﷺ قد أخبر بالغيب عن ربه، أن الصلاة في طريقها إلى الضياع، فعن أبي ذر قال «قال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر أمراء يكونون بعدي يमितون الصلاة فصل الصلاة لوقتها...»^(٢) قال النووي: أي يجعلونها كالमित الذي خرجت روحه^(٣).

وروى أن الوليد بن عقبة - وكان أخو عثمان لأمه - حين كان والياً لعثمان بن عفان على الكوفة أخر الصلاة، فقام عبد الله بن مسعود فصلى بالناس، فأرسل إليه الوليد وقال له: ما حملك على ما صنعت أجهلك من أمير المؤمنين أمراً أم إبتدعت؟ فقال: لم يأتني من أمير المؤمنين أمراً ولم أبتدع. ولكن أبى الله عز وجل علينا ورسوله ﷺ أن نتترك بصلاتنا وأنت في حاجتك^(٤).

● وبينما كان الأمراء يमितون الصلاة، كانت الصلاة تؤدي بروحها خلف علي بن أبي طالب، روى مسلم عن مطرف قال «صليت أنا وعمران بن حصين خلف علي بن أبي طالب، فكان إذا سجد كبر وإذا رفع رأسه كبر، وإذا نهض من الركعتين كبر، فلما إنصرفنا من الصلاة. أخذ عمران بيدي ثم قال: قال صلى بنا هذا صلاة محمد ﷺ، وفي

(١) البداية والنهاية ٧/٥٤.

(٢) رواه مسلم والترمذي وصححه (تحفة الأحوازي ١/٥٢٤).

(٣) تحفة الأحوازي ١/٥٢٤.

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ١/٣٢٤).

رواية قال عمران: قد ذكرني هذا صلاة محمد ﷺ^(١)، وروى أن عمران بن حصين مات سنة إثنين وخمسين هجرية^(٢).

● ولما كان حذيفة قد صلى سراً، ولما كان ابن مسعود قد شهد تأخير الصلاة، فإن أبي الدرداء قد شهد شيئاً آخر، فعن أم الدرداء قالت: دخل عليّ أبو الدرداء وهو مغضب، فقلت: من أغضبك؟ قال: والله لا أعرف فيهم من أمر محمد ﷺ شيئاً إلا أنهم يصلون جميعاً^(٣)، ومات أبو الدرداء في خلافة عثمان.

● ثم جاء عام ستين، وهو العام الذي حمل الصبيان أعلامه، وفيه قال النبي ﷺ «تعوذوا بالله من رأس الستين ومن إمارة الصبيان»^(٤)، وقال «ويل للعرب من شر قد اقترب. على رأس الستين تصير الأمانة غنيمة، والصدقة غرامة، والشهادة بالمعرفة، والحكم بالهوى»^(٥)، فرأس الستين تطوير للعربة التي تنطلق بوقود الرأي، ورأس الستين هو الوعاء الذي يصب فيه إمامة الصلاة من العهود التي سبقتها، وينطلق منها وقود إضاعة الصلاة وقراءة القرآن بلا تدبر، قال النبي ﷺ وهو يخبر بالغيب عن ربه. «يكون خلف بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة وإتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً، ثم يكون خلف يقرؤن القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن. ومنافق. وفاجر»^(٦) وعن أبي سعيد قال:

(١) رواه مسلم ب قراءة الفاتحة (الصحيح ٢/٨).

(٢) الاصابة ٥/٢٦.

(٣) رواه أحمد واسناده جيد (الفتح الرباني ١/٢٠٠).

(٤) رواه أحمد وأبو يعلى (كنز العمال ١١/١١٩).

(٥) رواه الحاكم وصححه (المستدرک ٤/٤٨٣).

(٦) رواه أحمد وقال الهيثمي رجاله ثقات (الزوائد ٦/٢٣١) وقال ابن كثير رواه أحمد واسناده على شرط السنن (البداية ٦/٢٢٨، التفسير ٣/١٢٨) ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه والبيهقي (كنز ١١/١٩٥) (المستدرک ٤/٥٠٧).

المنافق كافر به، والفاجر يتأكل منه، والمؤمن يؤمن به^(١).

ومن الدليل على أن جيل الستين أخذ وقوده مما سبقوه، أن النبي ﷺ أخبر في حديث آخر بأن كثرة المال هي الخلفية الأساسية التي عليها يتم تفريخ هؤلاء، قال ﷺ «مما أتخوف على أمتي أن يكثر فيهم المال حتى يتنافسوا فيقتلون عليه، وإن مما أتخوف على أمتي أن يفتح لهم القرآن. حتى يقرأه المؤمن والكافر والمنافق»^(٢).

فالمال أنتج التنافس. والتحاسد والتدابير والتباغض. والبغى، وفتح القرآن أمام العامة مع عدم وجود العالم به، أدى إلى ترتيله في زحام الأسواق، حيث لا مستمع ولا منصت، ومن الأصاغر أخذ العلم الذي أدى إلى ضياع الصلاة، ولقد سئل النبي ﷺ عن أشراط الساعة، فقال «أن من أشراطها أن يلتمس العلم عند الأصاغر» قال ابن المبارك: الأصاغر الذين يقولون برأيهم^(٣)، وعن ابن مسعود قال: لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإن أخذوه من أصاغرهم وشرارهم هلكوا^(٤)، وعن أنس قال. قيل: يا رسول الله متى ندع الإهتمام بالمعروف والنهي عن المنكر، قال: إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل، إذا كانت الفاحشة في كباركم. والملك في صغاركم، والعلم في رذالكم^(٥).

● وإذا كان أبو الدرداء قد شهد وفاته أنه لا يعرف في الناس من أمر محمد ﷺ شيئاً إلا أنهم يصلون جميعاً، فإن أنس بن مالك شهد عام

(١) رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي (المستدرک ٤/٥٠٧).

(٢) رواه الحاكم وصححه (کنز ١٠/٢٠٠).

(٣) رواه ابن عبد البر (جامع العلم ١/١٩٠).

(٤) رواه ابن عبد البر (جامع العلم ١/١٩٢).

(٥) قال البوصيري: رواه ابن ماجة واسناده صحيح. ورواه أحمد (الفتح الرباني ١٩/١٧٧).

ستين، حيث مقدمة الخلف الذين أضاعوا الصلاة وإتبعوا الشهوات، روى البخاري عن الزهري قال «دخلت على أنس فوجدته يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: ما أعرف شيئاً مما أدركت، إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت»^(١)، ومات أنس سنة ثلاث وتسعين، وكان يقول: لم يبق أحد صلى القبليتين غيري^(٢).

وفي الخلف الذين يضيعون الصلاة بعد أنبياء الله، يقول تعالى: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح وعن ذرية إبراهيم وإسرائيل. وممن هدينا وإجتبينا. إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة وإتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً»^(٣). قال المفسرون: ذكر الله حزب السعداء. وهم الأنبياء ومن إتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره المؤدين فرائض الله، ثم ذكر سبحانه الخلف: أي البدل السيء. وقوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم﴾ أي قام مقام أولئك الذين أنعم الله عليهم. وكانت طريقتهم الخضوع والخشوع لله بالتقدم إليه بالعبادة، قوم سوء أضاعوا الصلاة، وضياع الشيء: فساد أو إفتقاده، ومعنى أنهم أضاعوا الصلاة: أي أفسدوها بالتهاون فيها والإستهانة بها، حتى تنتهي إلى أمثال اللعب بها والتغيير فيها والترك لها، فإذا كانوا قد فعلوا هذا بالصلاة فإنهم لما سواها من الواجبات أضيع. لأنها عماد الدين وقوامه، ثم أخبر سبحانه. بأن القوم السوء الذين أضاعوا الصلاة وهي الركن الأصيل في العبودية. وإتبعوا الشهوات، هؤلاء سيلقون غياً: أي خسارة، وهذه العقوبة سنة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، يعاقب الله بها كل خلف طالح، وذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية، أن

(١) رواه البخاري (الفتح الرباني ١/٢٠٠).

(٢) الإصابة ١/١٧١.

(٣) سورة مريم آية ٥٩.

هذا الخلف في هذه الأمة أيضاً^(١).

● والخسارة التي توعد الله بها الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، يحمل أسبابها أمراء السوء وسبائا السوء الذين تربوا على القصص وتسربت اليهم روح الأمم المستعلية الجبارة، فهؤلاء وغيرهم فتحوا أبواب القتال من أجل الملك، وعند نهاية القتال، وفي نهاية المسيرة كانت الخسارة عنواناً رئيسياً لكل شيء في عالم الإستدراج.

أما القتال على الملك. فيشهد به أبو برزة الأسلمي. روى البخاري عن أبي المنهال قال «لما كان ابن زياد ومروان بالشام، ووثب ابن الزبير بمكة، ووثب القراء بالبصرة، إنطلقت مع أبي إلى أبي برزة الأسلمي. فقال أبي: يا أبا برزة. ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ فقال: إني إحتسبت عند الله أني أصبحت ساخطاً على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة والقلة والضلالة، وإن الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد ﷺ، حتى بلغ ما ترون، وهذه الدنيا أفسدت بينكم، إن ذاك الذي بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا، وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذي بمكة والله إن يقاتل إلا على الدنيا»^(٢).

● ونتيجة القتال على الملك، لم تستطع الدولة البقاء تحت حكم إدارة مركزية واحدة، فعند بداية المسيرة. إتسعت الدولة من شواطئ المحيط الأطلسي في المغرب الى نهر السند في الشرق، ومن بحر مازندران في الشمال الى منابع النيل في الجنوب، وكما توسعت الدولة بسرعة. تجزأت بسرعة أيضاً، فإذا نظرنا على إمتداد المسيرة لنرصد

(١) تفسير ابن كثير ٣/١٢٨.

(٢) رواه البخاري (الصحيح ٤/٢٣٠).

معالم الاختلاف والتفرق على الأرض، نجد أن عبد الرحمن الداخل وهو أحد أفراد الأسرة الأموية، قد أسس دولة مستقلة في أسبانيا سنة ١٣٨ هـ، ورفع يد الحاكم العباسي عن ذلك الجزء من الدولة العباسية، ثم ظهر الأدراسة وأسسوا دولتهم. ثم جاء الأغالبة وإستولوا على بقية مناطق افريقيا عام ١٨٤ هـ، ثم ظهر ابن طولون في مصر والشام وفصلهما عن الدولة، وعند حلول سنة ٣٢٣ هـ أسس الأخشيد حكمه في مصر، ولم يبق تحت نفوذ الدولة العباسية السياسي من بلاد المغرب سوى رمزها.

أما في المشرق، فتم تأسيس الدولة الطاهرية. بخرسان عام ٢٠٤ هـ، وتتابع ظهور الدويلات الصغيرة بعد ذلك شرق إيران، كالصغاريين والسامانيين والغزنويين، ثم قامت الدولة البويهية في الجزء المتبقي لهم في إيران، ثم جاء المغول عام ٣٣٤ هـ ونزل الستار على الدولة العباسية، وكان للدولة فرع يحكم رمزيا في مصر، قضى عليه سليم الأول من سلاطين آل عثمان. بعد إستيلائه على مصر عام ٩٢٢ هـ.

● وعلى إمتداد المسيرة كانت الأصابع اليهودية تعمل في الخفاء، كان تثقب في الجدار بواسطة أبناء الأمة، وتحطم الأقفال بواسطة الحروب الصليبية المتعددة الأشكال، حتى جاء اليوم الذي طبقت فيه إتفاقية سايكس بيكو على الشام، وفرض الإنتداب الفرنسي على شمال هذه البلاد وقسم الى كيانين هما: سوريا ولبنان، وفرض الإنتداب البريطاني على جنوبها وقسم الى كيانين هما: الأردن وفلسطين، وفي عام ١٩١٧ ميلادية صدر وعد بلفور، الذي يقضي بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وفي عام ١٩٦٧ ميلادية. بسط اليهود أيديهم على ما حلموا به طيلة حياتهم، بسطوا أيديهم على الأرض الواسعة. التي يحيط بها غطاء من كل مكان.

● لقد بدأ الطريق من عند البحث عن الدرهم والدينار، والنبى ﷺ أخبر عن ربه جل وعلا، فقال «كيف أنتم إذا لم تجبوا ديناراً ولا درهماً، قالوا: ولم ذاك؟ قال: تنتهك ذمة الله وذمة رسوله. فيشد الله قلوب أهل الذمة فيمنعون ما بأيديهم»^(١)، وقال «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة الى قصعتها، قالوا: يا رسول الله. فمن قلة بنا يومئذ؟ قال: لا. ولكنكم غشاء كغشاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكرهيتكم الموت»^(٢) وقال صاحب عون المعبود: أي يدعوا بعضهم بعضاً لمقاتلتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال، ولقد وصفهم النبى ﷺ بغشاء السيل، لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم، وغشاء السيل: أي كالذي يحمله السيل من زبد ووسخ^(٣).

● لقد أخبر النبى ﷺ أن فتنة أمته في المال. وأن الدرهم والدينار سيهلكهم كما أهلك الذين من قبلهم، وبين النبى ﷺ موضع كل مال في الإسلام، وأمر الأمة بأن تتمسك بالكتاب والعتره، وأن تأخذ بأسباب الحياة التي تحقق السعادة في الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، فيأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر، ولكن القافلة تركت الأمراء الصبيان يعبثون بكل شيء عند المقدمة، خوفاً من الجوع والفقر، وفي نهاية المطاف وقف الحاضر أمام الماضي على رقعة واحدة، يدوي فيها صوت النبى الأعظم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، النبى العربى القرشى الهاشمى المكي المدنى صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يقول «منعت

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد (الفتح الرباني ٢٣/٣٦).

(٢) رواه أحمد بسند جيد (الفتح الرباني ٢٤/٣٢) وأبو داود.

(٣) عون المعبود ١١/٤٠٥.

العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر
إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأت، وعدتم من حيث بدأت،
وعدتم من حيث بدأت»^(١).

(١) رواه مسلم (الصحيح ١٨/٢٠) وأحمد (الفتح الرباني ٢٤/٣٧).

ثالثاً - [فجر الضمير]

أولاً : [الظلم والجور]

الظلم هو: وضع الشيء في غير موضعه، وقال في لسان العرب. ومن أمثال العرب في الشبه: من إسترعى الذئب فقد ظلم، وأصل الظلم الجور ومجاوزة الحد، ومنه حديث الوضوء «فمن زاد أو نقص. فقد أساء وظلم»: أي أساء الأدب بتركه السنة والتأدب بأدب الشرع، وظلم نفسه بما نقصها من الثواب من ترداد المرات في الوضوء، وفي التنزيل ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم لهم الأمن﴾^(١) قال ابن عباس: أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك، والظلم: الميل عن القصد. والعرب تقول. إنزم هذا الصوب ولا تظلم عنه. أي لا تجر عنه، وقوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾^(٢) يعني أن الله تعالى هو المحيي المميت. الرازق المنعم وحده لا شريك له. فإذا أشرك به غيره. فذلك أعظم الظلم. لأنه جعل النعمة لغير ربها^(٣).

(١) سورة الأنعام آية ٨٢.

(٢) سورة لقمان آية ١٣.

(٣) لسان العرب مادة ظلم ص ٢٧٥٧.

وبينت الدعوة الخاتمة أن الإفتراء على الله كذباً. والتكذيب بآياته أو الإعراض عنها. والصد عن سبيله سبحانه. من أعظم الظلم. لأن الظلم يعظم بعظمة من يتعلق به، وإذا إختص بجنب الله كان أشد الظلم. وأخبر سبحانه في كتابه. بأنه أهلك القرون الأولى لما ظلموا، ووعد سبحانه رسله بهلاك الظالمين. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ لَنْهَلِكُنَ الظَّالِمِينَ وَلَنَسَكَّنَنَّكَمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾^(١).

● وبالنظر الى المسيرة البشرية، تجد أن الظلم في نهاية المطاف، تدثر بأكثر من دثار من حرير وزخرف، وأصبح له عقائد وثقافات وقوانين، يشرف عليها حكومات وهيئات وجمعيات، والخارج عن هذه العقائد والقوانين هو في نظر هذه الدول والمؤسسات، خارج عن الحق، يستحق التأديب بواسطة الأساطيل أو السجون. أو بالتجويع تارة وبالتخويف تارة أخرى.

وبالنظر الى مسيرة الشعوب في عصرنا هذا. نجد للوثنية أعلاماً، وهذه الوثنية إستترت وراء التقدم العلمي والإختراعات الحديثة، وقد يكون التقدم مفيداً في عالم المادة، ولكن إذا كان للدنيا عمل. فلا بد أن يستقيم هذا العمل مع الزاد الفطري، ولقد ذم القرآن الكريم الذين لا يذعنون بيوم الحساب ويعملون للدنيا بسلوكهم الطريق الذي يغذي التمتع بالدنيا المادية فحسب، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٢). فالآية فسرت من هم الظالمين، وبينت أنهم الذين يصدون عن الدين الحق ولا يتبعون ملة الفطرة. وبالآخرة هم كافرون وهذه الوثنية لها جماعاتها ومؤسساتها وبنوكها التي تمول مخططاتها.

(١) سورة ابراهيم آية ١٣.

(٢) سورة هود آية ١٩.

وبالنظر الى مسيرة بني اسرائيل . نجد أنها أنتجت في عصرنا الحاضر عنكبوتاً ضخماً تختفي وراء خيوطه العديد من مؤسسات الظلم والجور، التي تعمل على إمتداد التاريخ من أجل تغذية الأمل . الذي حلم به بنو اسرائيل ليلاً طويلاً، وهو مملكة داوود وعاء العهد الإبراهيمي، وراء هذه الخيوط تختفي جمعيات مسيحية تعمل من أجل ذات الهدف . نظراً لأن المسيحية الحاضرة خرجت من تحت عباءة بولس . الذي إدعى أنه أوحى اليه وهو لم ير المسيح ولم يكن من تلاميذه . ولقد وضعه القرآن وأمثاله تحت سقف الظلم . في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ . وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾^(١) . وهذه الجمعيات التي تعمل ظاهرة أو من وراء ستار . لها مؤسساتها وبنوكها وأساطيلها التي تمول وتحمي مخططاتها وأهدافها .

وبالنظر الى المسيرة الخاتمة . نجد أن الظالمين فيها قد أخذوا بذيول الذين من قبلهم وإتبعوهم شبراً بشبر، وذراع بذراع، ومن إتبع أحد يصل معه الى حيث يصل، وما الله بظلام للعبيد .

وفيما يلي نلقي ضوءاً على جذور وفروع بعض الحركات التي عليها بصمة الظلم والجور . لتظهر جذورها الفكرية والعقائدية . ومواقع إنتشارها ونفوذها . ويرى الحاضر كيف يتقدم الظلم الى الخلف من أجل تنفيذ أهداف ما أنزل الله بها من سلطان .

١ - (مسيرات وثنية)

[البوذية]

أسسها «سدهار تاجوتاما» الملقب «ببوذا» (٥٦٠ - ٤٨٠ ق.م)

(١) سورة الأنعام آية ٩٣ .

ونشأ بوذا في بلدة على حدود نيبال، ويعتقد البوذيون. أن بوذا هو ابن الله. وهو المخلص للبشرية من مآسيها وآلامها وإنه يتحمل عنهم جميع خطاياهم، ويعتقدون أن تجسد بوذا كان بواسطة حلول روح القدس على العذراء «مايا»، ويعتقدون أن بوذا سيدخلهم الجنة، وأنه صعد الى السماء بجسده بعد أن أكمل مهمته على الأرض، ويؤمنون برجعة بوذا ثانية الى الأرض ليعيد السلام والبركة اليها، ويعتقدون أن بوذا ترك فرائض ملزمة للبشر الى يوم القيامة. والصلاة عندهم تؤدي الى إجتماعات يحضرها عدد كبير من الأتباع، والديانة البوذية منتشرة بين عدد كبير من الشعوب الآسيوية، وهي مذهبان كبيران: المذهب الشمالي. وقد غالى أهله في بوذا حتى الهوه، والمذهب الجنوبي. وهؤلاء معتقداتهم أقل غلواً في بوذا، وكتبهم منسوبة الى بوذا أو حكايات لأفعاله سجلها بعض أتباعه^(١).

[الهندوسية]

الهندوسية ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، لا يوجد لها مؤسس معين، ولا يعرف لمعظم كتبها مؤلفون معينون، فقد تم تشكيل الديانة وكذلك الكتب عبر مراحل طويلة من الزمن، وقيل: أن الآريون الغزاة الذين قدموا الى الهند في القرن الخامس عشر قبل الميلاد هم المؤسسون الأوائل للديانة الهندوسية، وللديانة عدة آلهة. ولكل منطقة إله، ولكل عمل أو ظاهرة إله، ولا يوجد عندهم توحيد بالمعنى الدقيق، لكنهم إذا أقبلوا على إله من الآلهة أقبلوا عليه بكل جوارحهم

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة/ الندوة العالمية للشباب طه الرياض ص ١١٠.

حتى تختفي عن أعينهم كل الآلهة الأخرى، ويقولون بأن لكل طبيعة نافعة أو ضارة إلهاً يعبد، كالماء والهواء والأنهار والجبال...، ويلتقي الهندوس على تقديس البقرة، ويعتقد الهندوس بأن آلهتهم قد حلت في إنسان اسمه «كرشنا»، وقد إلتقى فيه الإله بالإنسان، أو حل اللاهوت في الناسوت، وهم يتحدثون عن كرشنا كما يتحدث النصارى عن المسيح.

وكانت الديانة الهندوسية تحكم شبه القارة الهندية، ولكن المسافة الشاسعة بين المسلمين والهندوس. في نظريتهما الى الكون والحياة والى البقرة التي يعبدها الهندوس ويذبحها المسلمون ويأكلون لحمها، كان ذلك سبباً في حدوث التقسيم، حيث أعلن عن قيام دولة الباكستان بجزأها الشرقي والغربي والذي معظمه من المسلمين، وبقاء دولة هندية معظم سكانها هندوس، والمسلمون فيها أقلية كبيرة^(١).

[السيخية]

السيخ مجموعة دينية من الهنود الذين ظهوروا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي داعين الى دين جديد، فيه شيء من الديانتين الإسلامية والهندوسية، تحت شعار (لا هندوس ولا مسلمون) ولقد عادوا المسلمين خلال تاريخهم بشكل عنيف، كما عادوا الهندوس بهدف الحصول على وطن خاص بهم، وذلك مع الإحتفاظ بالولاء الشديد للبريطانيين خلال فترة إستعمار الهند.

ومؤسس السيخية الأول (ناناك) ولد سنة ١٤٦٩ م في قرية بالقرب من لاهور، وكان محباً للإسلام من ناحية مشدوداً الى تربيته وجذوره

(١) المصدر السابق ٥٣٧.

الهندوسية من ناحية أخرى، مما دفعه لأن يعمل على التقريب بين الديانتين، ويقال أن (ناناك) لم يكن الأول في مذهب السيخي هذا، وإنما سبقه إليه شخص آخر إسمه (كبير) (١٤٤٠ - ١٥١٨م) درس الدين الإسلامي والهندوكي، وكان حركة إتصال بين الدينين، وكان (كبير) يتساهل في قبول كثير من العقائد الهندوكية ويضمها الى الإسلام شريطة بقاء التوحيد، لكنه لم يفلح إذ إنقرض مذهب بموته مخلفاً مجموعة أشعار تظهر تمازج العقيدتين المختلفتين الهندوسية والإسلامية، مرتبطتين برباط صوفي يجمع بينهما.

للسيخ بلد مقدس يعتقدون فيه إجتماعاتهم المهمة. وهي مدينة (أمريتسار) من أعمال البنجاب وقد دخلت عند التقسيم في أرض الهند وأكثرية السيخ تقطن البنجاب إذ يعيش فيها ٨٥٪ منهم. ولهم لجنة تجتمع كل عام منذ سنة ١٩٠٨م تنشئ المدارس وتعمل على إنشاء كراسي في الجامعات لتدريس ديانة السيخ ونشر تاريخها. ويقدر عدد السيخ حالياً بحوالي ١٥ مليون نسمة داخل الهند وخارجها^(١).

[الكونفوشيوسية]

الكونفوشيوسية ديانة أهل الصين، يعتبر (الكونفوشيوس) (٥٥١ ق.م) المؤسس الحقيقي لهذه العقيدة، ويعتقدون بالإله الأعظم، أو اله السماء ويتوجهون اليه بالعبادة، وتقديم القرابين اليه مخصوصة بالملك أو بأمراء المقاطعات، ويعتقدون أن للأرض إله ويعبده عامة الصينيين، ويعتقدون أن للشمس والقمر والكواكب والسحاب والجبال. لكل منها إله، وعبادتها وتقديم القرابين اليها مخصوصة بالأمراء، كما أنهم يقدسون الملائكة ويقدمون اليها القرابين، ويقدسون أرواح أجدادهم

(١) المصدر السابق ٢٨٩.

الأقدمين ويعتقدون ببقاء الأرواح، والقرايين عبارة عن موائد يدخلون بها السرور على تلك الأرواح بأنواع الموسيقى، ويوجد في كل بيت معبد لأرواح الأموات ولآلهة المنزل، وتنتشر الكونفوشية في الصين، وزالت هذه الديانة عام ١٩٤٩ م عن المسرحين السياسي والديني، لكنها ما تزال كامنة في روح الشعب الصيني الأمر الذي يؤدي إلى تغيير ملامح الشيوعية الماركسية في الصين، وما تزال الكونفوشية ماثلة في النظم الاجتماعية في فرموزا (الصين الوطنية) وانتشرت كذلك في كوريا واليابان، وهي من الأسس الرئيسية التي تشكل الأخلاق. في معظم دول شرق آسيا وجنوبها الشرقي في العصرين الوسيط والحديث^(١).

٢ - مسيرات عنكبوتية :

خلفت المسيرة الإسرائيلية من ورائها، أبشع بيوت الظلم والجور، وهذه البيوت خرج منها الوقود الذي أشعل وغذى معظم الصراعات التي دارت على إمتداد عصرنا الحديث، وتذكر من هذه البيوت :

[الماسونية]:

والماسونية لغة معناها: البناءون الأحرار، وهي في الإصطلاح، منظمة يهودية سرية إرهابية غامضة، محكمة التنظيم، تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتدعو إلى الإلحاد والأباحية والفساد، جل أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، يوثقهم عهد بحفظ الأسرار، ويقومون بما يسمى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام^(٢).

(١) المصدر السابق ٤٢٥ .

(٢) المصدر السابق ٤٤٩ .

وإختلف في تاريخ ظهور الماسونية. لتكتيمها الشديد، والراجع أنها ظهرت سنة ٤٣ م، وسميت (القوة الخفية) وهدفها التنكيل بالنصارى وإغتيالهم وتشريدهم ومنع دين المسيح من الانتشار^(١)، وكانت تسمى في عهد التأسيس (القوة الخفية)، ومنذ بضعة قرون تسمت بالماسونية، لتتخذ من نقابة البنائين الأحرار لافتة تعمل من خلالها، وأهم أفكارهم ومعتقداتهم: أنهم يكفرون بالله ورسله وكتبه وبكل الغيبات، ويعملون على تقويض الأديان وإسقاط الحكومات الشرعية وإلغاء أنظمة الحكم الوطنية في البلاد المختلفة والسيطرة عليها، وإباحة الجنس وإستعمال المرأة كوسيلة للسيطرة، والعمل على تقسيم غير اليهود الى أمم متنازلة تتصارع بشكل دائم، وبث سموم النزاع داخل البلد الواحد، وإحياء روح الأقليات الطائفية العنصرية، والعمل على السيطرة على رؤساء الدول لضمان تنفيذ أهدافهم التدميرية، والسيطرة على الشخصيات البارزة في مختلف الاختصاصات لتكون أعمالهم متكاملة، والسيطرة على أجهزة الدعاية والصحافة والنشر والإعلام وإستخدامها كسلاح فتاك شديد الفاعلية، والسيطرة على المنظمات الدولية. كمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، ومنظمات الإرصاء الدولية. ومنظمات الطلبة والشباب والشابات في العالم.

والماسونية لها محافل في كل العالم تقريباً، ويدها أكثر موارد الإقتصاد ووسائل الإنتاج في العالم، ولهم عصابات إرهابية لتنفيذ العمليات الإجرامية للتخلص من كل من يقف في طريقهم عن قصد أو عن غير قصد^(٢) ويتبع الماسونية مجموعة نوادي ذات طابع خيري

(١) المصدر السابق ٤٥١.

(٢) المصدر السابق ٤٥٢.

إجتماعي في الظاهر، لكنها لا تعدو أن تكون واحدة من المنظمات العالمية التابعة للماسونية التي تديرها أصابع يهودية، بغية إفساد العالم والسيطرة عليه، ومن هذه النوادي (الليونز) وله نواد في أمريكا وأوروبا وكثير من بلدان العالم، ومركزه الرئيسي في (أوك بروك) بولاية إلينوي في الولايات المتحدة الأمريكية، ويتجلى النشاط الظاهري لليونز في: الدعوة إلى الإخاء والحرية والمساواة، وتنمية روح الصداقة بين الأفراد بعيداً عن الروابط العقيدية، ودعم المشروعات الخيرية. ودعم مشروعات الأمم المتحدة، وتقديم الخدمات إلى البيئة المحلية، والإهتمام بالرفاهية الإجتماعية، ونشر المعارف بكل الوسائل الممكنة، ولا يستطيع أي شخص أن يقدم طلب إنتساب إليهم. وإنما هم الذين يرشحونه ويعرضون عليه ذلك^(١).

ومن ذلك أيضاً «نادي الروتاري» وهو منظمة ماسونية تسيطر عليه اليهودية العالمية، ومن أفكار الروتاري ومعتقداته: عدم اعتبار الدين مسألة ذات قيمة لا في إختيار العضو ولا في العلاقة بين الأعضاء، ولا يوجد أي اعتبار لمسألة الوطن، وإسقاط الدين يوفر الحماية لليهود ويسهل تغلغلهم في الأنشطة الحياتية كافة، وهذا يتضح من ضرورة وجود يهودي واحد أو اثنين على الأقل في كل ناد، وباب العضوية غير مفتوح لكل الناس، ولكن على الشخص أن ينتظر دعوة النادي للانضمام إليه على حسب مبدأ الإختيار، والعمال محرومون من عضوية النادي، ولا يختار إلا من يكون ذا مكانة عالية، وبدأت أندية الروتاري في أمريكا سنة ١٩٠٥ م، وانتقلت بعدها إلى بريطانيا وإلى عدد من الدول الأوروبية، ومن ثم صار لها فروع في معظم دول العالم، ولها نواد في عدد من الدول العربية كمصر والأردن وتونس والجزائر وليبيا والمغرب

(١) المصدر السابق ٤٣١.

ولبنان، وتعد بيروت مركز جمعيات الشرق الأوسط^(١)، ويختلف الماسونية عن الروتاري. في أن قيادة الماسونية ورأسها مجهولان، على عكس الروتاري الذي يمكن معرفة أصوله ومؤسسيه، والروتاري وما يماثله من النوادي مثل: الليونز، الكيواني، أبناء العهد، تعمل في نطاق المخططات اليهودية من خلال سيطرة الماسون عليها والذين هم بدورهم مرتبطون باليهودية العالمية نظرياً وعملياً^(٢).

[الصهيونية]

الصهيونية حركة سياسية عنصرية متطرفة، ترمي الى إقامة دولة اليهود التي تحكم من خلالها العالم كله. وتكون عاصمتها أورشاليم، وإرتبطت الحركة الصهيونية باليهودي النمساوي (هرتزل)، الذي يعد الداعية الأول للفكر الصهيوني الذي تقوم على آرائه الحركة الصهيونية في العالم، وتعتبر الصهيونية جميع يهود العالم أعضاء في جنسية واحدة هي الجنسية الإسرائيلية، ويعتقدون أن اليهود هم العنصر الممتاز الذي يجب أن يسود وكل الشعوب الأخرى خدم لهم، ويقولون: لا بد من إغراق الأمميين في الرذائل بتدبيرنا من طريق من نهئهم لذلك من أساتذة وخدم وحاضنات ونساء ملاهي، ويرون: أن السياسة نقيض للأخلاق. ولا بد فيها من المكر والرياء أما الفضائل والصدق فهي رذائل في عرف السياسة، ويقولون: يجب أن نستخدم الرشوة والخدعة والخيانة دون تردد. ما دامت تحقق مآربنا. ويقولون: ننادي بشعارات (الحرية. والمساواة والإخاء) لينخدع بها الناس ويهتفوا بها وينساقوا وراء ما نريد لهم، ويقولون: سنعمل على دفع الزعماء الى قبضتنا

(١) المصدر السابق ٢٤٢.

(٢) المصدر السابق ٢٤٣.

وسيكون تعينهم في أيدينا وإختيارهم حسب وفرة أنصبتهم من الأخلاق الدنيئة وحب الزعامة وقلة الخبرة. ويقولون: سنسيطر على الصحافة تلك القوى الفعالة التي توجه العالم نحو ما نريد، ويقولون: لا بد أن نفتعل الأزمات الإقتصادية لكي يخضع لنا الجميع بفضل الذهب الذي إحتكرناه، ويقولون: إن كلمة الحرية تدفع الجماهير الى الصراع مع الله. ومقاومة سنته فلنشعها هي وأمثالها الى أن تصبح السلطة في أيدينا، ويقولون: لنا قوة خفية لا يستطيع أحد تدميرها. تعمل في صمت وخفاء وجبروت. ويتغير أعضاؤها على الدوام، وهي كفيلة بتوجيه حكام الأمميين كما نريد^(١).

ومن المنظمات التي خرجت من عباءة الصهيونية: (منظمة شهود يهوه) وهي منظمة تقوم على سرية التنظيم وعلنية الفكرة دينية وسياسية، ظهرت في أمريكا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي تدعى أنها مسيحية، والواقع أنها واقعة تحت سيطرة اليهود وتعمل لحسابهم، وهي تعرف بإسم (جمعية العالم الجديد) الى جانب (شهود يهوه) الذي عرفت به إبتداء من سنة ١٩٣١م. وتؤمن هذه المنظمة بعيسى رئيساً لمملكة الله، ويعملون من أجل إقامة دولة دينية دنيوية للسيطرة على العالم، ويقتطفون من الكتاب المقدس الأجزاء التي تحبب في اسرائيل واليهود ويقومون بنشرها، ويعادون النظم الوضعية ويدعون الى التمرد، ويعادون الأديان إلا اليهودية. وجميع رؤسائهم يهود، ويعترفون بقداسة الكتب التي يعترف بها اليهود ويقدمونها، ولهذه المنظمة علاقة مع المنظمات التبشيرية، والمنظمات الشيوعية والإشتراكية الدولية، ولهم علاقة كبيرة مع أهل النفوذ من اليونانيين والأرمن^(٢). وخرجت من تحت

(١) للمزيد. انظر المصدر السابق ص ٣٣٢.

(٢) المصدر السابق ٢٩٤.

عبادة اليهودية بعض التيارات الفكرية منها:

(العلمانية): وهي دعوة الى إقامة الحياة على غير الدين، وتعني في جانبها السياسي، بالذات اللادينية في الحكم. وهي إصطلاح لا صلة له بكلمة العلم. والمذهب العلمي، ومن أفكار ومعتقدات هذا التيار، أن بعضهم ينكر وجود الله أصلاً، والبعض الآخر يؤمن بوجود الله، لكنهم يعتقدون بعدم وجود أي علاقة بين الله وبين حياة الإنسان، ويعتقدون: أن الحياة تقوم على أساس العلم المطلق. وتحت سلطان العقل والتجريب، ويقولون: بفصل الدين عن السياسة وإقامة الحياة على أساس مادي، وينادون: بتطبيق مبدأ النفعية على كل شيء في الحياة. وإعتماد مبدأ (الميكيا فيلية) في الفلسفة والحكم والسياسة والأخلاق، ولقد رشح هذا التيار على العالم الإسلامي. وإنتشر بفضل الإستعمار والتبشير، وقام دعائه في العالم العربي والإسلامي. بالطعن في حقيقة الإسلام والقرآن والنبوة، وزعموا بأن الإسلام إستنفذ أغراضه، وهو عبارة عن طقوس وشعائر روحية، وزعموا بأن الإسلام لا يتلاءم مع الحضارة ويدعو الى التخلف^(١).

(التغريب): وخرج دعائه من تحت العبادة اليهودية، والتغريب تيار كبير ذو أبعاد سياسية وإجتماعية وثقافية وفنية، ويرمي الى صبغ حياة الأمم والمسلمين بخاصة بالأسلوب الغربي، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة وخصائصهم المتفردة، وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية، ولقد إستطاعت حركة التغريب أن تتغلغل الى كل بلاد العالم الإسلامي، والى كل البلاد المشرقية على أمل بسط بصمات الحضارة الغربية المادية الحديثة على هذه البلاد وربطها بالعجلة

(١) المصدر السابق ٣٦٥.

الغربية، ولم يخل بلد إسلامي أو مشرقي من هذا التيار^(١). ويضاف الى هذه التيارات. تيار (الوجودية) وهو تيار فلسفي، يكفر أتباعه بالله ورسله وكتبه وبكل الغيبات وكل ما جاءت به الأديان، ويعتبرونها عوائق أمام الإنسان نحو المستقبل، وقد إتخذوا الإلحاد مبدأ ووصلوا الى ما يتبع ذلك من نتائج مدمرة، ومن أشهر زعماء هذا التيار «جان بول سارتر» الفرنسي المولود سنة ١٩٠٥ م، وهو ملحد ويناصر الصهيونية، وانتشرت أفكار هذا التيار بين المراهقين والمراهقات في فرنسا وألمانيا والسويد والنمسا وانجلترا وأمريكا وغيرها، حيث أدت الى الفوضى الخلقية والإباحية الجنسية واللامبالاة بالأعراف الاجتماعية والأديان^(٢).

ويضاف الى ذلك (الفرويدية) وهي مدرسة في التحليل النفسي. أسسها اليهودي (سيجموند فرويد) وهي تفسر السلوك الإنساني تفسيراً جنسياً، وتجعل الجنس هو الدافع وراء كل شيء، كما أنها تعتبر القيم والعقائد حواجز وعوائق تقف أمام الإشباع الجنسي. مما يورث الإنسان عقداً وأمراضاً نفسية، ولم ترد في كتب وتحليلات فرويد أية دعوى صريحة للأنحلال كما يتبادر الى الذهن، وإنما كانت هناك إيماءات تحليلية كثيرة تتخلل المفاهيم الفرويدية. تدعو الى ذلك، وقد إستفاد الإعلام الصهيوني من هذه المفاهيم لتقديمها على نحو يغري الناس بالتحلل من القيم ويسر لهم سبله بعيداً عن تعذيب الضمير^(٣).

وإستغل اليهود المذهب (الرأسمالي) والرأسمالية نظام إقتصادي ذو فلسفة إجتماعية وسياسية. يقوم على أساس تنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها، متوسعاً في مفهوم الحرية، ولقد ذاق العلم بسببه

(١) المصدر السابق ١٥٤.

(٢) المصدر السابق ٥٤٤.

(٣) المصدر السابق ٣٨١.

ويلات كثيرة، وما تزال الرأسمالية تمارس ضغوطها وتدخلها السياسي والاجتماعي والثقافي، وترمي بثقلها على مختلف شعوب الأرض، وتقوم الرأسمالية في جذورها على شيء من فلسفة الرومان القديمة، يظهر ذلك في رغبتها في إمتلاك القوة وبسط النفوذ والسيطرة، ولقد تطورت متنقلة من الإقطاع الى البرجوازية الى الرأسمالية. وخلال ذلك إكتسبت أفكاراً ومبادئ مختلفة. تصب في تيار التوجه نحو تعزيز الملكية الفردية والدعوة الى الحرية، ولا يهم الرأسمالية من القوانين الأخلاقية إلا ما يحقق لها المنفعة ولا سيما الإقتصادية منها على وجه الخصوص، وتدعو الرأسمالية الى الحرية وتتبنى الدفاع عنها. لكن الحرية السياسية تحولت الى حرية أخلاقية وإجتماعية. ثم تحولت بدورها الى إباحية، وإزدهرت الرأسمالية في إنجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان وأمريكا، ولي معظم العالم الغربي، وكثير من دول العالم يعيش في جو من التبعية لها، ووقف النظام الرأسمالي الى جانب إسرائيل دعماً وتأييداً بشكل مباشر أو غير مباشر^(١).

ووضع اليهود بصماتهم على المذهب (الشيوعي) وهو مذهب فكري يقوم على الإلحاد. وأن المادة هي أساس كل شيء، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الإقتصادي، وظهر المذهب على يد (ماركس) اليهودي الألماني (١٨١٨ - ١٨٨٣ م) وتجسد في الثورة البلشفية التي ظهرت في روسيا سنة ١٩١٧ م بتخطيط من اليهود، وتوسعت الثورة على حساب غيرها بالحديد والنار، وقد تضرر المسلمون منها كثيراً، وأفكار ومعتقدات هذا المذهب تقوم على: إنكار وجود الله وكل الغيبات، وقالوا: بأن المادة هي أساس كل شيء، وفسروا تاريخ البشرية بالصراع بين البرجوازية والبروليتاريا، وقالوا أن

(١) المصدر السابق ٢٣٧.

الصراع سينتهي بدكتاتورية البروليتاريا، وحاربوا الأديان واعتبروها وسيلة لتخدير الشعوب. مستثنين من ذلك اليهودية. لأن اليهودية شعب مظلوم!! وحاربوا الملكية الفردية وقالوا بشيوعية الأموال وإلغاء الوراثة، ولم تستطع الشيوعية إخفاء تواطئها مع اليهود. وعملها لتحقيق أهدافهم، فقد صدر منذ الأسبوع الأول للثورة قرار. ذو شقين بحق اليهود: أ - يعتبر عداا اليهود عداا للجنس السامي يعاقب عليه القانون. ب - الاعتراف بحق اليهود في إنشاء وطن قومي في فلسطين^(١) وهكذا وضع اليهود المسيرة البشرية بين مذهبين إقتصاديين، يعارض كل منهما الآخر، ليشند الصراع على إمتداد المسيرة، مع إحتفاظ اليهود بثمرات كل مذهب، وثمرات الصراع القائم بينهما.

[التبشير]

وأدلى النصارى بدلوهم على المسيرة البشرية. وخرجت قوافل التبشير المختلفة الأسماء المتحدة الهدف، ومن أفكار ومعتقدات هذه القوافل: محاربة الوحدة الإسلامية، وتشويه التعاليم الإسلامية، ونشر النصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث بعامة وبين المسلمين بخاصة، بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب، وتتلقى قوافل التنصير الدعم الدولي الهائل من أوروبا وأمريكا. ومن مختلف الكنائس والهيئات والجامعات والمؤسسات العالمية، وألقى التنصير بثقله حول العالم الإسلامي. ويتمركز في أندونيسيا وماليزيا وبنجلاديش والباكستان وفي أفريقيا بعامة، من التيارات التبشيرية التي يتبناها اليهود، طائفة (المورمون) وتلبس لباس الدعوة الى دين المسيح، وتنادي بالعودة الى الأصل. أي الى كتاب اليهود، ويعتقدون بأن الله أعطى وعده

(١) للمزيد: انظر المرجع السابق ٣١٠ وما بعدها.

لإبراهيم، ومن ثم لابنه يعقوب، بأن من ذريته سيكون شعب الله المختار، وكتابهم يشبه التلمود في كل شيء وكأنه نسخة طبق الأصل عنه^(١)، ومؤسس هذه الجماعة (يوسف سميث) ولد عام ١٨٠٥ م بمدينة شارون بمقاطعة وندسور التابعة لولاية فرمنت، ولقد جندت إسرائيل كل إمكاناتها لخدمة هذه الطائفة، وآمن بفكر هذه الطائفة كثير من النصارى، وكان دعائها من الشباب المتحمس، وقد بلغ عدد أفرادها أكثر من خمسة ملايين نسمة، ثمانون بالمئة منهم في أمريكا، ويتمركزون في ولاية (أوتا) حيث أن ٦٨٪ من سكان هذه الولاية منهم، ٦٢٪ من سكان مقاطعة البحيرات المالحة مسجلون كأعضاء في هذه الكنيسة، ومركزهم الرئيسي في ولاية (يوتا) الأمريكية، وهذا التيار إنتشر في الولايات المتحدة. وأمريكا الجنوبية. وكندا وأوروبا، كما أن لهم في معظم أنحاء العالم فروعاً ومكاتب ومراكز لنشر أفكارهم ومعتقداتهم، ويوزعون كتبهم مجاناً، ولهم (١٧٥) إرسالية تنصيرية كما أنهم يملكون: شبكة تلفزيونية، وإحدى عشرة محطة إذاعية، ويملكون مجلة شهرية بالإسبانية. وصحيفة يومية واحدة^(٢).

والخلاصة:

يجب أن نعترف بأن المسيرة البشرية حملت ضمن أحمالها البصمة الوثنية. التي زين الشيطان برنامجها وأغوى به قطاع عريض على إمتداد المسيرة، ونحن في عصرنا نرى أعلام هذا القطيع ويجب أن نعترف أن الماسونية شجرة عتيقة فروعها هي الصهيونية وملحقاتها، وهذه الشجرة في بستان يملكه اليهود، والخدم في هذا البستان هم علماء التغريب

(١) المصدر السابق ٤٨٦.

(٢) المصدر السابق ٤٨٧.

والعلمانية وغيرهم، ومهمة الخدم هي تذويب الإحساس القومي لدى الشعوب بنشر الأفكار العالمية، ونتيجة لذلك يكون اليهود هم الشعب الوحيد الذي يظل محتفظاً بقوميته. ويكون له المجد في النهاية وله السيطرة على جميع شعوب الأرض بإعتباره شعب الله المختار.

فالشعب اليهودي داخل دائرته. ظل على إمتداد تاريخه بعد السبي يؤمن بضرورة العمل من أجل إحياء مملكة داوود. التي يكون لها المجد على شعوب الأرض. ويسبح معها الجبال والطير. وظل أتباع هذا الإعتقاد على إمتداد تاريخهم وفي أحلك الأوقات يقيمون حياتهم على أساس هذا الدين الذي يحقق هذه النتيجة، وعندما عاشوا في بقاع الأرض المختلفة متباعدين. كانوا في نفس الوقت متقاربين نتيجة لوحدة الفكر والأمل، ولم يذوبوا في المجتمعات وإنما إجتمعوا في أحياء خاصة بهم داخل المجتمعات الكبيرة، وعملوا من أجل أن تكون المجتمعات الكبيرة في قبضتهم. وذلك عن طريق سيطرتهم على الإقتصاد ورجال الحكم.

وبعد عودة اليهود الى فلسطين. وبعد إنتصارهم عام ١٩٦٧، يخطيء من يظن أن الحرب بين الفطرة وبين اليهود قد إنتهت، ومخدوع كل من يظن أن كل ما هو معلق بين المسلمين وبين اليهود قد تحله العقود أو الموائيق أو اتفاقيات الصلح والإعتراف المتبادل، لأن المهمة الإسرائيلية لن تنتهي إلا بظهور أمير السلام الذي ينتظره اليهود، وقد يأخذ السلام بين العرب وبين اليهود أشكالاً متعددة، ولكن تبقى الحقيقة الأكيدة: أن هذا السلام في نظر اليهود سيكون ورقة تكتيكية من أوراق الحرب المستمرة، حتى يأتي أمير السلام (الدجال) فينصب فسطاطه في المنطقة. ويتبعه جميع الذين تعاموا عن هذه الحقيقة.

ويجب أن نعترف أن قطاع عريض داخل المسيرة الإسلامية لا

يعرف ذاته ولا يعرف القوى المعادية له، أو بمعنى آخر. يجب أن نعتزف بأن هؤلاء يبدوا وكأنهم لا يريدون أن يعرفوا ذاتهم أو كأنهم لا يقدرّون على محاولة المعرفة، وأنهم لا يعرفوا عدوهم معرفة حقيقية أو لعلهم لم يحاولوا أن يعرفوا، وفي جميع الحالات يجب أن نعتزف بأننا لا نعرف أنفسنا ولا نعرف عدونا.

● ويجب أن نعتزف بأن الفطرة يحيط بها الظلم من كل مكان، وأين الوسائل المحيطة بها يمسك بزمامها الجبان، وكلمة الجبان لا تعني الرجل الخائف الرعدي فقط، وإنما تعني ذلك الرجل الذي إذا تمكن من عدوه كان أكثر جبناً، بمعنى أنه لا يعرف في التعامل معه معنى من معاني النبالة أو الكرم أو الشهامة، إنما يستعمل معه أدناً الوسائل وأدناها إلى الحطة، والفطرة الإنسانية تحيط بها أكثر الناس جبناً، بمعنى أكثر الناس ميلاً للانتقام..

وإذا كان البحث العلمي قد قدم للمسيرة البشرية مجهودات عظيمة، من عصر الطاقة اليدوية إلى عصر الفحم. إلى عصر البخار.. إلى عصر البترول. إلى عصر الكهرباء، ومن عصر الذرة إلى عصر الإلكترونيات. إلى عصر الكمبيوتر إلى عصر الفضاء إلى عصر الهندسة الوراثية، فيجب أن نعتزف أن الأعظم من هذا المجهود الضخم استعمل في كل عصر من أجل خدمة مخططات الأهواء وأهداف المادية، وعن طريقة استطاع أصحابه أن يتغلغلوا داخل النفس لإغوائها لتكون عضواً على طريق أهدافهم.

إن العلوم المفيدة تكون في تناول الإنسان عندما تصلح أخلاقه، أما إذا وقف الجبان على أبواب المجهودات العلمية، فسيكون للظلم والجور وللفساد أعلاماً متعددة الألوان والأشكال، وفي عصرنا نرى المخطط اليهودي والوثني تحميه الترسانات النووية والكيميائية

والمكروبية. والترساة التقليدية، وأساطيل الطائرات والغواصات والدبابات وقاذفات الصواريخ والباتريوت، ونجد الفطرة في أماكن كثيرة. مقيدة بالديون وفوائد القروض ومحاذير السلاح وضغوط صندوق النقد الدولي وقرارات الأمم المتحدة، ونجدها مهددة من كل مكان. بعد أن فسد كل شيء. ولوثت البحار والأنهار بالنفط والمبيدات ومخلفات المصانع وسموم المعادن الثقيلة، ولوث الجو بغازات الكبريت والأزون والكربون والرصاص، واتخذ الجبان من قلب الأرض والبحر مخازن للموت النووي والرعب الذري يدفن فيه النفايات القاتلة لصناعاته المهلكة، ونجد الفطرة محاصرة بقوافل خرقت الشرائع وطلبت اللذة من وجوهها الشاذة باللواط والسحاق، ولقد رأينا كيف خرجت قوافل الشواذ تطالب بشرعية الفسق وتقنين زواج الرجال بالرجال وزواج النساء بالنساء، وتسير في مظاهرات علنية تطالب بحقوقها الشاذة، ولم يقتصر الأمر على خروج قبائل العهر والفسق في مظاهرات، وإنما تفننت قبائل أخرى في جعل الحرية الجنسية شريعة لمملكتها، وأقامت للزنا نواد ومؤسسات وأقمار فضائية تنشره، وأبدعت هذه القبائل في إخراج العهر والفجور والفسق والشذوذ. بجميع أوضاعه في أبهة من الألوان ومواكب من الزينة والزخرف. وإستأجرت لهذا الفتيات الساقطات من كل جنس لعرضهن عرايا. ثم ثبت هذا العهر ليستقبله كل من وجهه هوائي إستقبال الى الفضاء.

لقد ملأت الأرض ظلماً. والتطور ينطلق كل دقيقة بل كل ثانية. وما كان يحدث من إنجاز علمي في ألوف السنين. أصبح يحدث الآن في سنوات قليلة، ومعنى هذا أن المستقبل سيشهد تطوراً مضغوطاً في حيز تاريخي قصير، فإذا كان الجبان ساهراً ومشرفاً على هذا التطور، فإن معنى هذا أننا نهزول بالفعل الى النهاية. وقبل هذا اليوم يجب أن نعرف من نحن؟ ومن هو عدونا؟ وما هي أهدافنا وما هي أهداف

عدونا؟ ومن أين نبدأ وكيف نخرج من الدائرة المغلقة؟ إننا إذا لم نعرف كل هذا وغيره. فستدفع أجيالنا في المستقبل ثمناً باهظاً ويشهدوا جنازتهم على أقل تقدير وهم وراء أمير السلام، وسنعمد نحن هذه الجنازة لأن المستقبل ابن للماضي ولا ينفصل عنه. أجيئوا. أجيئوا يرحمكم الله. قبل أن يأتي يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

٢ - (مستقر المسيرات الإنحرافية)

يبعث الله تعالى الأنبياء والرسل ليذكروا الناس بالمخزون الفطري الذي وضعه الله في النفس البشرية عند بدأ الخلق، وهذا المخزون هو توحيده تعالى، ويقوم الأنبياء والرسل على إمتداد عهد البعثة بسوق الناس الى طريق الهدى ببيانهم للناس ما أنزل اليهم من ربهم، وبعد أن يقيم رسل الله الحجة على الناس. ينسى بعض الناس ما ذكروا به، ويقومون بأعمال تعارض الفطرة ووصايا الله، وأخبرت الدعوة الخاتمة أن الله تعالى يستدرج هذه المسيرات الإنحرافية على إمتداد المسيرة البشرية، وعلى إمتداد الإستدراج ينال الذين ظلموا عذاب الخزي في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾^(١).

وعذاب الإستدراج في الحياة الدنيا أبوابه مفتوحة، يدخل فيها الحاضر إذا أخذ بأسباب الإنحراف من الماضي، وإذا إنطلق الحاضر الى المستقبل ولم تحدثه نفسه بتوبة، إنتهت أقدامه الى المسيح الدجال، وفي دائرة الدجال تنال جميع رايات الإنحراف والشذوذ عذاب الخزي

(١) سورة الأنعام آية ٤٤.

ويقطع الله دابرهم بعذاب الإستئصال. والنبي الخاتم ﷺ أخبر بأن جميع الأنبياء حذروا أممهم من الدجال، وقال «إن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال»^(١)، وحذر النبي ﷺ من الدجال ومن كل عمل ينتهي إليه. ومن ذلك قوله «وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال»^(٢).

وطريق الدجال يبدأ بإنحراف دقيق عند المقدمة. ثم يتسع شيئاً فشيئاً على إمتداد المسيرة. وفي مناطق الإتساع ترفع للشذوذ رايات بعد أن الفه الناس. وهذه الرايات بينها النبي الخاتم ﷺ وهو يخبر بأشراط الساعة، ومن ذلك قوله «من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا»^(٣). وقال «إن بين يدي الساعة أياماً يرفع فيها العلم وينزل فيها الجهل ويكثر فيها الهرج والهرج القتل»^(٤)، فهذه العلامات تظهر على طريق الفتن والانحراف. وبينها النبي الخاتم ليراجع الناس أنفسهم على إمتداد المسيرة، ويشهدوا له بالنبوة بعد أن رأوا أحداثاً أخبر بها يوم أن كانت غيباً، فالأحداث في عالم المشاهدة المنظور دعوة للتوبة وتحذيراً من العقاب الذي يحمله طريق الإستدراج.

وآخر الزمان يقف تحت أعلام الدجال جميع المسيرات التي إنحرفت عن ميثاق الفطرة وأشركت بالله، ويقف تحتها صناع الفتن وأصحاب الأهواء وتجار الشذوذ وجلادي الشعوب، وجميع الذين ظلموا وصدوا عن سبيل الله العزيز الحكيم، فهؤلاء وغيرهم سينتظمون وراء قيادة الدجال آخر الزمان ويطيعون أوامره، وسيدخلون معه لقتال

(١) رواه الامام أحمد (الفتح الرباني ٢٤/٦٩).

(٢) رواه أحمد والبخاري ورجال الصريح (الفتح الرباني ٢٤/٦٩).

(٣) رواه مسلم (الصحيح ٨/٥٨).

(٤) رواه مسلم (الصحيح ٨/٥٨).

المهدي المنتظر والمسيح عيسى بن مريم عليهما السلام ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾^(١).

ثانياً - [القسط والعدل]

كما أن لطريق الشذوذ علامات، فإن لطائفة الحق علامات. وكما أن الله تعالى حذر من شر مخبوء في بطن الغيب. ومنه الدجال، فإنه تعالى بشر بخير مخبوء في بطن الغيب ومنه المهدي المنتظر ونزول عيسى بن مريم آخر الزمان.

١ - (أقوال العلماء في ظهور المهدي ونزول عيسى آخر الزمان)

قال الشوكاني: إن الأحاديث الواردة في المهدي متواترة. والأحاديث الواردة في الدجال متواترة. والأحاديث الواردة في نزول عيسى متواترة^(٢). وقال صاحب عون المعبود شرح سنن أبو داود: أعلم أن المشهود بين الكافة من أهل الاسلام على ممر الأعصار. أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت. يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلامية، ويسمى بالمهدي، ويكون خروج الدجال بعده وإن عيسى عليه السلام ينزل بعد المهدي أو ينزل معه فيساعده على قتل الدجال، ويأتم بالمهدي في صلاته، وخرج أحاديث المهدي جماعة من الأئمة منهم: أبو داود والترمذي وابن ماجه والبراز والحاكم والطبراني وأبو يعلى، وإسناد أحاديث هؤلاء بين الصحيح والحسن والضعيف. وقد بالغ المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون في تاريخه في تضعيف أحاديث المهدي كلها. فلم

(١) سورة يوسف آية ٢١.

(٢) عون المعبود ص ١١/٤٥٨.

يصب بل أخطأ^(١) وقال صاحب التاج الجامع للأصول: إشتهر بين العلماء سلفاً وخلفاً أنه في آخر الزمان لا بد من ظهور رجل من أهل البيت يسمى بالمهدي، يستولي على الممالك الإسلامية ويتبعه المسلمون ويعدل بينهم ويؤيد الدين، ولقد أخطأ من ضعف أحاديث المهدي كلها، وما روي من حديث لا مهدي إلا عيسى. فضعيف كما قال البيهقي والحاكم وغيرهما^(٢).

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: لا شك أن المهدي الذي هو ابن المنصور ثالث خلفاء بني العباس ليس هو المهدي الذي وردت الأحاديث المستفيضة بذكره. وإنه يكون في آخر الزمان يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، وقد أفردنا للأحاديث الواردة فيه جزءاً على حدة، كما أفرد له أبو داود كتاباً في سننه^(٣).

وقال الحافظ الكتاني: الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ حد التواتر، وهي عند الإمام أحمد والترمذي وأبي داود وابن ماجة والحاكم والطبراني وأبو يعلى والبزار وغيرهم. من دواوين الإسلام من السفن والمعاجم والمسانيد، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة، وبعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعيف، والأحاديث تشد بعضها بعضاً، وأمر المهدي مشهور بين الكافة من أهل الأسلام على ممر الأعصار، وأنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت النبوي يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون، ويسمى بالمهدي^(٤) وقال الكتاني: وفي شرح عقيدة السفاريني الحنبلي

(١) عون المعبود ص ١١/٣٦٢.

(٢) التاج الجامع للأصول ص ٥/٣٤١.

(٣) البداية والنهاية ٦/٢٨١.

(٤) نظم المتناثر في الحديث المتواتر ص ٢٢٦.

ما نصه: وقد كثرت بخروج المهدي الروايات حتى بلغت حد التواتر، وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عد من معتقداتهم، وقد رويت أحاديث المهدي عن الصحابة بروايات متعددة، وعن التابعين من بعدهم، مما يفيد مجموعته العلم القطعي، فالإيمان بخروج المهدي واجب كما هو مقرر عند أهل العلم ومدون في عقائد أهل السنة والجماعة^(١).

٢ - (فجر الضمير)

قال النبي ﷺ بعد أن أقام الحجة على المسيرة «وإيم الله. لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها»^(٢) وزاد في رواية: لا يزيغ عنها إلا هالك»^(٣) فالطريق واضح وضوح النهار، والله تعالى ينظر الى عباده كيف يعملون، وأخبر النبي ﷺ بأن المسيرة ستشهد أنماطاً بشرية يترتب على حركتها غربة الدين، وهذه النتيجة تُرى في قوله ﷺ «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء»^(٤) قال النووي: ظاهر الحديث، أن الإسلام بدأ في أحاد من الناس وقلة. ثم إنتشر وظهر. ثم سيلحقه النقص والإخلال حتى لا يبقى إلا في آحاد وقلة أيضاً كما بدأ^(٥). وغربة الدين تُرى في قول النبي ﷺ «الإسلام والسلطان أخوان توأمان. لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه. فالإسلام أسس (أي: أصل البناء) والسلطان حارث، ومالا حارث له يهدم. وما لا حارث له ضائع»^(٦)، ولذلك كان النبي ﷺ يقول «إن رحي الإسلام دائرة. وإن

(١) نظم المتناثر ص ٢٢٦.

(٢) رواه ابن ماجه (كتر العمال ١١/٣٧٠).

(٣) رواه ابن أبي عاصم (كتاب السنة ١/٢٧).

(٤) رواه مسلم (الصحيح ٢/١٧٧).

(٥) مسلم شرح النووي (٢/١٧٧).

(٦) رواه الديلمي (كتر العمال ٦/١٠).

الكتاب والسلطان سيفترقان. فدوروا مع الكتاب حيث دار^(١).

● والنجاة في عالم الغربة بين النبي ﷺ دائرتها، عن أبي هريرة قال. قالوا: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: أنا ومن معي، قالوا: ثم من؟ قال: الذي على الأثر، قالوا: ثم من؟، فرفضهم رسول الله^(٢).

وطائفة الحق على إمتداد المسيرة لها أعلامها، ولا يضرها من خذلها أو عاداها، لأنها حجة بمنهجها وحركتها على الناس، وأخبر النبي ﷺ. بأن هذه الطائفة تستقر أعلامها آخر الزمان. تحت قيادة المهدي المنتظر وعيسى بن مريم عليهما السلام، يقول النبي ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»^(٣)، وقال «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله. لا يضرهم من خذلهم. أو خالفهم. حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»^(٤) وقال «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوهم، حتى يقاتل آخرهم الدجال»^(٥). وقال «لا تزال طائفة من أمتي تقاتل على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم عند طلوع الفجر ببیت المقدس ينزل على المهدي»^(٦)، وفي رواية «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على من ناوهم حتى يأتي أمر الله. وينزل عيسى عليه السلام»^(٧).

فمن هذه الأحاديث نرى أن طائفة الحق على إمتداد المسيرة.

-
- (١) رواه الطبراني وابن عساكر (كنز العمال ١/٢١٦).
 - (٢) رواه أحمد وقال في الفتح رواه مسلم (الفتح الرباني ٢٣/٢١٩).
 - (٣) رواه مسلم (الصحيح ١٣/٦٥).
 - (٤) رواه مسلم (الصحيح ١٣/٩٧).
 - (٥) رواه الحاكم وصححه (المستدرک ٤/٤٥٠).
 - (٦) رواه أبو عمر الداني (عقد الدرر ص ٢٢٠).
 - (٧) رواه أحمد والحاكم وصححه وأبو داود (الفتح الرباني ٢٣/٢١٠).

تأخذ بأسباب الهدى . وتنطلق من الماضي الى الحاضر الى المستقبل .
لا يضرها من عاداها أو من خذلها . حتى تستقر نهاية المطاف أمام
فسطاط المهدي المنتظر .

والمهدي من أهل البيت . من أولاد علي وفاطمة رضي الله عنهما ،
قال النبي ﷺ «المهدي منا أهل البيت»^(١) ، وقال «المهدي من عترتي من
ولد فاطمة»^(٢) واسمه يواطىء اسم النبي ﷺ^(٣) .

● والمهدي يخوض معارك آخر الزمان ، وسيفتح الصين^(٤)
والهند^(٥) وجبل الديلم^(٦) وسيقضم ظهر الروم ويفتح القسطنطينية^(٧)
ويقاتل اليهود وأميرهم الدجال حتى ينتهي أمرهم بالإستئصال ، وقال
النبي ﷺ «يظهر على كل جبار وابن جبار ويظهر العدل»^(٨) .

وفي منهج المهدي يقول النبي ﷺ «هو رجل من عترتي يقاتل على
سنتي كما قاتلت أنا على الوحي»^(٩) ، وقال «يعمل بسنتي»^(١٠) ، وقال ﷺ

-
- (١) رواه أبو نعيم والحاكم وصححه (عقد الدرر ص ٢١) (المستدرک ٤/٥٥٧)
(عون المعبود ١١/٣٧٥) .
(٢) رواه أبو داود (السنن ٢/٤٢٢) والحاكم وابن ماجه (المستدرک ٤/٥٥٧)
(التاج الجامع للأصول ٥/٣٤٣) (كتر العمال ١٤/٢٦٤) (الحاوي للسيوطي
٢/٢٢٤) .
(٣) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم (الفتح الرباني ٢٤/٤٩) (جامع
الترمذي ٤/٥٠٥) .
(٤) انظر: عقد الدرر ص ٢٢٤ .
(٥) انظر: التاج الجامع للأصول ٥/٣٢٥ ، عقد الدرر ٢١٩ .
(٦) انظر: عقد الدرر ص ٢٢٤ .
(٧) انظر: عقد الدرر ص ٢١١ .
(٨) رواه الطبراني (الزوائد ٧/٣١٥) (الحاوي ٢/٢١٨) .
(٩) رواه نعيم بن حماد (الحاوي ٢/٢٣٣) (عقد الدرر ص ١٧) .
(١٠) رواه أبو نعيم (عقد الدرر ١٥٦) .

«يُبْعَثُ عَلَى إختلاف من الناس وزلازل، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً»^(١). وقال «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لبعث الله عز وجل . رجل منا يملأها عدلاً كما ملئت جوراً»^(٢). وعن حذيفة قال . قال النبي ﷺ: ويح هذه الأمة من ملوك جبابرة، يقتلون ويخيفون المطيعين إلا من أظهر طاعتهم، فالمؤمن التقي يصانعه بلسانه ويفر منهم بقلبه، فإذا أراد الله عز وجل أن يعيد الإسلام عزيزاً، فصم كل جبار وهو القادر على ما يشاء. أن يصلح أمة بعد فسادها، ثم قال رسول الله ﷺ: يا حذيفة. لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم، حتى يملك رجل من أهل بيتي تجري الملاحم على يديه، ويظهر الإسلام. لا يخلف الله وعده وهو سريع الحساب^(٣).

وعن ابن مسعود قال. قال رسول الله ﷺ: إن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءاً وتشريداً وتطريداً، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود، فيسألون الخير فلا يعطونه، فيقاتلون فينصرون، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي، فيملؤها قسطاً كما ملؤها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم، فليأتهم ولو حبوا على الثلج^(٤).

● وآخر الزمان يلتقي ابن علي بن أبي طالب. مع ابن مريم أخت هارون، يلتقي آخر أهل البيت في المسيرة الإسلامية، مع المسيح عيسى بن مريم آخر نبي في المسيرة الإسرائيلية، وكلاهما ظلمته مسيرة قومه،

(١) قال الهيثمي رواه الترمذي وغيره وأحمد وأبو يعلى ورجالهما ثقات (الزوائد ٧/٣١٤) (الفتح الرباني ٢٤/٥٠).

(٢) رواه أحمد وأبو داود (الفتح الرباني ٢٤/٤٩) (عون المعبود ١١/٣٧٣).

(٣) رواه نعيم بن حماد وأبو نعيم (عقد الدرر ص ٦٣) (الحاوي ٢/٢٢١).

(٤) رواه ابن ماجه حديث ٤٠٨٢، والحاكم (المستدرک ٤/٤٦٤) (كتر العمال ١٤/٢٦٨).

ولكن للعدل رداء على الوجود كله، ومن حكمة الله تعالى أن لا تنهدم الدنيا قبل أن يهيمن العدل على المسيرة البشرية، ليعلم الناس وهم تحت سقف الإمتحان والابتلاء. أن الحق يقف في النهاية، لأنه أصيل في الوجود، أما الباطل فطارىء لا أصالة فيه، الباطل زبد لا يمكث في الأرض، والباطل يطارده الله على إمتداد المسيرة ولا بقاء لشيء يطارده الله. قال تعالى: ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾^(١) ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين. قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون. فأعرض عنهم وإنظر. إنهم منتظرون^(٢)

صدق الله العظيم

وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين.

(١) سورة يوسف آية ٢١.

(٢) سورة السجدة آية ٢٨.

المراجع

- ١ - جامع البيان في تفسير القرآن - ابن جرير الطبري ، ط دار الريان ١٩٨٧
- ٢ - التفسير الكبير - فخر الدين الرازي ، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٠
- ٣ - تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ، ط دار التراث ، حلب ١٩٥٠ ، ط المنار القاهرة ١٩٤٧ .
- ٤ - تفسير الميزان - السيد الطبطبائي ، ط بيروت دار .
- ٥ - تفسير الكشاف - الزمخشري ، ط بولاق ١٢٨١ .
- ٦ - صحيح البخاري - محمد بن اسماعيل البخاري ، ط دار الكتاب الإسلامي ، ط الحلبي بالقاهرة .
- ٧ - صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج ، ط إحياء التراث بيروت ١٩٧٢ ، ط التحرير ١٣٢٩ .
- ٨ - الجامع الصحيح - أبو عيسى الترمذي ، ط الحلبي ١٩٧٥ القاهرة .
- ٩ - سنن أبو داود - أبو داود السجستاني ، ط دار الفكر بيروت .
- ١٠ - سنن ابن ماجه - أبو عبد الله محمد القزويني ، ط دار إحياء التراث بيروت

- ١١ - الفتح الرباني ترتيب مسند الامام أحمد - أحمد البنا، ط دار التراث العربي بيروت
- ١٢ - المستدرک - ابو عبد الله الحاكم، ط دار الفكر بيروت ١٩٧٨ .
- ١٣ - كتاب السنة - ابو بكر بن ابي عاصم، ط المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٠ .
- ١٤ - التاج الجامع للأصول - منصور ناصف، ط دار الفكر بيروت ١٩٨١ .
- ١٥ - كنز العمال - علاء الدين المتقي، ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٩ .
- ١٦ - مجمع الزوائد - علي ابي بكر الهيثمي، ط القدسي القاهرة .
- ١٧ - كشف الخفاء - اسماعيل بن محمد العجلوني، ط مؤسسة الرسالة بيروت .
- ١٨ - الخصائص الكبرى - جلال الدين السيوطي، ط المكتبة السلفية - المدينة المنورة ١٩٦٤ .
- ١٩ - فتح الباري - ابن حجر، ط الحلبي القاهرة ١٩٧٨ .
- ٢٠ - تحفة الأحوازي - المباركفوري، ط المكتبة السلفية - المدينة المنورة ١٩٦٤ .
- ٢١ - جامع بيان العلم - ابن عبد البر، ط دار الفكر .
- ٢٢ - نظم المتناثر في الحديث المتواتر - الكتاني، ط دار الكتب السلفية القاهرة .
- ٢٣ - المغنى / ابن قدامة، ط مكتبة الجمهورية القاهرة .
- ٢٤ - الإصابة - ابن حجر العسقلاني، ط دار العلوم الحديثة ١٣٢٨ ، ط دار الكتب العلمية .
- ٢٥ - تاريخ الأمم والملوك - ابن جرير الطبري، ط دار الفكر بيروت ١٩٧٩ .

- ٢٦ - البداية والنهاية - ابن كثير، ط دار المعارف ١٩٨١ .
- ٢٧ - شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد، ط مكتبة الحياة بيروت ١٩٨٣ .
- ٢٨ - فتوح البلدان - البلاذري، ط القاهرة ١٣١٩ .
- ٢٩ - عقيدة المسيح الدجال - سعيد أيوب، ط دار الهادي بيروت ١٩٩١ .
- ٣٠ - معالم الفتن - سعيد أيوب، ط دار الكرام بيروت ١٩٩٤ .
- ٣١ - الكتاب المقدس، ط دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ١٩٨٣ .
- ٣٢ - كتاب الحياة توزيع دار الثقافة القاهرة ١٩٨٢ .
- ٣٣ - تفسير انجيل متى - متى هنري، ط مكتبة المحبة، ط ٨٣ .
- ٣٤ - مفتاح الأسفار، ط مطرانية بني سويف ٨١ .
- ٣٥ - سيرة المسيح، ط كنيسة قصر الدبارة ٨٣ .
- ٣٦ - الكنز المرصود في فضائح التلمود. د. محمد الشرقاوي، ط الوعي الإسلامي ١٩٩٠ .
- ٣٧ - نقد التوراة - د. أحمد حجازي السقا، ط الكليات الأزهرية ١٩٨٧ .
- ٣٨ - عقائدنا - د. محمد الصادوقي بيروت ١٩٧٢ .
- ٣٩ - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة/ الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض ١٩٧٢ .
- ٤٠ - مقارنة الأديان - ابراهيم خليل، ط دار المنار ١٩٨٩ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
● دعاء	٥
● المدخل:	٧
● المقدمات والنتائج الحقيقية	٧
- حجة الفطرة - الهداية وأصول الاختلاف - أضواء على الإلقاءات الشیطانية - تأملات في الإمتحان والابتلاء - الدين الخاتم - خاتمة المطاف - حكمة الإخبار بالغيب	(٤٣ - ٧)
● الحجة والأروقة المتصدعة (اليهود والطريق الى الدجال)	٤٥
(أولاً) نقض العهد	٤٧
القاعدة والذروة - التحذيرات - الانقلاب على التعاليم -	
عهد الهيكل	٤٧ - ٦٦
(ثانياً) القتال على الملك	٦٧
مملكة اسرائيل - مملكة يهوذا - نظرات على المسيرة	٦٧ - ٨٤
(ثالثاً) فتن البحث عن هوية	٨٥
فتنة العجل - فتنة الدماء النقية - فتنة التأويل - السقوط ...	٨٧ - ١٠٥
● المسيح عليه السلام وأعمدة الأروقة المتصدعة	١٠٧
(أولاً) على طريق آل هارون	١٠٩
الطريق الى المسيح عليه السلام - على أبواب المسيح ..	١٠٩ - ١٢٧
(ثانياً) دعوة المسيح عليه السلام	١٢٩

أصول الدعوة - الدعوة والمفاصلة - الدعوة والتحريف -	
التبشير	١٢٩ - ١٥٧
(ثالثاً) الشك والتقدم الى الخلف	١٥٨
أضواء على أقوال المسيح - الوصايا الأخيرة - الشك المريب - التقدم الى الخلف	١٦١ - ٢٠٥
● وجاء الحق	٢٠٧
(أولاً) الدعوة الخاتمة وأهل الكتاب	٢٠٩
الدعوة الى التوحيد - القبلة - إتباع ملة ابراهيم - البيان والإنذار -	
العنكبوت	٢١٠ - ٢٣٢
(ثانياً) من وصايا الدعوة الخاتمة	٢٣٣
ظل المنزلة الممدود - أضواء على المنزلة العالية - الترغيب	
والترهيب	٢٣٣ - ٢٧٠
رحيل النبي الخاتم	٢٧٠
● الطريق الى المهدي عليه السلام	٢٧٠
(أولاً) نور الظلام	٢٧٧
موكب الحجة - الإخبار بالغيب - التحذيرات الذهبية	٢٧٧ - ٢٩٩
(ثانياً) أضواء على المسيرة	٣٠٠
المسيرة بعد وفاة النبي (ص) - حركة الإجتهد والرأي - المقدمات	
العمرية والنتائج الأموية - من معالم المسيرة	٣٠٠ - ٣٤٤
(ثالثاً) فجر الضمير	٣٤٥
الظلم والجور - مسيرات وثنية - مسيرات عنكبوية - مستقر المسيرات	
الإنحرافية - القسط والعدل - فجر الضمير	٣٤٥ - ٣٧٢
● المراجع	٣٧٣
الفهرس	٣٧٧